كعكة واحدة بالسكر

الكتاب: كعكة واحدة بالسكر
المؤلف: إيهاب عصمت
تصميم الغلاف: نور حسام
تدقيق لغوي: هدير جودة
رقم الإيداع: 2019/28792
الترقيم الدولي: 978-977-778-**222-7**

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

إيهاب عصمت

كعكة واحدة بالسكر

رواية

للنشر والتوزيع

يا من لا زلت تعرف حدودًا لزمانك ومكانك، كن مُستعدًا فأنت على أعتاب الأرض صفر، تبدو الكعكة جافة جدًا كالحياة، لكنها قد تصبح أكثر اِحتمالًا إذا ما وضعنا عليها القليل من السُكر اِنتبه فقد يكون طعم السكر الحلو فخًا يَلْقِي بك في أعماق الهاوية.

هذا العمل من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه في الأحداث والمواقف، فهي على مسئولية من فهم العمل من وجهة نظر الشخصية.

(1)

كعكة واحدة بالسكر، تُحلي حياتك

الحر شديدٌ بالخارج، والسيارة تتأرجح ككرة مطاطية فوق ذلك الشريط الساخن الذي تحفه المزارع من الجانبين، والمسمى بالطريق الزراعي، أمَّا بالنسبة ليحيى فهو الجحيم ذاته، ثلاثة أعوام كاملة وهو يتأرجح داخل ذلك الصندوق الأحمر السخيف، المسمى مجازًا سيارة، فهي في حقيقة الأمر تبدو كصندوق عتيق له عجلات، مرسوم عليه، رسم بدائي لطفل يتناول كعكة، وفوقه كتبت جملة، "كعكة واحدة بالسُكر تُحلي حياتك".

يقوم يحيى بتوزيع نوع رديء من الكعك والمقرمشات، التي تلقى رواجًا داخل القرى والمناطق الشعبية لرخص ثمنها. كعادته، اِستمر في إدارة مؤشر الراديو بحثًا عن إذاعة الشرق الأوسط، كان يستمتع كثيراً في ذلك الشهر، حيث برامج رمضان المختلفة، والشيقة اِبتسم في يأس عندما اِلتقط إشارة الراديو الضعيفة التي جاءت مشوشة. أشعل سيجارته في حذر خشية أن ينتبه أحد من المارة فيقوم بلعنة فالدنيا صيام كما يقولون في الأرياف!! حك ذقنه في لامبالاة وعدل من الكاب الأسود المرسوم عليه علامة فريق ريال مدريد الذي يشجعه. سمع أحد الخبراء وهو يتكلم عن فرص العمل المتاحة للشباب، وأنهم هم الذين يرفضون العمل، ندت من أنفه حركة لا إرادية ماجنة تبعها بضحكة أكثر مجونًا وكأن تصريح

الخبير قد أصابه بلوثة، تلفت يمينًا ويسارًا ثمَّ مد يده إلى الجيب الخارجي الموجود في تابلوه السيارة، غاصت أصابعه بداخله أكثر ليفتح ذلك الجيب السري الموجود داخل الدرج الظاهر، ذلك التجويف السري الذي اِكتشفه داخل تلك السيارة العتيقة. لا يعرف يحيى التاريخ الفعلي لتلك السيارة الحمراء العجيبة والتي تشبه سيارات الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية، ولكنه يجزم أنَّها كانت تقوم بدور بطولي في أحد الأيام؟! فلربما كانت سيارة قائد عسكري مخضرم. سحب تلك الزجاجة المفلطحة والتي تبدو في حجم كف اليد، ونزع غطاءها الفليني؛ لتكشف عن رائحة نفاذة، تجرع جرعة واحدة ثمَّ عاد وخبأها في مكمنها وهو مستمرٌ في الضحك بعدما سحب آخر نفس من سيجارته الطويلة المحلية قائلًا لنفسه:

- بيقولك فُرص عمل اِبن ال..... اِستمر في القيادة. حتَّى وجد أول نقطة لتوزيع مُنتجاته فتوقف قليلًا وعدل هندامه. بحث عن صاحب الكُشك الذي وضع عليه شعار وزارة الداخلية وقام بطلائه بعلم مصر، لتدل على أن صاحبه من خريجي السجون التائبين!!، وجده يجلس مسترخيًا داخله حيث لا تظهر سوى رأسه وكأنه مُختبئ، لمحه بعينيه وهو يطفئ سيجارته هو الآخر في قاع الكشك الخشبي القذر يعرفه جيدًا ويكره جدًا، (عبده ميلص المواطن التائب)، كما كتب هو بنفسه بالأحمر الرديء على جدار الكشك الخارجي، والذي حصل عليه من المسئولين بحجة أنه قد تاب عن تجارة المخدرات. الجميع يعرفون أن ميلص لم يتوقف عن أي شيء لكنه يستمد نفوذه لكونه مرشدًا لدى سامر بك رئيس المباحث، بينما يقوم هو بعمل كل شيء في الخفاء. ميلص أيضًا لا يحمل أية مشاعر جيدة تجاه يحيى، فلقد كان يراه اِبن جامعة فاشل، فلا هو فلح في أن يكون صعلوكًا ولا نجح في أن يكون أفنديًا كما يقول هو في جلساته مع أصدقاءه. كانت العداوة الخفية قد نشئت بينهما مُنذ زمن، واضطر يحيى للتعامل معه، لكونه يستهلك بضاعة شهرية بآلاف الجنيهات ويُصنف من العملاء الكبار في تلك المنطقة الريفية الطيبة، يود يحيى أن يعرف كيف يستهلك كل تلك البضاعة في شهر، هل

يُجبر الناس على شرائها مثلًا؟. يُلاحظ يحيى أنَّه لا طفل ولا فتاة يشترون منه شيئًا!، على الرغم من أن بضاعته من حلوى ومقرمشات الأطفال، لكن أغلب زبائنه من الرجال! سمع كلمات مشرفه الغبي تتردد في أذنه قائلًا:

- ما دام بيدفع، فهو عميل جيد، أنت لك أكل أم حملقة؟! منطق متخلف!!، لكنه للأسف سليم بالنسبة لرجل مبيعات، ندت اِبتسامة خفية من ميلص وهو يرى يحيى يترجل من السيارة محاولًا الحفاظ على توازنه، لكنه بخبرته كشفه وهو يقترب منه محاولًا إخفاء النقود التي حصلها في جيب بنطاله الجينز، اِبتسم له بودٍ مصطنعٍ قائلًا في نفسه:

- أهلًا بالسكير الفاشل. فاشل حتَّى في السُكر، كم أنت بائس يا صديقي؟! أتمنى يومًا أن أقضي على بؤسك وأريحك من تلك الحياة تمامًا، لكنه فتح ذراعيه في مرح وضحك في وجه يحيى قائلًا:

- أهلًا بابن عمي، أجدع رجل في القاهرة. اِبتسم يحيى في خبثٍ قائلًا:

- أهلًا بك يا عبده، ها هي البضاعة التي طلبتها، عشرون من كل صنف. اِبتسم ميلص في فرحة بينما فتح يحيى باب السيارة الصندوق من الخلف، وأخذ ينزل البضاعة بينما هو يتظاهر بمساعدته قائلًا:

- هذا لا يصح، أنا أساعدك يا صديقي، لكن يحيى منعه في قائلًا في توتر:

- لا معلش، أنا أرتب تلك البضاعة حتَّى لا تسقط. وقف ميلص يتابع يحيى وهو ينحني ويحمل البضاعة، انتهز اِنشغاله ووضع يده على رأسه، ليظهر صبي صغير لم يتجاوز السابعة، يخطف كيسًا من المقرمشات من السيارة ويهرب حاول يحيى الهرولة خلفه إلَّا إن صبيًّا ثانية خطف أحد الأكياس المتناثرة من العربة صرخ يحيى وهو يجري خلف الولد بينما كان ميلص يصرخ فيهم متوعدًا بأن يذبحهم إذا جاؤوا إلى هُنا مرةً أُخرى، ثم قال ليحيى بأسفٍ مُصطنع:

- معلش يا أخي، دول أولاد شياطين، فداك، ثمنهم عندي. نظر له يحيى قائلًا في ضجر:

- لا يهم، هل ستحاسبني على البضاعة أم ماذا؟، مد عبده ميلص يده بمبلغ لا يتجاوز الخمسمائة جنيه قائلًا وهو يرسم البؤس على وجهه:

- أنا أعتذر منكم، هذا ما تحصلت عليه هذا الأسبوع ، الحال نائم والله يا أستاذ يحيى. ضجر يحيى قائلًا:

- خمسمائة جنيه، عليك ألفان وخمسمائة من الشهر الماضي وتعطيني خمسمائة فقط!، هذا لا يصلح، اِبتسم ميلص في أدبٍ قائلًا:

- معلش يا أستاذ يحيى سماح هذه المرة، قُل ذلك للأستاذ حمادة. غضب يحيى قائلًا:

- حمادة؟!.... حمادة يحاسبني على المليم، أرجوك أعطني النقود، أو خذ بضاعة على حجم مبيعاتك!!

اِرتسمت علامات الغضب على وجه عبده ميلص، لكنه قال ببرود:

- الشركة تعرف جيدًا من أنا، فأنا أتعامل معهم من أيام ما كنت أنت طالبًا في كلية الآداب جامعة الإسكندرية، اِزدرد يحيى لعابه قائلًا بسرعة:

- كيف عرفت تلك المعلومة، أنا لم أقل لك شيئًا، اِبتسم ميلص في لزوجة فبدت أسنانه الصفراء القذرة وهو يقول ببرود مخيف:

- أنت لا تعرف قدري يا يحيى، أمَّا أنا فأعرف قدرك جيدًا. نظر له يحيى مليًّا.

ثمَّ ركب السيارة وتحرك عدة أمتار، لكنه بات قلقًا من لهجته. أخرج النقود وعدها، الخمسمائة جنيه سليمة، لكن التحصيل ناقص ألف جنيه!، ياه تلك النقود التي وضعها في جيبه الخلفي قد اِختفت، لقد خشيَ أن يتركها في السيارة حتَّى لا تسرق وها هي قد سرقت، إنه ذلك اللص وتلك الخدعة الحقيرة، لقد غافله

وسرق منه النقود أثناء محاولته لمنع الأطفال من الهجوم على المقرمشات، سوف يعود له، قال في غضبٍ:

- ليس يحيى آدم من يسرقه لص قذر مثل عبده ميلص، سأجعلها حربًا على رأسه، عاد مرة أخرى فوجد الكشك مفتوحًا كما هو لكن ميلص لم يكنْ واقفًا خلع يحيى سترته وألقى بها على كرسيه وترجل مرة أخرى من السيارة وهو يلبس قميصًا عاري الأكمام، ظهر من تحته وشمٌ لصقر قوي، بينما كانت بقايا عضلاته البائدة تتحرك. اِقترب من الكشك وهو يبحث في الساحة أمامه حيث تقف السيارات للاستراحة قليلًا، لكنه شهر رمضان لا أحد يقف لتناول أي شيء. وقف يحيى يصرخ أمام الكشك قائلًا:

-عبده، أُخرج يا لص، أُخرج ، فلن أعود إلى القاهرة دون الألف جنيه. سمع ضحكة سخرية، فالتف ناحيتها، ليجد ميلص وقد وقف مستندًا في اِسترخاء إلى جذع شجرة قريبة من الكشك قائلًا:

- ماذا تُريد يأفندي، وما هذه الزيطة؟، عيب... نحنُ في رمضان، أم أن خمرك الرديئة قد أنستك الصيام. مد يحيى يده سريعًا شاهرًا مطواته في اِتجاه ميلص قائلًا:

- أين نقودي يا ميلص؟ قال له ميلص دون أن يخطو خطوة واحدة، وكأنه لا يرى المطواة.

- لقد أعطيتك نقودك أمام الناس، فماذا تريد مني. اِقترب منه يحيى وهو لا يزال يصرخ قائلًا:

- أنا لا أتكلم عن المبلغ الذي أعطيته لي، بل عن النقود التي سرقتها من جيبي. ضحك ميلص ساخرًا، ثمَّ قال:

أنا أسرق؟! حد الله بيني وبين الحرام. اِستشاط يحيى غضبًا، ورفع مطواته ليضرب بها ميلص وهو يقول:

- لن أعود دون النقود وإلَّا أصبت وجهك.

لم يقدر يحيى سرعة ميلص جيدًا حيث كان خبيرًا في قتال الشوارع؛ بسبب أعوامه الكثيرة التي قضاها في سجون مصر، حيث خلع قميصه ولفه بسرعةٍ خاطفة، على يد يحيى المندفع بمطواته، بينما تحرك بخفة فهد، ثلاث خطوات إلى اليمين، ليسقط يحيى على وجهه فوق الأرضية الترابية، محدثًا موجة من الغبار. سقطت المطواة من يده فالتقطها ميلص في خفة ثمَّ اِنحنى من خلف يحيى ووضع يديه القويتين ككلابات معدنية، حول رقبته محاولًا خنقه، وهو يقول بصوته الأجش المُخيف:

- قُلتُ لك من ذي قبل، أنك لا تُقدرني جيدًا، ولذلك سأُعطيك درسًا، يُعلمك من هو ميلص، سيد هذه المنطقة. سعل يحيى بشدة واحمر وجهه. شعر للحظات أنَّه سوف يفارق الحياة فحاول التخلص من يدي ميلص، إلَّا أن ذراعيه المعروقتين، والمرسوم عليهما مجموعة من الوشوم البدائية التي يضعها عتاة السجناء، كانتا تشيران إلَّا أنه لن يتخلص منهما بسهولة. أكمل ميلص كلماته المُتفاخرة وهو يضغط بقوة أكبر على رقبة يحيى:

- رجال بشوارب، لايستطيعون الوقوف أمامي، فما بالك بحتة أفندي صايع وفاشل مثلك، يعمل مندوب توزيع في شركة حقيرة وليس لها اِسم، يقود صندوق قمامة مُتهالك.

كانت لكلمات ميلص اللاذعة مفعول السحر على يحيى، فقد أثارت جنونه، فسحب ذراع ميلص بآخر قوةٍ لديه، ودفعه للأمام ليسقُط أرضًا فضربه عدة لكمات سريعة في وجهه وهو يصرخ بعنفٍ:

- سوف نرى يا أقذر خلق الله، من منا الفاشل، سأقتلك لو لم تعطني النقود فورًا. دفعه ميلص ونهض بسرعة عندما اِكتشف أنَّه قد زاد من جرعة الإهانة ليحيى فحوله إلى وحش سوف يفتك به، فقفز للخلف قليلًا ثمَّ أطلق صافرة طويلة، ثمَّ

عاد ليشتبك مع يحيى، حتَّى اِنهالت على رأس الأخير عدة عصيّ من مجموعة من الرجال يرتدون الملابس البلدية، اِشتبك معهم يحيى قليلًا لكنه اِكتشف أن الخسائر سوف تزداد فجرى إلى سيارته وأغلق الباب وانطلق بها سريعًا، بينما ميلص ورجاله يضحكون في سخرية وهو يقول له بصوت عالٍ:

- عد مرة أخرى إلى هنا أيها الفاشل، ولسوف أدفنك هنا تحت هذه الشجرة.

قاد يحيى سيارته بأقدامٍ مُرتعشة، لعدة كيلومترات، ضمنت اِبتعاده عن ميلص ورجاله، كان يبكي قهرًا لضياع النقود، هذا العجز يجب أن يُسدده غدًا من جيبه الخاص. وإلَّا لن يسلم من حمادة الطلياني صاحب المصنع، وسيضطر لكتابة المزيد من الشيكات دون رصيد، حتَّى يتمكن من سد العجز. شعر بتلك الدماء التي تسيل من مؤخرة رأسه، وأن رؤيته للطريق بدت مُشوشة، لكنه اِستمر في القيادة ببطء حتَّى وجد جمعًا من الناس يجلسون على موائد كثيرة صفت عليها أصناف الطعام، وفوقهم خُطت لافتة من قماش، كُتب عليها: "مائدة الرحمن، لضيوف الرحمن" نظر حوله فانتبه أن أذان المغرب قد اِقترب، توقف بسيارته على بعد عدة أمتار من المائدة التي صُفت في باحة بجوار الطريق أمام منزل كبير أصفر اللون له مندرة بارزة على الشارع، يتحرك فيها رجال وسيدات كخلية النحل وهم يحملون أطباق الطعام لخدمة المائدة. لم يتمكن يحيى من القيادة مرة أخرى فقرر الراحة مُستأنسًا بالناس، وبصوت القرآن الصادح من مأذنة المسجد القريبة. أخذ الخدر يتسلل إلى جسده فسقطت رأسه على عجلة القيادة وغط تمامًا في النوم لعله يتعافى بعد قليل، فيكمل القيادة إلى القاهرة. أوقظه صوت كلب مربوط في سياج المنزل، كلب ضخم عجوز من فصيلة الجيرمان شيبرد، ينظر إليه بغضبٍ وينبح وهو يقف على أقدامه الخلفية، بينما رجل طيب يزجره قائلًا، اِهدأ يا (كليفر)، لقد أخفت الضيف. طرق الرجل زجاج السيارة بلطف وهو يبتسم له اِبتسامة

ودودة. تأمله يحيى سريعًا، رجل ستيني، أحمر الوجه، تبدو آثار النعمة عليه، يرتدي جلبابًا نظيفًا وفوقه عباءة فاخرة من الكشمير، يزينها شال أخضر عليه نخلة معقوفة، وفي يده خاتم فضي كبير به نقش بخط عربي جميل لم يتمكن يحيى من قراءته، في وجهه مسحة محببة من إيمان، أنس لها يحيى، وذكرته بشكل العُمدة اِبن الأصول في المُسلسلات العربية القديمة. فتح يحيى زجاج السيارة قليلًا والخوف لم يزل يتملكه، فقال له الرجل باسمًا:

- كل سنة وأنت طيب تعالى وافطر معنا، اِقترب الرجل قليلًا من شباك السيارة إلَّا أنَّه تراجع مرة واحدة وظهر الامتعاض على وجهه قليلًا، فلقد لاحظ شيئًا جعله يتغير، لكنه هز رأسه واستغفر الله عندما وجد الدماء تسيل من رأسه، والوهن وقد حل بجسد يحيى المنهك، يبدو أنَّه قد خرج لتوه من معركة مع بعض كلاب الطريق. عاد الرجل وابتسم ابتسامة باهتة مجددًا وهو يقول ليحيى شبه الغائب عن الوعي.

- افتح يابني الباب من الداخل، اِجعلني أساعدك. مد يحيى يده الواهنة التي تورمت من فرط الضرب، وفتح الباب من الداخل بيدٍ مُرتعشة، لكنه اِنكمش عندما بدأ الكلب في النباح مرة أخرى وبصورة أعنف مِمَّا سبق إلَّا أن الرجل الطيب نادى على أحد الرجل قائلًا:

- يا علي يا علي. جاء الشاب مهرولًا وهو يقول:

- تعالى اِسند معي هذا الشاب إلى المندرة ثمَّ أُدخل كليفر إلى حظيرته، وأطعمه يبدو أنَّه جائع. كان يحيى ينظر إلى الكلب المخيف في اِنزعاج بينما قال الرجل في طيبة:

- كليفر ده كان أحسن كلب بوليسي في مصر، كان يخص أخي رحمه الله، وهو الآن صار عجوزًا ومريضًا، ما هذا.... الرجل سقط فاقد الوعي!!، اِحمله يا عليّ إلى المندرة بسرعة.

(2)

مدرسة أم المؤمنين الابتدائية

الوقت لم يزل مُبكرًا للاستئذان، فاليوم موعد جرعة الكيماوي لابنها "كرم الله"، لم تسمح لها الأستاذة اِفتخار ناظرة المدرسة بإجازة في هذا اليوم، فاليوم يعد جحيمًا بالنسبة لها، وعلى الرغم بأنها تعرف ذلك، إلَّا أن أحدًا لم يعد يرحم أحدًا. فهي تحتاج لتهيئة الولد نفسيًّا، وإعداد بعض الأطعمة الخفيفة له، كانت تمسح أرضية الحجرة المُغلقة، كشفت ساقيها وجثت على ركبتيها لتسيطر على كمية المياه التي اِلقتها لها الريسة نعمة، رئيسة العاملات، تلك السيدة السمينة البغيضة التي تكرهها لحد الهوس وزاد كرهها لها عندما سمعت زوجها دسوقي حارس البوابة، وهو يتغزل في جمالها وأخلاقها، فجن جنونها، تعلم أنها شديدة الجمال، لكن جمالها كان نقمة عليها، لا نعمة، فلقد اِنتبهت له منذ صغرها وأهملت دراستها، كانت مطمعًا لكل فتيان السيدة زينب والأحياء المجاورة، الكل يقترب ليطلب ودها، ظنت أنها سوف تملك الدنيا، وستتزوج أميرًا، لكنها تزوجت في النهاية رجلًا ضعيفًا، هرب مع خادمة إفريقية تاركًا لها مسئولية أمه المسنة وذلك الولد المريض، حالها الفقير يدل على أشياء كثيرة، أهمها شرفها. وقوتها الداخلية، فلو اِستغلت جسدها في الرقص، كما قالت لها نعيمة البيضة، الراقصة الشعبية، لأصبحت غنية، ولربما صارت نجمة سينما، فهي جميلة تمتلك جسدًا

أبيضًا منحوتًا كأنه تمثالٌ من مرمر، لقد أصاب زوجها السابق بالعجز والفشل فلم يتمكن من السيطرة عليه، كان يرى نظرات الرجال الشبقة، فينزوي أكثر، لم يقدر أن تلك النعمة يجب أن تصان جيدًا، فلجأ إلى أسوأ سلوك دفاعي يلجأ إليه العجزة والمُهمشين، المخدرات، حل المشكلة، والمشكلة التي ليس لها حل صار يشرب حتَّى يصمد أمامها، وعندما فشل، تجاهلها ورافق تلك الخادمة الإفريقية السوداء التي تعمل عند اللواء في العمارة الراقية التي تجاورهم، ثمَّ هربا بعدما سرقا محتويات الشقة. سمعت أنفاسًا متلاحقة خلفها، لقد تاهت، سرحت في حالها وفي ملكوت الدُنيا، وتركت ساقيها المُكتنزتين تتحركان بحرية فوق البلاط الأبيض الناعم، وذراعها يتحرك بانسيابية، لقد اِشتمت رائحة رجل، تعرفهم عندما يشتعل الأدرينالين بداخلهم، رائحة الرغبة التي تميزها الجميلات في أجساد الرجال المحترقة، تلفتت خلفها لتجد، الأستاذ عفيفي وكيل المدرسة، يتدلى لسانه كالكلب المسعور وهو يتابع جسدها الفائر في رغبة. أغمضت عينيها في تقزز وهي تلم ساقيها ثمَّ نهضت بسرعة، ووقفت أمامه فارتج نهديها الكبيران أمام وجهه، حيث كان يقصرها بكثير، فجن جنونه، اِنتابته رغبة عارمة في اِمتطاء ذلك الفرس العربي المُكتنز، لكنه خشي الفضيحة، فقد يجلب العار لأولاده طلبة الجامعة، ناهيك عمَّا ستفعله به زوجته الموظفة بوزارة الداخلية، أو الشاويش ماجدة كما يُحب أن يُطلق عليها.

- هل تريد شيئًا يا أستاذ عفيفي، اِنتبه على صوت صباح وهي تسأله وكأنها تنهره، بالطبع لاحظت كم هو يحترق، قال لنفسه:

- أه من بنت الكلب هذه، كم هي جميلة ستكون سببًا رئيسيًّا في ضياع مُستقبلك يا عفيفي، كان عرقه يتفصد من جسده وكرشه المتهدل يرتج وكأنه قد وصل حالًا إلى ذروته، لاحظ نظرات الاشمئزاز التي سددتها له فنهرها بطريقة مُصطنعة قائلًا.

- التراب على المكتب، والأرض غير نظيفة كم مرة قلت لك هذا، ردت بطريقة آلية:

- ندا هي التي نظفت مكتبك ولست أنا.

نهرها مرة أخرى قائلًا:

- مائة مرة قلت لك، أنت من ينظف المكتب وليس ندا، اِبتسمت في خبثٍ وهي تقول:

- وماله يا أستاذ عفيفي، كنت مشغولة وأنا وهي واحد لم يقتنع بإجابتها. ولكنه قال لها:

- المهم الآن اِذهبي إلى المكتب ونظفيه حالًا، عندى وفد من الإدارة التعليمية سيأتي بعد ساعة، كادت تضحك وهي تقول في سرها.

- في نهار رمضان يا نجس يا كلب، أنت تحتاج لأن تذهب وتستحم، قبل أن يُلاحظ الوفد تلك البقعة الظاهرة جدًا على بنطالك الصيفي الخفيف، تعلم أن تلك المسرحية التي يقوم بها كل يوم حتَّى يتمتع برؤية أكبر قدر ممكن من جسدها في مكتبه، حاولت أن تشكوه إلى الأستاذة اِفتخار إلَّا إنها دافعت عنه، جراء كمية النقود التي تنهال عليها منه في نظير تسهيل الدروس الخصوصية بعد اليوم الدراسي، كما فعلت الريسة نعمة التي تستفيد من العمل معه في المساء في مركزه الخاص، وفي تسهيل الكثير من الأشياء، لاحظت أنه يحاول الاقتراب والاحتكاك أكثر مِمَّا ينبغي.

نهرته قائلة:

- أرجوك أُخرج من الحجرة حتَّى أنتهي من تنظيفها، فما تفعله لا يصح، اِقترب منها قائلًا بود:

- وماذا أفعل يا صباح، لقد عرضت عليك ما يصح وأنت التي ترفضين، اِستمرت

في تنظيف مكتبه وهي تقول:

- عرفي، الزواج العرفي لا يناسبني يا أستاذ عفيفي، فلست أنا من يتزوج في السر، إذا أردت ذلك فليكن في العلن ضحك في غضب وهو يمسك يدها بعصبية:

- تعجزينني صح؟ تعلمين أنني لا يمكن عمل ذلك في العلن ومع ذلك من أنت.

اِبتسمت في ألم وهي تضع يدها الجميلة أمام وجهه قائلة:

- لا داعي للتجريح، فأنا سأُكمل لك ما تُريد قوله، من أنتِ حتَّى ترفضين وكيل مدرسة، مليونير يلعب بالأموال، وأنت مجرد عاملة حقيرة في مدرسة، مُطلقة تعيش في منزل مُتهالك بالسيدة زينب، وترعي سيدة مجنونة وطفلًا مسكينًا مريضًا بالسرطان، كان وجهها قد اِحمر ودموعها ترفض أن تسقط في إباء. صمت أمامها وكأنها قطعت عليه الطريق فيما كان ينوي قوله. فأكملت هي وابتسامة لا مُبالية على وجهها:

- أليس هذا ما أردت قوله، لقد سمعته منك ومن غيرك، فلم أعد أهتم، لكن عندي رد واحد فقط.

- أنا حرة ولي مطلق الحرية في قراري، فلست أنا التي تفعل ذلك مهما كنت تراني فقيرة وضعيفة، فأنا أعرف قدر نفسي جيدًا. زادت كلماتها من رغبة عفيفي وغضبه، وبدأ كحيوان جائع تمَّ حبسه في قفص. لقد أعمته الرغبة، صار لا يرى جيدًا، لقد سمى نفسه رهين المحبسين كأبي العلاء المعري، فهو حبيس رغبته وحبيس سمعة أسرته. غادرت الغرفة في غضب بينما وضع رأسه بين يديه وأطرق منكبًا على المكتب في غضب قائلًا لنفسه:

-أنت جبان يا عفيفي، طوال عمرك تحسب الحسابات لم تنفجر يومًا أو تتمرد، كنت تعمل مثل الساعة السويسرية مضبوطة دائمًا لا تقدم ولا تؤخر، أنت بالفعل لم تكنْ تقدم ولا تؤخر، فكن شجاعًا واذهب وتزوجها أمام أهلها، وإلَّا فاصمت إلى الأبد.

(3)

شجرة مريم

الساعة تقترب من الرابعة عصرًا، لا تُحب صباح ذلك الموعد أبدًا، فالمواصلات تتحول إلى سجون ملونة تحبس كل البشر بداخلها، نوع جديد من أنواع العبودية في القرن الجديد. أمسكت بيد اِبنها الهزيل وهو يسير بخطوات واهنة خارجًا من بوابة المستشفى الكبير، وفي يده الهزيلة تلك القطعة البلاستيكية التي صارت صديقة له لمدة طويلة، الكانيولا الحمراء اللعينة المغروسة في يده دومًا، صارت عنوانًا للصغير كريم الذي قرر التمرد كعادته وأفلت يديها نظرت له في اِستفهام، فبادلها نظرة من عينيه الجاحظتين، التي لم تفقدان الإصرار بعد، ثمَّ اِبتسم لها في وهن. بدأ مُنهكًا تمامًا بعد تلك الجرعة اللعينة، وتفوح من جسده رائحة غريبة تُدمي القلب. دمعت عيناها وهي تقول له:

- أعلم أنك مُتعب، لكن ما بيدي حيلة يا بُني، أفلت يدها ببطء وانطلق بخطوات مُتثاقلة إلى الحديقة، حيث شجرة الموز القصيرة التي توقفت عن الإثمار، كانت صباح تبكي وهي تجلس على الأريكة الخشبية الموجودة بحديقة مستشفى الدمرداش، وتشاهد بدهشة اِبنها كرم وهو يقتطع بعض الألياف الخضراء من الشجرة، ويُضفرها ببراعة، كان منهمكًا تمامًا في هذا العمل، بينما هي تتساءل في نفسها، ما الذي يدفع ذلك الصبي الصغير ذو السنوات السبع، لعمل ذلك السوار

الأخضر كلما خرج من جلسة العلاج، ثمَّ يصر أن يرتديه باستمرار، ثمَّ يعود ويكرر ذلك العمل كلما عاد إلى هنا، سألته صباح عدة مرات:

- لماذا تفعل ذلك ياحبيبي؟، أنت مريض وتحتاج إلى الراحة، وبالرغم من هذا تجلس أكثر من ساعة في كل مرة لتضفر هذا السوار الغريب من شجرة الموز، لماذا يا كرم؟، لماذا يا بني تفعل ذلك؟، كانت دموعها تنساب في حزن وهي تحتضن كرم الذي جلس بجوارها صامتًا على الأريكة الخشبية الخضراء وهو ينظر بعينيه الحمراوين من فرط الإجهاد، ثمَّ ينظر إلى السماء مبتسمًا، فتجذبه من يديه وتسير عبر الشوارع المُزدحمة، مُحاولة تفادي تلك السجون التي تسير على عجلات والتي تكتظ عن آخرها بالبشر المُكدسين بداخلها في محاولة أخيرة للحاق بالإفطار مع الأسرة حيث تقترب الساعة من الخامسة عصرًا. خرجت من محطة مترو أنفاق السيدة زينب، بينما كرم يحمل في يده كيسًا، من عصير القصب، يشفط منه عبر ماصة بلاستيكية خضراء، وفي معصمه السوار الأخضر المجدول، وهو يضع كابًا على وجهه تحميه من النظرات البائسة ومصمصة الشفاه، حيث سقط كل شعره حتَّى شعر حاجبيه. اِقتربت من التوكيل الأجنبي الفخم الذي تعمل في توزيع منتجاته مقابل نسبة خصم، دلفت إلى الباحة المكيفة الأنيقة، والتي تجلس بها العديد من الفتيات والسيدات الجميلات وهم يحسبون نقاط البيع وما يريدونه من منتجات التجميل والعناية بالبشرة، اِقتربت من موظفة المبيعات التي حيتها ببرود، لكن سرعان ما احتد النقاش بينهما على نسبة الخصم، فصاحت صباح فيها:

- أنا لا أربح شيئًا بعد تلك النسبة الضئيلة اِرحموني يا ناس، فأنا سيدة مكافحة وابني كما ترون. صمت الجميع تعاطفًا مع حالة الولد الذي جلس يتابع التلفاز الكبير ذو الشاشة الملونة وهو لا يزل يشفط من عصير القصب دون أن يلقي لهم بالًا، بينما اِحترم باقي الرجال جمالها الباهر وهي تبكي، مرتدية عباءة سوداء

جميلة على ظهرها فراشة ملونة بينما ذراعها الأملس يضوي في الضؤ الخافت، فرصة جعلت بعض الرجال يتأملون الجمال الحزين، على الرغم أننا لازلنا في نهار رمضان!!، لكن صوتًا رجاليًّا رخيمًا نادى على البائعة، في السماعة الداخلية، جعلها تنتفض في اِحترام، وتصعد عبر السلم المعدني الحلزوني إلى الطابق الثاني، حيث المكاتب الزجاجية الأنيقة، تابعت صباح بعينيها ذلك الرجل الأنيق وهو يتحدث إلى البائعة بحدة، فهمت صباح إنه يوبخها فشعرت بالرضا وهي ترفع بصرها إلى مكتبه وتراقبه يتحدث إلى البائعة التي كانت تهز رأسها باستمرار، شاب أربعيني رشيق الجسد بشرته مائلة إلى السمرة ويرتدي ملابس خليجية!! هل هذا هو الشيخ بلال، صاحب التوكيل؟ لقد سمعت عنه كثيرًا لمحت البائعة وهي تنزل مسرعة بينما وقف هو واقترب من باب مكتبه وابتسم إلى صباح مومئًا برأسه، فبادلته صباح الابتسام. خرجت سعيدة بعدما حصلت على كل ما أرادت من بضاعة وخصم! والسعادة الأكبر أنه نصرها على تلك البائعة المغرورة التي تتعامل وكأنها نجمة سينما!!، سارت في الشارع تجر كرم صامتة، لم تكن ترغب في الحديث بعد ذلك اليوم الشاق الذي ينتهك أدميتها. لمحت الاستعدادات للإفطار في باحة مسجد السيدة زينب، رجال الجوقة يعملون على قدمٍ وساق من أجل تجهيز المائدة الكبيرة التي تسع كل عابري السبيل، والمُريدين، لمحت المأذنة الكبيرة وضؤها الأخضر المُحبب يشع نورًا على المنطقة بأسرها، تأملتها بنظرة حجبتها الدموع، وهي تستمع إلى الابتهالات القادمة من مكبر الصوت الضخم المُثبت بها. غمغمت وهي تنظر إلى كرم الذي يسير بجوارها بخطوات مُتثاقلة أحيانًا وهو يتابع كل من حوله بنزق طفولي شابه مسحة المرض الواضحة في وجهه فغمغمت وهي تنظر إلى السماء:

- يا الله، لقد أثقلتني كل تلك الهموم، فاشفه لي، وابقي عليه من أجلي يا رحيم. اِقتربت من المنزل الرمادي القصير ذو الثلاثة أدوار، الذي تسكن فيه، لمحت

جارتهم الطيبة الأستاذة نادية عازفة البيانو القديمة، وهي تتطلع إلى الشارع في قلقٍ، يبدو أنها قلقةٌ كعادتها، مسكينة تلك السيدة، منكوبة هي في اِبنها يحيى الذي أضاع منها صحتها، خوفًا وكمدًا عليه؛ بسبب اِنحرافه، هو لا يُشبه شقيقه ماجد مهندس البترول ولا شقيقته الصغيرة، الدكتورة بسمة، أجمل زهرة في الحي، لا أدري كيف نبت ذلك الفرع الشيطاني من رحم تلك الشجرة الطيبة، سُبحانك يارب لك في خلقك شئون. نظرت إلى كرم الذي كان يقذف الكرة إلى الأولاد الذين يلعبون في الباحة دون أن يشاركهم اللعب وعيناه تتابعان الكرة في سعادة وكأنها حياته، فأكملت دعاءها قائلة:

- يارب اِبقي عليه واجعله صالحًا نافعًا؟ واحميه من الزلل. اِقتحمها صوت نحاسي بغيض من البيت القصير القريب من بيتها في شارع جانبي ضيق، يبدو كمقدمة طريق ترابي طويل، بيت عمها الذي يبدو نشازًا في ذلك الحي والذي يقبع وحده في حارة جانبية، لا أحد يفكر في الاقتراب منه خاصة في الليل حتَّى عتاة المجرمين؛ لأنه ببساطة بيت العفريتة، كما يقولون:

- طبعًا تتفسحين فرحة بشبابك، أنت والمزغود اِبنك ولا تبحثين عن قريبتك المسكينة، أين طعام الإفطار يا صباح!! زفرت صباح في ضجر وهي تنظر ناحية صاحبة الصوت، سيدة بيضاء لها شعر رمادي مهووش، وعينين واسعتين خضراوين، كانتا جميلتان في الزمن البائد. ثمَّ مدت يدها بكيس به مجموعة من الساندوتشات وأعطتها لها. صرخ كرم سريعًا مع الأطفال الذين يلعبون الكرة عندما رؤوها تطل بذلك الشكل المخيف من الشباك هاتفين:

- العفريتة العفريتة، ثمَّ رحلوا وهي تصرخ فيهم وفي كرم:

- ماشي يا أولاد الكلاب، لو أمسكت أحدًا منكم لسحقت عظامه، ثمَّ نظرت إلى الساندويتشات وهي تقول لصباح:

- ماهذا فول وطعمية؟، نظرت لها صباح في ألم قائلة:

- نعمة ورضا. نظرت روحية بنظر ثاقبة إليها مرة أخرى قائلة:

- هذه الساندويتشات لن تكفي نظرت لها صباح قائلة في حيرة:

- أربعة ساندويتشات كافية جدًا، أنت لا تأكلين كثيرًا يا روحية. ردت روحية بصوت عميق أرعب صباح فعادت خطوتين إلى الوراء:

- وأين ساندويتشات مريم؟! اِنتفضت صباح في توترٍ وهي تقول لها:

- أُقبل يدك، كفى هذا الكلام الذي جلب لك ولي سمعة سيئة، وأضاع منك كل شيء، مريم شجرة، والشجرة لا تأكل!!، صرخت في وجهها من الشباك بينما يتابعها الناس من بعد وهم في خوف وهي تقول:

- لا،أنت لا تفهمين شيئًا، مريم ليست شجرة. مريم صديقتي تأكل معي وتلعب أيضًا معي وقريبًا سوف تأخذني معها للعب هناك، عند المروج الخضراء الفسيحة. اِمشي يا صباح أنا أكرهك. أدارت صباح ظهرها الذي كاد أن ينقسم من الحمول فهي لا تعرف، من أي جهة سوف تتلقى الضربة القادمة، لكنها نادت عليها مرة أخرى بنبرة أكثر رزانة فجعلت صباح تتلفت إليها فقالت:

- أنا لا أكرهك يا صباح، لكنني لم أتعلم كيف أحب يابنتي فسامحيني. اِبتسمت لها صباح ودموعها تنهمر على وجهها، ثمَّ وضعت يدها فوق يد روحية واستدارت مرة أخرى. سارت صباح إلى منزلها الذي يبعد عدة خطوات من منزل روحية، أو بيت العفريتة كما يطلق عليها الصبية. كانت تفكر في روحية وترثي لحالها:

- كم هي صعبة تلك الحياة، لا تصدق أن تلك السيدة المجنونة المخيفة، هي روحية اِبنة عمها، الفتاة الجامعية الجميلة التي كانت تمتلئ شبابًا وحيوية، وتعمل موظفة في الشهر العقاري. تزوجت من شاب جميل وغني، وعاشت لفترة قصيرة في

حي المعادي العريق، ثمَّ اِختفى!! تكلم كثيراً عن طقوسها الغريبة وعاداتها التي لا تُحتمل، وأنها سيدة مخيفة جدًا، ثمَّ اِختفى هو وابنها وسافرا خارج البلاد وبحثت هي عنهم عدة سنوات دون جدوى، فانقطعت عن العمل وانزوت، ثمَّ عادت إلى ذلك المنزل المخيف بعدما تمَّ فصلها، وشيئًا فشيء تحولت روحية من فتاة جذابة وناجحة إلى عجوز شمطاء سليطة اللسان، تعيش في ذلك المنزل المهجور ذو الباحة الترابية الكبيرة، تتوسطه شجرة ضخمة جدًا، أطلقت عليها روحية اِسم مريم والتي اِمتدت فروعها إلى جميع أنحاء المنزل بشكل مخيف! حتَّى فصلت مقدمته المكونة من حجرتين على الشارع، عن مؤخرته حيث منعتهم من الوصول إلى حجرات المنزل الأُخرى!!، فاكتفت روحية بالإقامة في الحجرتين الأماميتين تاركة خلفها باقي المنزل مهجورًا!، كانت لا تخرج إلى الشارع كثيراً، وتجلس طوال اليوم في الشباك القصير، تشاكس الغادي والرائح، وتتكسب رزقها أحيانًا من هنا وهنا، وتعتمد على ما تقدمه لها صباح من مأكل وكساء، شخصًا واحدًا لم يزل يهتم بأمرها ويزورها من آن إلى أخر وهو الأستاذ عيسى ياسين المحامي، كان زميلًا لها في كلية الحقوق، ثمَّ في الشهر العقاري، ويقال أن هناك حبًا قديمًا جمع بينهما حيث تقدم لخطبتها قديمًا لكن أسرتها رفضته، لضيق ذات يده، لكن عيسى لم يتخل عنها أبدًا، فهو يودها ويخلص لها حتَّى الآن. كانت صباح حزينة لحالها، فهي اِبنة عمها، الباقية بعدما سافر من سافر، ومات من مات، لم يتبق سواها في القاهرة كلها. صعدت سلم المنزل المتهالك تاركة الولد يلعب قليلًا في الحارة مع أقرانه، لعل تلك الكُرة تنسيه تلك الجلسات المؤلمة التي تأكل من روحه اِقتربت من باب منزلها فبحثت عن المفتاح داخل حقيبتها، اِنتبهت لصرير الباب المُقابل وتلك السيدة البيضاء المسنة تنظر لها والهم باديًا على وجهها. اِقتربت صباح منها واحتضنتها قائلة:

- كل سنة وأنت طيبة يا أستاذة نادية، لم ترد نادية، كان الحزن والمرض باديان على وجهها. فساعدتها صباح على دخول منزلها وأجلستها على الكرسي القريب. سمعتها تقول بصوت خافت ملأه الحزن:

- لا أحد معي، كلهم رحلوا. قالت لها صباح مواسية:

- لا تقلقي إنهم في أعمالهم، وسوف يأتون لك ريثما ينتهون، نظرت لها في وهن وأذان المغرب يوشك على الانطلاق.

- لست قلقة على بسمة فهي في نوبتجية بالمستشفى، وماجد في البحر الأحمر، لكن يحيى قد اِختفى، هذا هو اليوم الثاني ولم يظهر حتَّى الآن. لقد أرسلت شقيقته للسؤال عنه في الشركة، وحتَّى الآن لم تأت هي الأخرى، أنا قلقةٌ جدًا عليهم، بدت الحيرة على وجه صباح وهي تُغمغم في توتر:

- تُرى أين ذهب ذلك المجنون؟!

(4)

السبتية

تُرى أين ذهب ذلك المجنون الذي حول حياتي إلى جحيم مُقيم؟

كانت بسمة تتساءل في حيرة، وهي تجلس على كرسي ممزق الأجناب في إحدى أتوبيسات النقل العام القصيرة، "الميني باص"، الذي كان يزحف ببطء في اِتجاه منزلهم الكائن بالسيدة زينب. الزحام والضجيج لم يمنعاها من الشرود وهي تتأمل الشارع وقد تحول إلى طوابير كاملة من النازحين في اِتجاه منازلهم للحاق بموعد الإفطار وسط لمة الأُسرة والأحباب. أغمضت عينيها في ألم وهي تتذكر تلك الأُسرة التي كانت مُترابطة يومًا ما!، والتي لم يبق منها شيء الآن، بعدما رحل شقيقها الأكبر ماجد إلى البحر الأحمر، واستقرت حياته هناك، وبقيت هي مع أُم عجوز مريضة، وحُطام رجل اِسمه يحيى، ذلك الجرح المُستمر الذي لا يندمل، ساءت العلاقة بينهما كثيرًا في الماضي بعدما اِحتال على خطيبها بحجة الدخول في مشروع تجاري ثمَّ أخذ النقود ولم يردها. وترتب على ذلك فسخ الخطبة. طردته أمه بعدها من المنزل، ولكنها عادت واستقبلته بعدما وجدوه ملقى كالكلب في أحد أقسام الشُرطة. مرت فترة قصيرة، حاول أن يبدو فيها صالحًا، لكنه سرعان ما عاد إلى سيرته القديمة. تعلم أن سمير يحبها حتَّى الآن لكن أمه وشقيقته أصرتا على فسخ خطبته منها حتَّى لا يوصم أطفاله بخالهم الفاشل. مسحت دموعها التي اِنسابت

سريعًا، وهي تشاهد ذلك الرجل الذي يجلس بجوار زوجته ومعهم طفليهما، وهم يفتحون أكياس الطعام في سعادة، لو كان كل شيء على ما يرام، ربما كانت تجلس مثلهم الآن هي وسمير ومعهما طفل. لقد أوشكت شمسها على الغروب، وهاهي تجلس وحيدة؟!، كانت مشاعر الغضب أكبر من أن تسامحه، فهي ليست قديسة، تمنت في نفسها موته لعله يريحهم من تلك العذابات المُستمرة، لقد ذهبت إلى محل عمله في مصنع الحلوى بالسبتية إرضاءً لأمه المسكينة التي لا ذنب لها، لكن لا أحد يعرف عنه شيئًا، لم ترتح إلى ذلك المكان، يحمل هواءً فاسدًا، لا غرابة في أنه يعمل هناك، حتَّى الفتيات هناك يُشبهنه في سوقيته، وإهانته لنفسه، وكأنها دخلت إلى أحد المجتمعات الهمجية ما قبل التاريخ. لم يكنْ مصنعًا بالمعنى المفهوم. كان أقرب إلى كهف مهجور، الأراضي والحوائط سوداء قذرة، والمكان سيء التهوية والرائحة، لا تدري كيف يعمل هؤلاء، في تقديم الحلوى للأطفال، تذكرت تلك العبارة الرديئة المكتوبة فوق السيارات "فرفشة، كعكة واحدة بالسُكر، تُغير حياتك"، لقد تذوقتها مرة واحدة، طعمها لا يُطاق، فكيف يبعيون قطعة الحجر تلك، لمجرد أن فوقها سكر؟! لا تنسى نظرة صاحب المصنع الشبقة وهو يستقبلها في مكتبه محاولًا التلطف. ظهرت أسنانه الصفراء القذرة وهو يخبرها بأن اِسمه حمادة الطلياني، صديق يحيى، وأنه قلق عليه، لاحظت تلك النظرات الحذرة، من فتاة ممتلئة الجسد، نافرة الصدر وهي تضحك لها، بينما كانت الأخرى الأكثر طولًا تسترق النظرات، وهي تدخن سيجارتها، دون مراعاة لحرمة الشهر الكريم، والدُخان الأبيض يطير فوق شعرها الأصفر، الذي بدأ مريضًا مُحترقًا من فرط اِستخدام صبغة الأُكسجين، لقد فهمت الآن لماذا توقف يحيى عن الصوم منذ عدة سنوات، إنه مثلهم!!، كن يسئلن عن يحيى بلهفة وكأنهن زوجاته، لا زميلاته!، لا يُمكن ليحيى المتفوق صاحب المستقبل المشرق أن تنتهي به الحياة في ذلك المكان الرطب القذر، الصدمات توالت بعدما ضاعت أحلامه في الحصول على

أحد مقاعد التدريس في كلية الآداب، والتي تمَّ حسمها بالطبع لصالح اِبنة أحد الأساتذة، على حسابه، لم يسمع أحد تظلمه بأحقيته، لحصوله على التقدير الأعلى، ثمَّ فاجعة خطيبته عاليا، التي تخلت عنه بمجرد معرفتها بذلك. هجر كتابة القصة التي كان بارعًا فيها، ويمني نفسه بأن يكون أحد نجومها، وبات نائمًا عدة سنوات دون عمل، حتَّى تعرف على ذلك الأصلع القذر حمادة الطلياني، صاحب مصنع فرفشة للحلويات والمقرمشات، وعرف طريقه إلى بار الطاووس. كُل شيء صار إلى الأسوأ، اِنتبهت على صوت طقطقات الكمساري وهو ينادي على محطة السيدة زينب، فترجلت من باب الأتوبيس، وسارت مستمرة في شرودها، لم تعد تطيق الكذب على أمها حتَّى تمحو آثار جرائمه، إنها لم تزل صغيرة على تحمل كل ذلك الألم وحدها، فماذا ستقول لأمها الآن، إنَّه لم يظهر هو وسيارته الصندوق الحقيرة منذ يومين، هل أصابه مكروه؟، إنها لم تعد تكترث له كثيراً، ولكن ما يشغلها هو تلك المسكينة التي تعاني من الفشل الكُلوي ولا بد أن المرض، سوف يشتد عليها، سارت عبر الشارع الترابي المؤدي إلى المنزل. أدهشها فراغ الشارع المُزدحم دومًا، لم تنتبه أن موعد الإفطار قد حان، وأن الجميع قد صاروا رهن منازلهم، شعرت بالوهن يدب في جسدها من مشقة اليوم، اِقتربت من باب المنزل لكنها تراجعت خطوة عندما سمعت ضحكات فتاة صغيرة، تلفتت تجاه الصوت، لتجدها تلعب الحجلة في الحارة الترابية المهجورة أمام منزل روحية، تساءلت، اِبنة من يا تُرى؟! كانت ضئيلة الجسد بيضاء البشرة بدا شعرها كستنائيًّا، تمكنت بسمة رؤيته على الرغم من خيوط الظلام التي بدأت تزحف على الحارة، تقفز برشاقة فوق مربعات الحجلة، وتضحك بصوتٍ مرتفع، تذكرت بسمة أنها كانت تسمع النفس الصوت، في بعض الليالي، لكنها شهقت فزعة عندما نظرت إلى يديها، لم يكن لها كفوف بل كانت أغصانٌ من الشجر. صرخت فزعة عندما نظرت لها الفتاة، بعيونٍ حمراء كعيون ذئب، وأسنان بارزة للأمام، ثمَّ دخلت إلى بيت روحية سريعًا. حاولت

بسمة الركض إلَّا أن يدًا أمسكت بكتفها كالكلابات القوية وهي تنظر لها بعيونها الخضراء المخيفة قائلة:

- مريم تريدك يا بسمة تعالي اِلعبي معها، مريم تُنادي عليكِ، كانت بسمة تسمعها بصعوبة بسبب ذلك الطنين المخيف الذي اِجتاح أذنيها، لا تنسى تلك العضة الرهيبة التي عضتها روحية لها وهي صبية في العاشرة ثمَّ اِختفت، كاد والدها أن يقتلها في ذلك اليوم، لولا رجاء صباح، اِبنة عمها المسكينة، فسامحها الرجل الطيب، واضطرت هي لأخذ كمية كبيرة من الحقن حتَّى لا تصاب بأذى، كانت تسمع صوتها النحاسي العميق وكأنه فحيح أفعى مخيفة قادمة من أعماق بئرٍ مهجور، ما الذي وضعها في طريقها اليوم، هي تختفي بالأشهر لا أحد يعلم عنها شيئًا، ولايجرؤ أحد على الاقتراب منها سوى صباح، يبدو أن اليوم يكتمل بروحية.

- تعالي يا بسمة، تعالي اِلعبي مع مريم، مريم تنادي عليك.

أرادت أن تجري بسرعة فلم تمكنها ساقيها، وشعرت أنهما يتداعيان تدريجيًّا، بينما تلك الميدوزا المخيفة تقترب منها لتلتهمها صرخت بسمة صرخة مدوية ثمَّ سقطت ممددة على أرضية الشارع الترابي.

(5)

القطار

أخرجت ألبوم الصور من دولابها القديم وجلست تتأمله في حزنٍ، اِبتسمت اِبتسامة باهتة وهي ترى الصور المتعاقبة يومًا بيوم، تلك الصور الأبيض والأسود، والتي لا زالت تعيد إلى نفسها كل الذكريات الطيبة. كان الجميع قد اِنهمك في تناول طعام الإفطار، تركتها صباح بعدما أعدت لها إفطارًا خفيفًا وفضلت الدخول إلى منزلها لرعاية اِبنها المريض، تركته كما هو لم تتناول سوى حبتي تمر حتَّى تتمكن من تناول الدواء، اِنتشت وهي تُخرج صورتها في حفل الجيزويت وهي تعزف البيانو، ما كل هذا الجمال، عازفة بيانو من الطراز الأول تبتسم بثقة وظهرها مفرود بينما شعرها الأسود الفاحم يلمع بقوة، وهو مُنسدلٌ في نعومةٍ على كتفيها وهي تنظر بثقة وأمل إلى الحياة. نظرت في الصورة الباهتة التي تعكسها مرآة الدولاب المكسورة. فرق كبير ما بين الصورتين، فابتسمت مرة أخرى بتهكم وكأنها تتساءل ذلك السؤال المزعج الذي يسأله كل البشر ولو مرة واحدة في العمر، هل هذا أنا؟! سؤالٌ مُخيف، يشبه إشارات مرور القطار السريع من فوق رصيف المحطة، قطار العمر الذي يدهسنا بعنف دون رحمة، مدت يدها المرتعشة إلى مجموعة أخرى من الصور، كل تلك المناسبات السعيدة والأشياء المبهجة قد تكومت هنا في هذا الصندوق الصدف العجيب، وكأنه صندوق الدنيا، صورتها مع

آدم يوم الخطوبة، وهي تسقيه كأسًا من الشربات الأحمر القاني، بدا في الصورة أسودًا بالطبع لكنها تتذكر لونه حتَّى اليوم، فقد اِنسكبت منه عدة قطرات على بذلة آدم، فاحتد عليها قليلًا ولولا حكمة أمها "ماما نعيمة"، كما كانت تُطلق عليها، لا نتهى كل شيء. صورة العيد الأول لابنها الأكبر يحيى، سبب أحزانها المستمرة، وهو يطفئ الشمع ببراءة، بينما يصفق الجميع في سعادة، صورة أخرى وماما نعيمة تقبله، صورة ثالثة ويحيى يقف بجوارهم، ويجلس بجوارها زوجها آدم الطيب، بينما تجلس طفلتها الصغرى بسمة ملتصقة بها كالقطة الجميلة، وماجد المشاغب، يجلس أسفل أقدامهم، وهذه صورة زفاف ماجد على ميرنا، فتاتة ذات الملامح الغجرية، كم كان جميلًا وسعيدًا يوم الزفاف، وكأنه قد حقق كل أحلامه، فها هو يتزوج حبيته في الكلية، بعدما صار مهندسًا للحفر بإحدى شركات البترول الكبيرة، لقد تقمص يومها شخصية المطرب عمرو دياب، وأخذ يغني لميرنا بصوت أجش، مِمَّا آثار ضحكات الجميع، الذين أبدوا سعادتهم، لكن جدته نعيمة كانت تجلس متبرمة، وتقول بأنه قد حول نفسه أراجوزًا من أجل عيون تلك البنت الهزيلة!، تطلعت إلى صورتها وهي في أواسط الأربعينات مع ماما نعيمة التي جلست على كرسيها الكبير المذهب في الصالة بجلستها العسكرية المهيبة، بدت كإحدى وصيفات الملكات في أسرة محمد علي بحجابها التركي الغريب، وقلادتها الذهبية الكبيرة، بينما جلس الأحفاد الثلاثة في براءة تحت قدميها، ماجد كان يضحك وعيونه البنية تلمع بسعادة، لم تكن السنين والهموم قد تسللوا إلى حياته بعد ليحولوه إلى ذلك الرجل الثلاثيني الضخم الذي يحتضنها في صورة أخرى وكأنه فيلًا يحتضن عصفورًا. لا أحد يُصدق أن ماجد، بطل الجودو الرشيق، قد صار ذلك الرجل السمين الذي في الصورة. بعد طلاقه من ميرنا. ترك مكتبه المكيف في القاهرة، وطلب نقله إلى أحد حفارات البترول بالبحر الأحمر، صار يُدخن بشراهةٍ، ويأكل بشراهة ولا يكترث لشيء. زاد وزنه، وأكلت صلعته الكبيرة كل وسامته، وزاد

سمك نظارته الطبية، من فرط القراءة ليلًا فوق مصباح صغير في غرفته الضيقة داخل البريمة العائمة، التي تتأرجح ككرة مطاطية في عرض البحر، حاول أن يشاركها بعض مظاهر الحياة كلما عاد في إجازة، لكنه لم يعد مرحًا كسابق عهده، قد يكون الله قد كتب له عدم الإنجاب حتَّى يُفادي ذلك المولود المسكين، مصيره التعس. آلمتها صورة يحيى، أكبر الأبناء، وهو يضع إخوته الأصغر في العوامة الكبيرة، على شاطئ سيدي بشر ويضحك في سعادة، آه يا نادية كم أنت منكوبة في أبنائك، يبدو أنك ستموتين دون أن تحملي أحد أحفادك، ما الذي قلب حال ذلك الولد، هل يتخيل أحد، أنه كان متفوقًا في الكلية لمدة أربع سنوات، وهو الوحيد الذي ورث عنها الإبداع، فقد كان كاتبًا واعدًا بشهادة زملائه وأساتذته في الكلية، كان يحصل على كل جوائز الشعر والأدب في مراحلهِ الدراسية حتَّى الجامعة، حاول نشر أعماله الأدبية ولكنها قوبلت جميعها بالرفض، كانت سنة تخرجه من أصعب السنوات فقد فيها كل شيء، والده أولًا، ثمَّ تعينه في الكلية، ثمَّ فقد بعدها حبيبته عاليا، وبالطبع فقد القدرة على الكتابة، لم يكنْ مثل ماجد الذي قرر الرحيل وتغيير وجهة عمله وحياته، بل بقى هنا وانسحب من الحياة كليًّا، لم يوفق في الحصول على عملٍ جيد بالرغم من تقديره المرتفع، حتَّى شقيقه ماجد لم يفلح في الحصول له على عمل مناسب، تدريجيًّا صارت فكرة الأمر الواقع هي التي تسيطر عليه. قبل وظيفة متواضعة كمندوب مبيعات وتوزيع بشركة فرفشة للمقرمشات والحلويات، والغريب أنه وجد نفسه ناجحًا فيها، وبات ربحه منها جيدًا لكن حالة تبدل تمامًا وتغير معه أصدقاءه، مثل حمادة الطلياني، وأزهار اِبنة نحمده القهوجية، وكلهم يرتادون حانة بوسط البلد، تعتقد أن اِسمها الطاووس، تعلم أنه يتردد عليها باستمرار، الكل يعلم أنه قد صار، مدمنا للخمر،"صاحب كباية" كما يقولون هنا في السيدة زينب. ظلت الصور تتلاحق أمامها كشريط سينما ترسو في ثلاثينات القرن الماضي، كل هؤلاء البشر، كل تلك الوجوه الضاحكة والحزينة،

تلك الأجساد القوية التي صارت ضعيفة، حفلات الزفاف والميلاد، لحظات النجاح والترقية والسعادة والكبوات، عشرات الأقارب والمعارف، من مات منهم أو بقى على قيد الحياة، تم صرهم هنا في تلك العلبة الصدفية العتيقة، في دولاب سيدة مسنة تقترب من السبعين، ما أضعف بني آدم، لا يُساوي شيئًا، وليس به سوى لسان فقط، سمعت صراخ اِبنتها بسمة في الحارة، لم تكن تنتبه لتلك الصورة المخيفة التي تُطل من الظرف الأصفر الكبير، صورة واحدة كبيرة، خرجت من المظروف، أو هي التي أخرجتها لا تدري لقد نسيتهم تمامًا، لكنهم كانوا هناك جميعًا، ينظرون إليها نظرات مميتة خانقة، يخرجون واحدًا تلو الآخر، يقتربون منها يحاولن جذبها، كانت الرؤية تغيم، والأرض تدور، بينهم هم يلتفون حولها في دائرة ويضحكون ضحكات مخيفة، إنها تحاول الاستغاثة لكن صوتها لا يخرج الباب ينفتح إلى ذلك النفق الواسع الكبير، الذي يحوي قطارًا ضخمًا سريعًا جدًا، كانت صوت إشارات المرور الحمراء والخضراء تصم الآذان، جذبوها بسرعة إلى إحدى العربات، وقفزوا جميعًا بينما اِنطلق القطار بسرعة جنونية، وهي تسمع صراخ بسمة في الحارة.

(6)

بار الطاووس

الباب الخارجي مغلق، ولافتة الطاوس المُضيئة مُظلمة طوال الشهر الكريم، على الرغم من معرفة الكثيرين بأنه يعمل في الخفاء، هناك باب سري داخل منزل صاحبه، يفضي إلى بار ستافرو العجوز، آخر من تبقى من سلالة اليهود الذين صاروا يعدون على أصابع اليد الواحدة، وبالطبع لم يكنْ مُتاحًا سوى للخاصة وزبائن البار الدائمين، ومنهم حمادة الطلياني ويحيى آدم، إنهما مختلفان عن باقي الأشقياء، فهما يفضلان الخمر عن الحشيش، ويقول حمادة أن الخمر هي سيدة المتعة، تعلم شربها من والده، الذي عاش مدة طويلة في إيطاليا، لذلك، فقد كان البار الكبير، من أهم معالم منزلهم الفاخر، ثقافة تبناها حمادة وأقنع بها صديقه يحيى!. الساعة التاسعة مساءً في وسط البلد، هي أنسب موعد للهروب من أي شيء، فالناس ما بين مُنشغل بصلاته، أومنشغلٌ بالتليفزيون والمقهى، سهل جدًا على حمادة الطلياني أن يهرب من هذا العالم، فهو لا ينتمي لأيٍ من الفريقين، فالكأس هو صديقه الأوحد. عبر من الشارع الجانبي إلى شارع زمرد أغا، حيث بوابة عتيقة عليها نجمة سداسية، حيث يقبع بيت مزراحي، معقل الطائفة اليهودية قديمًا، صدمت أنفه رائحة صندوق القمامة الكبير الذي نبشته القطط، وبعثرت محتوياته. تجاوز كل تلك القذارة، واتجه إلى الشقة اليُمنى بالدور الأرضي. مد يده

إلى المطرقة النحاسية القديمة، على شكل ثُعبان كُبرى، مصنوع بدقة عالية حتَّى إنك تتخيل إنه سيتحرك في أي لحظة ويعض يدك. طرقها عدة طرقات، تمهل من بالداخل قليلًا، ونظر من العين السحرية، يبدو أنه كان يتحقق من هوية الطارق، فتحت الباب سيدة سمينة ملونة العينين، مُزججة الحواجب، تحمل نظرات غير بريئة تمامًا، إنها مدام ستافرو كما يُطلق عليها رواد حانة الطاووس، تحب المال وتعمل في أي شيء يجلبه، يمكن الحصول على خدمات مدام ستافرو كاملة، بعدة أوراق من فائة المائة جنيه، ستسمح لك بسبر أغوار إحدى ساقطات الحانة، أو سبر أغوارها هي شخصيًّا، لا يهم!!، فهنا كل شيء مُباح ما دام الثمن سيكون مُجزيًّا. ضجر من إجراءتها الأمنية فقال لها غاضبًا:

- ساعة يا جازيل لتفتحي الباب، لا فائدة منكما أنت وستافرو، ستظلان جبناء للأبد، نظرت له قائلة في خلاعة:

- من خاف سلم خبيبي، دفع ذراعها السمينة بعيدًا عنه في ضجر ثمَّ قال:

- هل جاء يحيى أم لا؟، هزت كتفيها السمينتين قائلة:

- لا خبيبي، فيه مليكة وأزهار بس، زفر حمادة في عصبية، قائلًا:

- أين ذهب ذلك المجنون، شكلها هاتبقى ليلة سودة. ضحكت جازيل بينما تجاوز حمادة الستارة البلاستيكية الرديئة المنقوش عليها الكثير من الورود الحمراء، والتي تفصل بين المطبخ والحمام وسار في الممر الضيق، ثمَّ هبط سلمًا خشبيًّا وضعه استافرو داخل فتحة تهوية قديمة، فتحها هنا لتصبح مخبأً وممرًا سريًّا من وإلى الحانة، يمكن اللجؤ إليه عند اللزوم. اِستقبلته الحانة برائحة كحول نفاذة، وإضاءة حمراء خافتة، وضعت الجميع على أعتاب حالة نرفانا[1] واهية،

1) مفهوم النيرفانا في البوذية هي حالة الخلو من المعاناة. وتعتبر الـ (نيرفانا) هي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، أي أنه يصبح منفصلًا تماما بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، ويبتعد الإنسان بهذه الحالة عن كل المشاعر السلبية من الاكتئاب والحزن والقلق وغيرها.

وكأنك داخل غرفة تحميض أفلام كلاسيكية من زمن السبعينات، يصعب على الشخص الطبيعي، تحمل تلك الإضاءة المُثيرة للأعصاب، لا حل إذن سوى المزيد من الخمر، حتَّى تفقد كل حواسك، ستتحول تلك الإضاءة تدريجيًّا بعد ذلك إلى لون وردي مريح للعين، يشعرك بسعادة غامرة. وضع استافرو بعض الزينات من قماش الخيامية اِحتفالًا برمضان، ضحك حمادة في يأس، عندما حاول الربط بين تلك الزينات وذلك الماخور النجس فلم يجد.

مسح بعينيه المكان، كان يعج برواده العاديين، الذين هربوا من مراسم الشهر الفضيل، إلى بغيتهم، وكأن الأمر لا يعنيهم بتاتًا مثله. أطلق نظرة غاضبة تجاه صديقته أزهار، حيث كانت تقف بجسدها المُكتنز وصدرها المنطلق دومًا وهي تضاحك شابًا لا يبدو مصريًّا، يرتدي قميص أخضر حريري، غالي الثمن، خالي من الذوق، وهو يعبث بخصلات شعرها البُنية الناعمة، بينما هي تصب له الكأس من زجاجة خمر كبيرة لها علامة حمراء، ضبطه ينظر إلى صدرها المُكتنز في تلذذ، ثمَّ يضع فيه ورقة نقدية أجنبية ومعها ورقة بيضاء، حركة قديمة ومفهومة لرواد الحانة، فار الدم في رأسه ونهض مُتجهًا إليها، إلَّا أن يدًا ناعمة اِمتدت إليه، ومنعته من التهور، لقد كانت مليكة صديقة يحيى التي قالت له:

- اِهدأ يا صديقي، اللعب له أصول، دعها تقلب ذلك البرميل في قرشين. أنت لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى أخواتها الأيتام، فاجلس ولا تحدث جلبة. ثار عليها قائلًا:

- بنت الكلب، إنها تسحب مني الكثير من النقود، ولايجب، قاطعته مليكة بواقعية:

- أنت تعرف قواعد اللعبة يا صديقي، كل هنا حر في مزاجه، صمت حمادة في غضب كلما أحس بالعجز، جلس في اِستكانة واشعل سيجارته وهو يتابع صديقته

وهي تعقد اتفاقًا قذرًا مع ذلك البرميل الأخضر ذو الشارب واللحية، ظل يرمقها في توتر وهو يخلط كأسًا بالثلج، بينما ربتت مليكة على كتفه قائلة في لهفة:

- دعك منها وأخبرني عن يحيى، هل علمت عنه شيئًا، لقد علمت أن تلك الفتاة الهزيلة التي كانت تسأل عنه هي شقيقته الطبيبة. تناول رشفة من كأسه ثمَّ قال في توتر:

- لقد اِتصل بي أحد رجالي في محافظة الغربية وأخبرني بأنه تشاجر مع عبده ميلص، رشفت مليكة رشفة من كأسها وهي تهز كتفيها بعدم اِكتراث قائلة:

- وما المُشكلة، هما يتشاجران دائمًا ولا يحدث شيء. رد حمادة في قلق:

- لكن هذه المرة، اِختفى، صار له يومان لم يظهر، وهاتفه المحمول مغلق، حتَّى شقيقته لا تعرف عنه شيئًا. فكرت مليكة قليلًا ثمَّ قالت:

- هل تعتقد أن ميلص قد أصابه بسؤ؟ رد حمادة بعد فترة، وهو ينظر تجاه أزهار التي لم تزل تتحدث إلى الرجل ذو القميص الأخضر:

- لا أعتقد، فلقد قال لي الرجل أنه فرّ بالسيارة بعدما تجمع بلطجية ميلص حوله وكادوا يفتكون به واختفى بعد ذلك ولا أحد يعرف عنه شيئًا. قالت له:

- وماذا ستفعل، هل ستبلغ البوليس، كما قلت لشقيقته اليوم؟ ضحك حمادة من سذاجتها قائلًا: وماذا أقول لهم؟ يبدو أنك جُننت أو لعبت الخمر برأسك، بالطبع لن أفعل، وسآتي به مهما حدث.

اِقتربت أزهار منهما مُبتسمة وعلا صوتها، بعدما اِعتلت المنضدة التي يجلسان عليها، فكشفت تنورتها القصيرة جسدها المثير وزاد ذلك من توتر حمادة. رفعت ذراعها العارية بالكأس إلى أعلى وهي تُنادي سُكان البار بصوتٍ ممطوط:

- اليوم هو عيد ميلاد الطلياني، هذا الكأس على حسابي، دعونا جميعًا نشرب

في صحته، هلل الجميع بشكل مفتعل ورفعوا كؤوسهم وهم يهنئون حمادة بتلك المُناسبة العزيزة، بينما كان حمادة في عالمٍ آخر، كان أقرب إلى الجنون فجذبها من فوق المنضدة سريعًا ثمَّ لطمها على خدها وسط ذهول الجميع الذين ندت منهم صيحة اِستنكار لما فعل، وعلى الرغم من كون المشاعر هي عملة زائفة في ذلك المكان، إلَّا أن الجميع قد تعاطفوا معها وحزنوا لحظها العاثر الذي دفعها لمصادقة ذلك الطلياني. خبئت أزهار وجهها بيدها باكية ثمَّ قالت له في عتاب هامس:

- لماذا؟ أنا لا أستحق منك ذلك، نحن اِتفقنا من ذي قبل، وأنت قبلت الإتفاق على ألَّا تتحمل مسئولية أي شيء. صمت قليلًا ثمَّ قال لها في حزنٍ يُغلفه الاعتذار:

- أنا لم أضربك انت يا أزهار، لقد ضربت محمد عبد المجيد مختار، وكل أسرته، ضربت الانفتاح، ضربت إيطاليا، ضربت السبتية، ومصنع الكعك، ضربت كل شيء. كان أقرب إلى الجنون فصمتوا جميعًا، بينما دخل هو في نوبة من بكاء جعلت مليكة تطبع قبلة حانية على رأسه، بينما بقي الجميع صامتين وفي حالة تأهب، إيذانًا بفتح هويس أسرار أحد الثمالى في البار، هذه الحالة يجب أن تحدث لمرتادي البار ولو مرة واحدة في العمر، لكنها تكفي تمامًا لفضحه بقية حياته على رؤوس الأشهاد، لكنهم تصالحوا مع ذواتهم، صار بينهم اِتفاقًا ضمنيًّا، أن يكونوا سترًا على بعضهم، فلقد اِعترفوا بضعفهم عكس ذلك المجتمع الفاسد الذي يدعي المثالية بالخارج فلكل منهم ركنًا مُظلمًا في أحد ثنايا عقله، فلا داعي للخجل، ولذلك اِستمعوا له بصدرٍ رحب وهو يقول:

- أنا محمد عبد المجيد مختار، الشهير بحمادة الطلياني، "اِبن الناس الذي فسد" كما يقول سكان السبتية، ذلك الأمر لم يكنْ بيدي، فلقد كنت حَمَلًا وجد نفسه فجأة بين قطيعٍ الذئاب فكان من الحتمي أن أتحول أنا الآخر وإلَّا سأكون فريسةً سهلةً لهم. سافر والدي إلى إيطاليا لتكوين نفسه في السبعينات، مثل كل

الشباب المصري المُكافح، عمل طاهيًا بإحدى المطاعم، وتزوج من والدتي الإيطالية التي كانت تعمل نادلة في المطعم، صمت قليلًا وكأن اِستافروا قد أضاف لخمره مصل الحقيقة الذي فرض عليه الصدق، فاستأنف قائلًا: حسنًا إنها لم تكنْ تعمل نادلة في مطعم بل كانت راقصة تعري في با!!، جذبته أزهار من يده قائلة:

- اسكت، الله يخربيتك، سوف تفضح نفسك، ضحك حمادة وسقط فوق المنضدة، قائلًا:

- أفضح نفسي، إن ذلك مسجل في محاضر الشرطة يا صديقتي، ومع ذلك فأنا لا ألقي كلمة بالقاعة الرئيسية في الأمم المُتحدة، نحن في بار الطاووس، وكلنا مفضوحون، أنا وأنتم مفضوحون جدًا. ضحكوا جميعًا، بينما كانت علامات الحزن قد كست ملامح أزهار ومليكة. اِستطرد حمادة قائلًا:

- كنت في الرابعة عشرة من عمري تقريبًا، عندما عاد أبي وأمي من إيطاليا، بغرض الاستقرار هنا، كان ثراء أبي فاحشًا وقتها فكنا نسكن فيلا جميلة في حي راقي، بها حمام سباحة وملعب تنس، كنت أعيش فوق السحاب، كان عيد مولدي الرابع عشر بمثابة حفل تتويجي ملكًا على عرش مملكة أبي، التي كانت تتسع وتتوحش، كان ناجحًا جدًا في مجال المطاعم، هو أول من اِفتتح مطاعمًا للبيتزا في القاهرة، وكان الإقبال عليها جنونيًا، كان كل عام يفتتح مطعمًا جديدًا، لكن الانفتاح، الله يخربيته، زاد من أطماعه، فقرر التوسع في تجارة التصدير والاستيراد بعدما تعرف على جارنا علي صميدة تاجر الخيش الذي تحول لاستيراد إطارات السيارات وأشياء أخرى كثيرة، اِضطرته للحصول على قروض من البنوك لتغطية ذلك التوسع الرهيب، وبالفعل اِزداد ثراء أبي بشكل لا يصدق وازداد معه حجم ديونه، كانت حديقة منزلنا، أجمل من متنزهات أوروبا، فيها بحيرة تحوي بجعًا نادرًا، بينما كنت أعيش أنا وبجواري مربية وخادم، كنت أذهب إلى المدرسة

الأمريكية التي كانت بالدولار ولا يدخلها سوى أبناء الوزراء والخاصة في البلد. كان أبي يعدني يومًا لأن أكون خليفةً له في تلك الإمبراطورية، التي أعتقد خاطئًا أن الشمس لن تغيب عنها إلى الأبد، أحببت مني اِبنة الدكتور المنصوري جراح القلب الشهير، كانت تسكن في الفيلا الملاصقة لنا، جميلة ورقيقة كالعصفور، وكنت أتنافس في حبها مع أمير صميدة اِبن شريك والدي، ذلك الطفل السمين الغبي، الذي كان يزاملني مع منى في المدرسة الأمريكية، ويجاوراني في السكن، كان أتوبيس المدرسة يمر يوميًّا على مدرسة فقيرة اِسمها العروة الوثقى، تقع بمنطقة شعبية، هي الأقرب لمنطقتنا الراقية، بها أطفال،يرتدون زيًّا موحدًا، أصفر اللون بشع المنظر، مصنوع من قماش فقير يُسمى "الضمور"، ويحملون أكياسًا من نفس القماش يضعون فيها كتبهم، بدلًا من الحقائب الأنيقة المستوردة التي كنا نحملها فوق ظهورنا، ونقذف بعضنا بها دون اِكتراث، كما إنهم كانوا يشترون طعامهم من باعة جائلين أمام المدرسة، كان أمير يسخر منهم كثيراً ويخرج لهم لسانه، بينما كانت منى تنظر لهم بعطف، كنت لا أحب أمير أبدًا، كان قاسي القلب، بغيض وشهواني، يأكل كما الحيوان، ويتطلع إلى جسد منى بشبق رجل في الأربعين، كان يتعمد إيذائي، نفسيًّا وبدنيًّا؛ بسبب اِنجذاب مُنى لي كما أنني كنت طفلًا جميلًا ملون العينين، ناعم الشعر، وأتمتع بجسدٍ رشيق مِمَّا أثار حنقة ضدي، لكنه للأسف تمكن من الشماتة بي سريعًا. كل ما أتذكره الآن هو كعكة عيد الميلاد الكبيرة التي كانت تصنع لي خصيصًا في أرقى المحال التي كانت تخدم الصفوة والسادة فقط، آخر كعكة عيد ميلاد اِحتفلت بها في ذلك المنزل وبين أسرتي، في ذلك اليوم اِلتف كل أهلي وأصدقائي حولي وأنا أُطفئ الشمع ، قالت لي جدتي تمنى أمنية يا حمادة، أغمضت عيني وانطلقت أحلامي إلى عنان السماء، تمنيت أن أصبح أكبر رجل أعمال في هذه البلد، وأن أسكن قصر الجوهرة الكبير ذو النافورة الرخامية السوداء والنخيل الملكي الذي يحيط به، الذي أمر عليه في طريقي كل يوم، كما

تمنيت سرًا أن أتزوج بحبيبتي منى، لكنني بالطبع لم أجهر بتلك الأمنية التي كان يشعر بها المقربون، كانت الحياة تسير كالحُلم، حتَّى اِستيقظت في أحد الأيام على كابوس، وهذا ليس ذنبي، ففي أحد الأيام المُظلمة، عُدت إلى المنزل، لأجد هرجًا ومرجًا، مجموعة من الرجال المدنين، معهم رجال شرطة يمسكون بأبي، بينما آخرين يعبثون بمنقولاتنا بسهولة، وأمي جالسةٌ تبكي على كرسي الصالون الأنيق، أفلس والدي، وباعوا كل شيء لتسديد ديونه. من يومها تاهت الألوان بالنسبة لي، لم يعد لأي شيء معنى، كل الذي أتذكره، هو مدرسة العروة الوثقى، نعم بعد شهرٍ واحد فقط، اِنتقلت إلى تلك المدرسة الحقيرة بعدما هربت والدتي إلى إيطاليا وعادت للعمل كراقصة، بينما عاد والدي لتشغيل المصنع البدائي للحلوى الرخيصة الذي ورثه عن جدي بالسبتية، ولاحظت تردد صميدة جارنا القديم، ووالد أمير على والدي في المصنع والمقهى، لا أعرف ماذا كان يدور بينهما لكنهما كانا يحضران رجلًا أجنبيًّا كل فترة ليجلس معهم على المقهى، وبعد ذلك، اِبتكر والدي الكعكة التي وضعها في علبة ومعها سكر، والتي لم تلق رواجًا، كُنا نسكن وقتها في بيت جدتي المُتواضع، المكون من غرفتين فوق أسطح إحدى البنايات العتيقة بالقرب من ميدان رمسيس.

لقد تذوقت معنى الذل في تلك المدرسة، بمجرد أن عرفوا قصتي، الفقر ليس رحيمًا أبدًا، الفقر يورث في القلب حقدًا وقسوة لا مثيل لها، عامان كاملان في المرحلة الإعدادية، وأنا مصدر الترفيه الوحيد للمدرسين والطلبة على حدٍ سواء، لم يعد في جسدي مكانًا سليمًا، من فرط الضرب والتعذيب، عرفت معنى تغير الدهر وتبدل الحال، كان أبسط شيء أسمعه في يومي كلما، مثل، "من أي داهيةٍ أتيت إلينا، والدك لص، أمك راقصة"، كنت أذهب إلى والدي باكيًا، فيضحك في يأسٍ قائلًا بعدما يرفع رأسه المُتثاقلة من فرط الخمر قائلًا: إنهم لم يكذبوا!، إن ما قالوه هو أقل من الحقيقة بكثير فأمك شرم..... وبنت كلب!!. كانت الكلمة ثقيلة، فصمت

حمادة باكيًا. حاولت أزهار ومليكة إخراجه إلَّا أنه دفعهن وأكمل قائلًا:

- أعوامٌ طويلة اِنقضت وأنا أعيش في جحيمٍ مقيم، حاولت بشتى الطرق تغير الواقع لكنني لم أتمكن، بينما تحول أبي إلى شيء مخيف، فلقد اِمتنع عن الذهاب إلى المصنع، وحلق شعره تمامًا وتلونت صلعته بلون أصفر مُخيف، صارت هيئته أقرب إلى هيئة كهنة المعابد في مصر القديمة، يجلس على سطح البناية ينظر إلى الفضاء ويتحدث بلغة غريبة، ويجلس في الحمام مدة طويلة ويهمس بأشياء غير مفهومة، ثمَّ توقف عن الاستحمام نهائيًّا، تحول إلى خنزير بري مخيف، يمكنه قتل أقرب الناس له وسمعته في المنطقة صارت مخيفة، بأنه شيطان. صار يكسب رزقه من بعض أعمال السحر والدجلو وكنت وقتها أتكفل بنفسي تمامًا، وأعمل في المصنع مع عم باخوم اليهودي، آخر من تبقى من إرث جدي، تعلمت منه الصنعة وأدرت المصنع حتَّى أنفق على نفسي، صار جلدي قاسيًا ومتشققًا كخشب المراكب، العتيقة التي تمَّ تسريحها من الخدمة، ذات يومٍ ممطر، بعد عدة سنوات كنت أنقل صناديق المقرمشات إلى السيارة ولمحت شابًا وفتاة يحملقان في بقوة، من داخل محل المفروشات المجاور للمصنع، بالطبع هربت منهما إلى الداخل، لمحتهما يتحدثان، ثمَّ رحلا في سيارة مرسيدس حديثة. لم يستغرق التعرف على فتاتي مُني وقتًا طويلًا، فلقد كانت ملامحها محفورة في قلبي، حتَّى بعد كل تلك السنوات، لكنها اِزدادت جمالًا وبريقًا، ولم يكن من الصعب معرفة ذلك السمين ثقيل الظل الذي كان يسير بجوارها، إنه أمير صميدة، عدوي اللدود، الذي عرفت بعد بحث أنَّه قد صار رجل صناعة مرموق وأن إعلانات شركاته كانت تحتل الطرق والمحاور المهمة في القاهرة وعلمت أن مُنى تعمل في مهنة مرموقة بوزارة الخارجية. وبقي هو كعادته، شبقًا كالخنزير، ترهل جسده لدرجة أنَّه صار يشبه أيقونة الإطارات الفرنسية ميشلان!، تعجبت لذلك الزمن الذي سيسمح لذلك الخنزير باقتناء ذلك الحصان الراقص، تمنيت قتله عندما وجدته يلتصق بجسد مُنى ويلمس يدها بينما

بدت هي مُكرهة كما كانت في الماضي فلقد كنت أعرف علامات الامتعاض التي كانت تظهر على وجهها إذا حاول هو لمسها خلسة. يبدو الأمر كصفقة حقيرة أبرمت بين الأسر الثرية، لكنها على آية حال اِستسلمت للأمر الواقع، لكنني فوجئت في اليوم التالي بمُنى وهي تدخل عليّ المصنع بدون أمير، كان سلامها حارًا ومؤثرًا، لم أُصدق أنها قد عرفتني وأنها جاءت لتعتب عليّ لتجاهلي أياهم. كيف لي أن أواجههم، وأسرتي لم تعد تملك رصيدًا من التاريخ المُشرف يجعلني أفتخر أمامهم بأي شيء، أنا الذي أكمل بقية تعليمه بالستر حتَّى حصل بالكاد على بكالوريوس تجارة بعد قصة درامية عنيفة، أنا الذي سيكمل الباقي من حياته داخل غرفتين حقيرتين فوق سطح بناية عتيقة بجوار محطة مصر، أعطتني الكارت الخاص بها وطلبت مني التواصل، لكنني مزقت الكارت فور خروجها من المحل، فلم يعد طريقنا واحدًا، فطريق الشوك لا يمكن أن يتقاطع يومًا مع طريق الحرير لكن لقاءتنا قد تكررت رغمًا عني، فلا يمكن أن تمنع الظمآن من شرب الماء البارد في الصحراء مهما كانت العواقب. واستمر الحال حتَّى عدت في ذلك المساء لأجد في اِنتظاري مشهدًا مفجعًا. قضى على أي أمل لي في حياة كريمة واستمر الحال حتَّى عدت في ذلك المساء لأجد في انتظاري مشهدًا مفجعًا. قضى على أي أمل لي في حياة كريمة.

(7)

أبو دراع

راقبها بسخرية، وهي تتأمل أجهزة الكمبيوتر اللوحية الحديثة المحفور على ظهرها، تفاحة فضية لامعة تم قضمها عن عمد. ثمَّ قالت في فخر وهي تشير إليهم:

- جهازين آيباد أحدث موديل، أرسلهم فادي من أمريكا، حتَّى يتمكن من الاطمئنان علينا طوال اليوم، واحد لك والآخر لي. أُنظر إلى فخامتهم، ربنا يخليك لينا يا فادي، أمريكا دي دولة تجنن.

اِبتسم الأستاذ جرجس مقار مُدرس التاريخ، المُحال على المعاش لكلمات زوجته الساذجة وهو يتابع حفل تنصيب الرئيس الأمريكي الجديد وبجواره السيدة حرمه، كان اِهتمامه بالسياسة قد نضب منذ فترة لكن اِهتمامه بالجميلات لم ينضب أبدًا في أية مرحلة من مراحل حياته، ولذلك أغراه الصدر العارم لسيدة أمريكا الأولى بمتابعة حفل التنصيب بحماس مُنقطع النظير، فجلس يحتسي المياة الغازية المُثلجة وبجواره طبق كبير من الفول السوداني. كان مستمتعًا بحفلة العربدة الخفيفة التي يمارسها من خلف زوجته أم فادي. رد عليها بسخرية ماجنة وهو يتطلع برغبة إلى شاشة التلفاز مؤكدًا على كلامها قائلًا:

-هي تجنن بعقل... دي تخبل. اِستمر في التهام الفول السوداني بصوت مسموع

تبعه برشفة من كوب المياه الغازية المثلجة، التي أمامه. دائمًا ما يحاول أن يبدو مرحًا حتَّى لا تكشف زوجته ضعفه. راقبها خلسة وهي تحاول التعامل مع تلك الأجهزة الحديثة، والتي تفوق إمكانياتها الذهنية المتواضعة، ذكرته مُحاولاتها اليائسة بقروي مسكين، شاهده منذ عدة سنوات في محطة قطار بنها، كان يحاول اللحاق بقطار الإسكندرية السريع، وهو يضع على رأسه قُفة ثقيلة، فانكفأ على وجهه، ولولا ستر الله لانسحق تحت القُضبان. تلك البلهاء قد اِبتلعت الطُعم ولم تفهم الرسالة، هو لن يأتي هذا العام كما وعد؟ ولا حتَّى العام القادم، إن تلك الألواح الإلكترونية الحقيرة، هي بمثابة رشوة لهما على تحمل بعده عنهما! مسكينةٌ، هي لا تفهم أو أنها قد فهمت وتغافلت حتَّى تعيش دون مرارة. طريقة النعامة هي طريقتها الأثيرة في التعامل مع كثير من الأمور. تألم من تلك الكلابة القوية المُثبتة في ذراعه الاصطناعية فحاول هرشها، هي دومًا تؤلمه عندما يشعر بالحزن. كان تعامله معها حسب حالته النفسية، فهو يراها أحيانًا وسام بطولة وفداء حقيقي لتلك الأرض التي يُقدسها، لكنه في أوقات التجاهل والإحباط ، يشعر أنه قد صار دُمية بلاستيكية كالتي في دولاب حفيدته ماجي، فلا أحد يشعر به ولا بذراعه التي فقدها من أجل تلك الأرض، بل أنه صار يرى بعض علامات السخرية من بعض شباب أسرته، عندما يتكلم عن الحرب وبطولاته القديمة، وبأنه يريد أن يُدفن هنا، يبتسمون بأدب أمامه، لكنه يشعر بسخريتهم اللاذعة تحرق ظهره، تتهمه بالسذاجة والبله، فكلهم يُعدون أوراقهم للهجرة، أسرة كلها هاجرت حتَّى الجيل الثالث، لن تعرف معنى تلك الكلمات، أرض، وطن. الوحيد الذي صارحه يومًا بتلك الحقيقة المرة كان ناجي شقيق زوجته ماتيلدا، أُم فادي عندما قال له وهو يتشاجر معه، أنه أهبل وأنه يجري وراء أشياء لا تستحق، وأنه يُضيع مستقبل زوجته، وفرصتها أن تحيا حياة كريمة من أجل هذا العبث، حتَّى ذراعه قد ضاعت في تلك الخرافات، الكل يلعب ويكسب وتركوه جالسًا على المقهى

يحكي بطولاته القديمة التي لا يهتم بها أحد، الضباب يكتنف كل شيء حوله، يتساءل أحيانًا، هل تلك الأرض تستحق كل هذه التضحية أم أن أسرته وأصدقاءه كانوا على حق، هل يسافر إلى بلاد العم سام أم يمكث هنا؟ ضحكت ماتيلدا، عندما تمكنت من تشغيل الجهاز، بينما هز رأسه متسائلًا في سخرية. هل ستمكنه تلك الأجهزة من اِحتضان اِبنه فادي في أمريكا وحفيدته الوحيدة ماجي، التي يتوقف كل الزمن عندها، فهو ينسى كل شيء عندما تحتضنه بكفيها الرقيقتين وهي تقول له بدلال خرافي، هات بوسة يا جدو، تقبله وتترك على قميصه بقعة من الشيكولاتة أو صلصة المكرونة التي تحبها، أصبحت تلك البقع بالنسبة له أحلى من كل النياشين والأوسمة التي حصل عليها، كمحارب قديم، يحتفظ بكل أشياءها في خزانته الخاصة وكأنها قطعًا من المجوهرات، كما يحتفظ بصورها في جراب قديم داخل سيارته الفيات العتيقة، أول سيارة حصل عليها من عمله، اِشتراها يوم مولد فادي، وشهدت كل الأيام الحلوة، فادي عمره الآن أربعون عامًا!، حذاءها الصغير الجميل القديم، صورها معه، صليب قديم من الفضة، كُسرت قطعة من أحد أطرافه، فبدله لها بواحد آخر ذهب، وعلق هو القديم في مرآة سيارته، أحيانًا يضربه الحنين إليها، فيجلس في السيارة بالساعات تحت المنزل، يقبل تلك الأشياء ويبكي. ممُزقٌ هو بين حبها وحب تلك الأرض التي شهدت كل شيء لا زالت أم فادي تتابع ذلك الجهاز الحديث، صارت كل حياتها منصبة في تلك الشاشات الزرقاء السخيفة، تارة موبايل وتارة آي باد، لم تعد تُعره اِنتباهًا، حاول جذب اِنتباهها أكثر من مرة بحواديته الشيقة عن تاريخ مصر وحكاويه الغنية، لكنها لم تعد تكترث بالتاريخ ولا بأي شيء. شعر ببرودة غريبة تسرى في أوصاله رغم حرارة الجو، لدرجة أنه اِرتعد من الخوف والوحدة. اِكتشف أن أصدقاءه يتساقطون واحدًا تلو الأخر، يختفون فى ظروف غامضة ويتحولون إلى مجرد قائمة من الأسماء التي ليس لها معنى على جهاز هاتفه المحمول. لم يتمكن جرجس

من مشاركتها تلك الهواية السخيفة، هو عكسها تمامًا، يكره مظاهر التيكنولوجيا الحديثة، التي زادت الناس وحشة وغربة، حولت التهنئة بينهم إلى كارت اِفتراضي لا يُسمن ولا يُغني من جوع، والإعجاب، مجرد علامة يد تافهة يلهث وراءها الناس دون جدوى، حتَّى إنهاء العلاقة، صار بضغطة زر. حاول هو في البداية، لكنه فشل، صار وحيدًا تمامًا، لم ينتبه أن أخر صديق حقيقى له قد سافر إلى لندن، عاصمة الضباب دون حتَّى أن يسلم عليه أو قرر التجاهل ليتمكن من الحياة دون ألم. قرر التخلي عن تلك الحياة السخيفة وعدم العيش في ذلك العالم الافتراضي المُخيف، فأصدقاءه يتساقطون واحدًا تلو الآخر، فمنهم من تُوُفِيَ ومنهم من هاجر ومنهم من اِختفى في ظروف غامضة، واكتفى بنشر صوره هو وأولاده وأحفاده على صفحته، والاستمتاع بتعليقات معلبة لا تسمن ولا تغني من جوع، ما شاء الله، الرب يحفظهم، ماهذا الجمال، كل سنة وأنت طيب، وانتهى الأمر، أين ذلك الزمن الذي كان يعد فيه الإنسان نفسه لكتابة رسالة محملة بالحب والأشواق إلى محبوبه، أو كارت مُعايدة رقيق، يضع فيه بعضًا من قلبه ومشاعره، ثمَّ يُعطره بأجمل عطر، ما كل هذا الجنون الإلكتروني الذي يحدث، خشى أن يموت فلا يتبع أحدٌ جنازته، ويصبح العزاءُ قاصرًا على الفيس بوك!!، هل هذه هي قيمة بني آدم، الذي كرمه الرب. إنه حكاء تاريخ، يعرف سير الأولين، ومقامات الأولياء، وقصصهم، يعرف قصة أبو زيد الهلالي وسيف اِبن ذي يزل، وابن طولون، وست الحسن، يعرف المقريزي، وابن بطوطة يقضي أيامًا من أسبوعه في مقهى دغموش بالسيدة زينب، بجوار قبر حبيبه، المقدس ملاك، وفيها أصدقاءه وأحباءه، دغموش وجمعة بائع الفول، وسمعان سائق سيارة كنيسة مارجرجس، ويحيى اِبن صديقه المرحوم آدم الطيب، راقبها خلسة، كانت لا تزل منشغلة عنه، يعلم أنه سوف يتركها يومًا ما. سمعها تُكلم المحروس فادي في التليفون، اِبن أُمه كالعادة، ينتظر أحيانًا عدة أشهر كي يحصل منه على مُكالمة، عليها القيمة، بينما يُحادث أمه كل

يومٍ تقريبًا، توترت كل حواسه بعدما اِشتم رائحة المؤامرة التي تحيكها ماتيلدا مع اِبنه، سمعها تشكوه إلى اِبنه فادي بعدما ظنت أنه نام على الأريكة أمام التلفاز وأنه لا يسمعها، فقالت:

- لم أعد أحتمل يا فادي، لولا أنني أصيلة وأحترم العشرة، لتركته ورحلت منذ زمن، لا أعرف ما الذي يُبقيه هنا، إنه يعيش في العصر الحجري، لا زال يعمل اِعتبارات لأشياء قديمة، اِندثرت وعفى عليها الزمن، لا زال منبهرًا بأماكن قذرة وحواديت اِنقضت، ما الذي لنا هُنا حتَّى نبقى؟ آثارته كلماتها فهب فيها غاضبًا:

- لي فيها ذراعي المدفونة فى الأرض دي ياولاد الكلب. الله يلعن أبوكم على أبو أمريكا. ردت عليه بحدةٍ:

- من شعر بك عندما ضاعت ذراعك وصرت عاجزًا، جرحت الكلمة كرامته فوقف منتفضًا:

- أنا لم أعجز، أنا أصح من عشرة شباب اِبتسمت في يأس قائلة:

- كلام... مجرد كلام، تواسي به نفسك لكن الحقيقة أعرفها أنا وأنت جيدًا. كبح غضبه وإن أراد أن يبطش بها لكنه قرر أن يهدأ حتَّى يجد مبررًا يتخلص به منها فقال لها وعينه تضيق في حزن:

- هل تدنى الحوار بنا إلى هذا الحد، لا يهم فالذي بيننا قد اِنقضى منذ زمن، وبالنسبة لإصابتي التي تعايرينني بها والتي لن أتحملها منك بعد ذلك، فلقد كرمتني الدولة، وحصلت على أوسمة عديدة، كما أنني أعالج على نفقة القوات المسلحة، فماذا تريدين أكثر من ذلك. ضحكت فاستفزته أكثر.

- هل تعتبر قطعة الصفيح المطلية، وتلك الأوراق التي على الحائط، ومعهم بضعة جنيهات معاش شهري تعويضًا جيدًا عن ذراعك، لو أن أحدًا مثلك في أي دولة أخرى، كان سيعيش في قصر. جن جنونه وهو يقذف بأصيص الورد الذي

أماماه تجاهها لكنه لحسن حظها تخطاها وسقط، فتناثرت حبات الطين منه، وسقطت الزهور أرضًا، كان يقذف بالكلمات الهادرة:

- لقد أصبحت مسعورة، كلبة فلوس، كل ما تعرفينه عن الحياة كلمة، كم سأقبض، كم معك من النقود. ردت بتلقائية:

- وهل هناك تكريم أفضل من ذلك، النقود هي التكريم الحقيقي، شيء يستحق أن نتعب من أجله، أفضل من تلك الخرافات التي أغرقتنا فيها، اِبتسم في ألم مرددًا جملتها الأخيرة:

- خُرافات!! من يحاربون أمثالنا يقاتلون من أجل أشياء لا يعرفها أمثالك، أشياء لم يولدوا بها، أو قد تم نزعها منهم، منذ أمدٍ بعيد، الشرف، الأرض، العرض، الحياة، الكرامة. ضغطت على كلماتها وهي تقول بعنف:

- خلاص يا جرجس، لقد تحملت أشياء كثيرة من أجلك، ولكن بعدما نعتني بعدم الشرف، أنا سأسافر إلى أمريكا عند فادي، ولن أعود، وسأتركك للصياعة في الحواري والشوارع القذرة مع الرعاع، فهذه هي عادتك دومًا عش بعيدًا عن أبنك وحفيدتك من أجل ذلك الكلام الفارغ. رد عيها بسرعة:

- وأنا هذه المرة لن أمنعك، بالعكس، سأكون سعيدًا عندما لا أرى وجهك مرة أخرى، هذه الأرض تحتاج لمن يحبها ولا تحتاج مزيدًا من الكارهين.

اِقترب يحيى من باب الشقة القابعة في الدور الثاني بعمارة نصف حديثة بحي مدينة نصر، تلك العمارة التي يعتبرها يحيى حديثة جدًا إذا ما قورنت بمنزله الذي زاد عمره على الثمانين عامًا. قرأ تلك اللافتة النحاسية والمكتوب عليه بخط أسود جميل "جرجس مقار،مدرس تاريخ"، كاد يحيى أن يتراجع عن دق جرس الباب الذي يحدث صوتًا هيدروليكيًا عنيفًا وكأنه إنذار إحدى الغارات، بعدما ظهر صوت الشجار الواضح بين جرجس وزوجته، سمعها تُثرثر كعادتها، لا زالت تطن

كسيارة إسعاف محشورة على أحد كباري القاهرة في تماما الساعة الثانية ظهرًا. ضغط على زر الجرس الأسود، نافضًا من رأسه كل الحسابات الأُخرى، فهو يحتاج إلى من يُخرجه من ورطته، لم ينتبه لها وهي تنظر له بعيون حمراء وقد وضعت بعض مشابك الشعر الملونة التي لم تعد تتناسب مع شعرها الذي بات كحلوى غزل بنات رديئة. لا حظ يحيى اِبتسامة عدم الترحيب التي اِستقبلته بها ماتيلدا، ثمَّ تبعتها بكلمة ترحيب باردة مقتضبة اِعتادها يحيى منذ أن كان صغيرًا، يعلم أنها لا تُحبه، كما كانت لا تُحب أبيه من ذي قبل، هي ترفضهم وترفض المنطقة التي يعيشون فيها، السيدة زينب؟! تراهم هم من أفسدوا زوجها. تذكر والده وهو يقول لجرجس على الملأ أنت ملاك يا جرجس كيف تمكنت من معاشرة تلك الحية الرقطاء لمدة جاوزت الثلاثين عامًا، كان جرجس يميل على أذن والده رحمه الله ويلقي بضعة جمل، يشعر يحيى وهو صغير يجلس بجوارهم على المقهى، أنها كلمات بذيئة، حيث يتبعان تلك الكلمات الهامسة بضحكات صاخبة ماجنة، تجمع كل من في المقهى بعد ذلك ليشاركونهم الضحكات، لم يتبق سوى عم جرجس من رائحته إنه ذلك الشاهد على عصر من السعادة والهناء. سمع يحيى صوتًا أجشًا قادمًا من الداخل قائلًا:

- ادخل يا يحيى... تعالى، لا تقف هكذا. أفلت يحيى من ماتيلدا ودخل سريعًا إلى الصالة، كما كان يفعل صغيرًا. لمح أصيص الزرع المتهشم لكنه تجاوزه سريعًا، حيث كان جرجس يقف فاتحًا له ذراعيه وهو يسبه قائلًا:

- أبوك كان أصيلًا عنك، كده يا ولد، شهر كامل لا تسأل عني. صمت جرجس، عندما لاحظ تلك الضمادات التي غطت أنفه ويده، وذلك الكاب الذي غطى جزءًا كبيرًا من وجهه، فتح له ذراعه فسقط يحيى بينهما باكيًا بينما هدأ جرجس من روعه قائلًا:

- مالك يا بُني،ما الذي حدث؟. رد عليه بصوت واهن بينما وقفت ماتيلدا تُمصمص شفاهها في امتعاض، فجذبه جرجس من يده إلى غرفة الصالون. ثمَّ اِلتفت جرجس إلى ماتيلدا في عتاب وهو يقول:

- اِحضري له كوب من الليمون البارد.

(8)

المسخ

كانت الحانة تستمع لحمادة الطلياني، بشغف حتَّى أن صوت الموسيقى قد توقف وهم يستحثونه على إكمال قصته العجيبة، لم يكنْ مظهره القاسي وحاله السيئ يُظهران بأنه كان يحيى حياة كريمة في يوم من الأيام ولذلك شغف الجميع بما فيهم ستافرو الذي ظهر عليه الاهتمام وهو يقدم لزبائنه كئوس الخمر وأذنه منتبهة مع ما يحكيه حمادة، على الرغم من كونه يستمع إلى حكايات لا تنتهي من رواد الحانة كل يوم. تناول حمادة كوبًا من الويسكي تجرعه على دُفعةٍ واحدة، ثُمَّ قال:

_ صعدت بأقدام مُتثاقلة على سلم البناية القذرة، لم تعد ساقاي تقويان على صعود ذلك السلم المرتفع المنعدم من الذوق ولم يكن هذا هو أسوأ شيء كان ينتظرني ذلك اليوم، حيث دلفت إلى سطح البناية وسرت عدة خطوات كسيرة منزوعة الهمة حتَّى اِقتربت من باب العلبة الخشبية التي كنا نسكنها أنا وأبي، ترددت قليلًا بسبب الخطوات الدامية التي كانت على أعتاب الغرفة، لم أدرِ ما الذي حدث، لكنني وجدت أبي عاري الصدر، وعلى ظهره الكثير من الوشوم الغريبة، لم تكن تشبه تلك الوشوم العادية، لقد كانت تبدو كالأختام التي تُختم بها الذبائح وإن كتبت بلغة إيطاليا، لقد كان معناها، صمت قليلًا ثمَّ تجاوز تلك

العبارة قائلًا: خضت في بركة من الدماء حتَّى أصل إليه، لقد تصفى جسده تمامًا وجحظت عيناه وتحول لونه إلى الأزرق، مرت عيني بسرعة على الرموز مرة أخرى لعلي أفهم منها شيئاً لكنني فشلت، كنت أنظر إلى جثة أبي وأنا أبكي وأنتحب، أصرخ بصوت لا يخرج من حنجرتي، لكن الأسوأ كان قادمًا، فجسدي تشنج حتَّى تخيلت أن روحي تخرج من جسدي، فارت دمائي شعرت أنها تغلي داخل قدرٍ ضخم، سقطت أرضًا وعيني تحملق في الفضاء الفسيح، جسدي بدأ ينتفض وقلبي يدق بعنف وكأنه سيقفز من صدري، ثمَّ زادت الحرارة كان قلبي يصل إلى درجة الاحتراق، لدرجة أنني شممت رائحة نسيج قميصي وهو يحترق دون دخان، تلونت الدنيا بألوان شتى، عيني كانت تتقلب في كل الاتجاهات، وبعدها أخذت أنتفض كالطائر الذبيح، سمعت صوت صافرات سيارات الشرطة والإسعاف ووقع أقدام كثيرة كانت تهرول على سطح البناية، وتنادي على بعضها بتوتر، بينما لم أستيقظ أنا إلَّا بعد عدة أيام، كنت في مكانٍ أبيض اللون، بالتأكيد هو مستشفى، لكنه قد يتبع جهة نظامية ما، فملابس العاملين به وهيئتهم الجادة، لا توحي أبدًا بكونه إحدى المستشفيات العادية. وبالفعل كنت حليق الشعر تمامًا وألبس ملابس بيضاء، ويتم اِنتقالي بطريقة منظمة من غرفة إلى غرفة، أحيانًا كانوا يخبئون عيني عندما أنتقل من مسافة إلى مسافة أكبر، قاطعه أحدهم بسخرية:

- أرى أن خمر ستافرو الرديئة قد جعلتك تهذي فما علاقة اِنتحار والدك، بذلك المكان الأبيض الذي أصطحبوك إليه كما تقول، قد يكون مستشفى عاديًّا. جذبت أزهار حمادة الطلياني من ذراعه محاولة أن تخرج به من بار الطاووس قبل أن يفتضح أمره أكثر من ذلك ولا يتمكن من العودة مرة أخرى، فالكل يلعب تلك اللعبة إلى حدٍ معين، لا يمكن أن تصل لحد الوصم بتهمة أو جريمة، ولذلك قالت لهم بغضب وبلهجةٍ حازمة:

- وماذا يكون غير ذلك؟، إنه يهذي بالطبع، أعوذ بالله تعشقون الفضائح ضحك أحدهم ضحكة ماجنة قائلًا:

- لقد قال هو منذ قليل، نحن مفضوحون من الأساس، ماذا وراءنا، هي مجرد تسلية. دفعت أزهار ومليكة صديقهما وهو يترنح إلى خارج البار، أوصله أحد سائقي المصنع بسيارة متهالكة إلى الشارع الضيق الذي يسكن فيه وتركه ورحل، بينما سار حمادة بخطوات ثعبانية في الشارع الضيق وصل إلى بنايته المتهالكة في شارع رمسيس، وصعد إلى شقته المكونة من غرفتين وصالة فوق سطح المبنى، شعر بوقع أقدام خلفه، وسرعان ما ظهر أربعة رجال أقوياء يحملون الهراوات الغليظ، وأخذوا يضربونه ضربًا قاسيًا، وساعدته الخمر كثيراً في تلقي الضرب دون صراخ، بدا حمادة مستسلمًا تمامًا ولم يدافع عن نفسه، لكنهم تركوه مُلقى على الأرض وفروا هابطين الدرج، بينما سمع صوتًا أجشًا يقول في غلظة:

- لقد تكلمت كثيراً هذه الليلة يا بن الراقصة!

(9)

ثلاثة حمائم في المعركة

صورة لثلاثة رجال أقوياء يرتدون الزي العسكري ويضعون على صدورهم شارة لحمامة بيضاء جميلة تحمل غصن زيتون، بينما العرق يتصبب من وجوههم الفتية، التي تزينها اِبتسامة منضبطة. جلس يحيى يتأملها في فخر وهو يتناول كوب الليمون، مر بعينيه عشرات المرات على كل تفاصيلها، حتَّى بروازها المُذهب الذي خبى لمعانه بفعل الزمن، لقد حفظها عن ظهر قلب، يظل دائمًا يحملق فيها كلما زار بيت جرجس، إلَّا أنه لم يملها أبدًا، إنها أجمل صورة لوالده على الإطلاق وهو يتوسط صديقيه، جرجس مقار من ناحية، وملاك أبانوب أو المقدس ملاك من الناحية الأخرى، كانوا ضمن السرية الطبية التي تمَّ حصارها عام ثلاثة وسبعين، وسطروا تاريخًا من البطولة يكفي لأن يحكيه لأطفاله وأحفاده حتَّى نهاية العمر. اِنتقل إلى باقي الصور التي نقلته إلى زمنٍ آخر، عندما كان كل شيء يدعو للفخر، ها هي صورة عم جرجس مع والده في إحدى رحلات الجامعة وهما يقفان أمام الكباش في معبد الأقصر، وصورة أخرى وهما يتجاذبان الطعام من بعضهما على شاطئ البحر في الإسكندرية، يالله كم كانا قويان، أين ذهب كل ذلك؟!، بقى منهم ما يتبقى من كل إنسان، مُجرد صور عتيقة معلقة فوق حائط منزل بائس، تكاد الخلافات أن تطيح به. تابع باقي الصور الأخرى وهو يحمل فادي في عيد

مولده وبجواره طنط ماتيلدا، كانت جميلة ضاحكة راضية بحالها، لم تكن ساخطة على حالها مثل الآن. شعر بارتخاء في عضلات جسده من فرط ما ناله من إرهاق، واستند برأسه على كرسي الصالون الكلاسيكي وابتسم. سافر بخياله إلى هناك، صلاة التراويح في المسجد القريب من مندرة عم سبيعي، سمع صوتًا عذبًا يتكلم عن جغرافية مصر، أدهشه ذلك الصوت الأنثوي المُثقف الذي يحيا هنا، في قلب الريف على الرغم من طبيعة بساطة المكان وأهله، قادته قدماه دون اِستئذان لنزول عدة درجات من السلم الآخر، ليجد نفسه أمام فصلين متجاورين في الدور الأرضي، وبجوارهما حديقة مترامية الأطراف تنتهي بنخلة معقوفة يتهادى تحتها جدول مياه، له صوت خرير ناعم، بعث له نسيمًا باردًا لمس وجهه بلطف، فأغمض عينيه وتنفس في راحة، ثمَّ فتحهما ووقف مشدوهًا أمام ذلك الجمال الذي يشرح درسًا عن عبقرية المكان ببساطة شديدة، تتناسب مع مستوى الحضور اللائي كن مزيجًا من الفتيات الصغيرات والسيدات ربات البيوت. خمن أنه أحد فصول محو الأمية التي تنتشر في المناطق الريفية، فتاة في أواخر العشرينات تقف أمام سبورة تقليدية تشرح الدرس. كانت جميلة بيضاء ممتلئة قليلًا، وجهها وضاح كالقمر وهي تحكي الدرس بعذوبة جعلته يستمع إليها دون ملل. تأمل تلك الأرفف الكبيرة التي رُص فوقها الكثير من الكتب. لا يتذكر يحيى آخر مرة قرأ فيها كتاب، لا بد أنها منذ سنوات طويلة، مد يده إلى محتويات المكتبة، وكأنه يلقي السلام على أصدقاء قدامى، هجرهم ولم يعد إليهم مجددًا. قرأ بعض عناوين الكتب على مهل، فجر الضمير لجيمس هنري بريستت، شخصية مصر للدكتور جمال حمدان، ماذا حدث للمصرين للدكتور جلال أمين، لمح رواية كان يعشقها فمد يده مبتسمًا في فرح وكأنه يصافح صديقًا قديمًا قائلًا:

- ياه ... رواية "بعد الغروب" لمحمد عبد الحليم عبد الله، كم أحببتك، لقد

قرأتك عشرات المرات، فهي تعبر عني، حال المُحب الذي يحيى بلا أمل. سمع صوتًا أنثويًّا جميلًا، يقول:

- أنا أيضًا أحب تلك الرواية جدًا فهي هادئة وناعمة. اِلتفت يحيى إليها في دهشة ليجدها تقف خلفه تمامًا وهي تشير إلى الرواية التي في يده. اِرتبك قليلًا ثمَّ قال لها:

- أنا أحبها أيضًا، لكنني لا أراها ناعمة، فهي تظهر الكثير من القسوة تجاه بطلها الذي حكم عليه الكاتب بالخروج من جنة من يُحب، اِبتسمت قائلة وهي تحك ذقنها، وتفكر فيما قال:

- نظرة نقدية لا بد من اِحترامها، يبدو أنك تعشق القراءة على الرغم من.... صمتت وهي تطلع إلى ملابسه، فابتسم في مرارٍ قائلًا:

- على الرغم من أن شكلي لا يوحي بذلك، صمت قليلًا، فشعرت بالحرج، حاولت أن تغير دفة الحديث فقالت بذكاء:

- أنت الضيف الذي وجدوه مصابًا في السيارة قبل الإفطار. مد يده بالسلام قائلًا في ود:

- أنا يحيى آدم عبد الله، ليسانس آداب، وأعمل الآن في شركة للحلويات والمقرمشات. بدت عشرات الأسئلة على وجهها، لكنها اِبتلعتها وغلفتها بابتسامة مهذبة ثمَّ قالت:

- أنا قمر السبيعي، أحمل ماجستير رياض الأطفال، وأعمل مُدرسة في المدرسة الابتدائية، الموجودة في أول القرية، وفي المساء أُدرس هُنا، في فصول محو الأمية في الجمعية الخيرية، التي أنشأناها أنا ووالدي. أشارت إلى المكتبة مرة أخرى قائلة:

- أود أن أريك مجموعة أخرى من الكتب القيمة التي على الأرفف هناك،عادت به مرة أخرى في رحلة الكتب وهو يشعر بأنه قد خرج من المستنقع الذي يعيش

فيه منذ مدة طويلة، ليسير في حديقة ذات أشجارٍ وارفة. أخرجه منها صوت نقرة خفيفة على المنضدة في بيت جرجس مقار حيث وضع أمامه ظرفًا متوسط الحجم وهو يقول مبتسمًا في خبثٍ:

- يبدو أنك ذهبت عند القمر مرة أخرى، اِبتسم يحيى في خجلٍ، فأشار له جرجس إلى اللفة البيضاء التي وضعها أمامه قائلًا:

- أولًا خُذ نقود العجز وسددها، ويا ليتك تبحث عن مهنة أُخرى فتلك الوظيفة التافهة لا تناسب شخصًا في نبوغك وتفوقك، ضحك يحيى في وهن قائلًا:

- من أين يا عم جرجس، أنت تعلم، ليس عندي من يخدمني في ذلك، اِبتسم جرجس في حرج قائلًا:

- سوف أكلم فادي مرة أخرى ووو.... ربت يحيى على ساقه في حنان.

- لا ياعم جرجس، لا تتعب نفسك معهم، أعلم أنَّه لا أحد يحبني هنا، أو حتَّى هناك في منزلي، لا يوجد سواك يا عم جرجس فأنت ظل أبي رحمه الله، دمعت عينا جرجس دمعًا وهو يقول:

- رحم الله أباك، كان رفيق عمري، هو، والمقدس ملاك صديقنا الثالث. كنا نخدم في السرية الطبية شمال الكونتيلا، وتمَّ حصارنا أكثر من مائة يوم، ولم نستسلم، كان أبوك رجلًا عظيمًا وبالتأكيد لم يكنْ يعجبه حالك الآن يا يحيى يجب أن تعود إلى نفسك وإلى رواياتك، عد وادرس مرة أخرى وتفوق كما تريد، جذب يحيى نفسًا من سيجارته قائلًا:

- لم يحن الأوان بعد يا عم جرجس. ربت جرجس على كتفه وهو ينظر في المرآة قائلًا:

- هيا بنا، الرجال ينتظروننا في مقهى دغموش. نجلس معهم قليلًا ثمَّ تكمل لي حكاية القمر، ووالدها الرجل الطيب اللذان مكثت عندهما اليومين الفائتين. سار

يحيى خلف جرجس بعدما دس النقود في جيبه، فوجداها تقف في الصالة واضعة يدها في وسطها في تحدٍ قائلة:

- أين أنت ذاهب يا جرجس؟ تجاهلها تمامًا، بينما مر يحيى بجواراها بهدوء من اِعتاد مثل هذا الأمر، بينما هي تقول:

- طبعًا سوف تسهر في السيدة زينب مع الهوامش والصياع مثل كل مرة. صفق الباب خلفه بعنف، وهبطا على سلالم البناية يتضاحكان من عقلها الذي خف، وهما يسمعان صوت ثرثرتها وهي تبتعد، ركبا السيارة الصندوق على عجل بينما ظهر التوتر قليلًا على وجه جرجس، فناوله يحيى سيجارة رفيعة أشعلها في شبق وتناول منها نفسًا طويلًا ثمَّ أخرجه في راحة، وأغمض عينيه في اِستمتاع قائلًا:

- يا سلاااام.... حتى السيجارة، حرمتها عليّ في المنزل يا أخي!!، أنا في سجن ولست في بيت زوجية اِبتسم يحيى في تعاطف قائلًا:

- معلش يا عم جرجس، لقد اِعتدنا هذا الأمر، وفي النهاية الست أُم فادي، ست طيبة ووقفت بجوارك كثيراً قال له جرجس في أسى:

- كان زمان يا بُني، هي الآن جُنت تمامًا، لقد تغيرت، صارت مادية جشعة، لا يملأ عينها سوى التُراب. قال له يحيى مؤيدًا كلامه:

- لقد صار هذا شيئًا عاديًّا يا عم جرجس، فكل الناس أصبحوا هكذا. رد جرجس:

- للأسف، هي تُدبر مؤامرة حقيرة هي وابنها فادي لهجرتي إلى أمريكا، وأنت تعلم أنني لا يُمكن أن أفعل ذلك. رد يحيى ببساطة بينما تجاوزت سيارته منطقة سور مجرى العيون، فبدأت عينا جرجس مقار في اللمعان، وهو يتطلع إلى القباب والمأذن من الشباك بعيون عاشق، قال له يحيى بحسم كأنه يفكر معه:

- إذًا أُرفض السفر، وابقى هنا، قال جرجس:

- يضغطون عليّ بحفيديتي ماجي، تعلم كم أعشقها. تنهد يحيى في أسى والدمعة تطفر من عينيه قائلًا:

- أعلم أن روحك فيها، قال جرجس معقبًا:

- أخشى أن يُجبروني على المكوث هناك، أو يمنعونني من العودة. ولذلك أنا أحاورهم بالحيلة. قال له يحيى في مرحٍ:

- دعك من هذا الآن، لقد اِتصلت برجب دغموش وجمعة وسمعان سائق سيارة الكنيسة، وباقي الرجال هناك، إنهم في اِنتظارك بفارغ الصبر، والقهوة والشيشة في اِنتظارك، وكل الأكل الذي تعشقه، صفق جرجس في سعادة قائلًا:

- أيوه كده، ملعون أبو الحياة التي تمنع الإنسان عن ما يعشق، ثمَّ خفض صوته وقال بجدية:

- ولكن قبل أي شيء، يجب أن نمر على الست والدتك لنطمئنها عليك، فلقد حادثتني تليفونيًّا وهي قلقٌة جدًا عليك، اِبتسم يحيى قائلًا وهو يلوح بيديه في عدم اِكتراث:

- قلقةٌ عليّ؟!، صدقني يا عم جرجس، لم يعد أحد يُعيرني اِهتمامًا من الأساس، إنها ترى أنني قد صرت عارًا عليهم، كلهم يتمنون موتي، بعد فسخ خطبة سمير من المحروسة اِبنتها وكأنني أنا المتسبب. نظر له جرجس معاتبًا، ثمَّ قال في عتاب:

- تنصب على خطيبها وتأخذ منه عشرة آلاف جنيه بحجة شراء، بضاعة تتاجران فيها ثمَّ تخبره أن البضاعة سرقت، ولا ترى أن هناك سببًا لفسخ الخطبة، تشرب الخمر وأنت تقود السيارة ويتم القبض عليك في كمين شرطة، ويعلم أهله بذلك، ولا تريد أن يخافوا على سمعة اِبنهم، ضحك يحيى في غضبٍ، مُحاولًا الدفاع عن نفسه قائلًا:

- أولًا لقد تمَّ النصب عليّ في هذه البضاعة ولم آخذ منها شيئًا، ومع ذلك رددت

له جزءًا كبير من المبلغ، أما بخصوص حادث الكمين فهذا شيء شخصي، هو اللي عيل خايب وابن أمه، بمجرد أن أمرته بترك بسمة فعل، ولم يقاتل بالقدر الكافي من أجلها. صمت جرجس غير مقتنع، لكنه قال:

- على أية حال، سوف نمر على والدتك أولًا، ثمَّ نكمل سهرتنا. صدقني يا يحيى، ناسك طيبون جدًا فلا تخسرهم، فأنا لا أعيش ولا أشعر بقيمتي كإنسان إلَّا وأنا بينكم، فحاول أن ترأب الصدع الذي بينك وبينهم.

هز يحيى رأسه في اِحترام قائلًا:

- حاضر يا عم جرجس فأنت مكانتك في قلوب أبناء الحي كله، أنت أبونا، ضحك ضحكة عالية قائلًا:

- أبوكم... الله يلعن.... والله بلاش. ضحك يحيى وصفقا بأيديهما وكأنهما صديقين من سنٍ واحد. كان جرجس يذوب عشقًا في القاهرة القديمة، فبادلته هي الأخرى العشق. أخذ يتطلع بشغف إلى القباب العالية، والنقوش الرائعة التي تُزين المساجد القديمة، فتح زجاج السيارة فسرى هواءً منعشًا معبقًا بسحر الحضارة وابتسامات الوجوه السمراء وروائح الأطعمة الجذابة، ملأ صدره بالهواء البارد وأغمض عينيه في اِنتشاء قائلًا:

- حد يسيب الحلاوة دي ويمشي يا بهايم؟

(10)

كانت هنا

جلست بسمة في السرير وبجوارها أمها، وجارتهم صباح التي كانت تطهر جرحًا في يد بسمة من أثر سقوطها على أرضية الشارع، بينما نادية تنظر لها في قلقٍ قائلة:

- ما الذي أصابك؟! ألا يكفيني القلق على شقيقك. ربتت صباح على يد الأم بحنانٍ قائلة:

- لا شيء حدث يا أمي، فبسمة كانت مرهقة من عمل يومين، يبدو أنها تريد أن ترجع طفلة في اِبتدائي، عندما كنت أقف لأنتظرها على الباب، خشية من العفريتة، أقصد روحية، خلاص يا ستي كل يوم سأنتظرك عندما تعودين من المستشفى مثل زمان. ربتت الأم بحنان على كتف صباح قائلة:

- أكرمك الله يا صباح، طوال عمرك وأنت تحملين همنا، قبلت صباح يدها قائلة:

- أنت مثل أمي يا حاجة نادية، وصديقة أمي رحمها الله، لا أحد لي سواكم. لا حظت بسمة علامات الإرهاق على وجهها فقالت لها.

- هل تشعرين بالألم في الكلية مرة أخرى؟، هزت رأسها نافية ثمَّ قالت:

- أشعر بألم في روحي، فشقيقك مختفي منذ يومين، وهاتفه مُغلق، ليته يظهر لقد تعبت من كل شيء. قامت صباح وصحبتها إلى غرفتها قائلة:

- اِجلسي في سريرك وسوف أفتح لك التلفاز، ولا ترهقي نفسك، وأنا سأبقى مع بسمة، قبل أن أنزل للعمل سألتها قائلة:

- طمنيني على الولد، كيف حاله الآن؟ قالت لها وهي تضعها في السرير وتدثرها بغطاء جيد.

- المسكين نائم، منذ عودته من المستشفى، دعواتك له بالشفاء، سأذهب بعد قليل لتزين عروس ولبيع البضاعة التي معي، وإن اِحتاج شيئًا أخبرته أن يطرق الباب عليكم. غمغمت الحاجة نادية، بالدعاء لها ولصغيرها. وعادت صباح إلى غرفة بسمة مرة أخرى، لتجدها ممدة على سريرها، وهي تتابع أحد المسلسلات الرمضانية في مللٍ. لم تكن تكترث كثيرًا بالتلفاز بحكم دراستها التي كانت تطلب قدرًا أكبر من المذاكرة، لكنها كانت شاردة تنظر في الفراغ عندما عادت صباح وأغلقت الباب، فقالت لها سريعًا:

- لقد رأيتها يا صباح، أقسم بالله أنني رأيتها هذه المرة. تنهدت صباح قائلة:

- أنا لا أدري، لله في خلقه شئون، لكنني أسمع حكاوي مريم هذه منذ أن كنت طفلة العب أمام منزل عمي!! ردت بسمة بسرعة:

- لكنني رأيتها هذه المرة، رأيت مريم ذاتها كانت تنظر لي بغضبٍ، ويدها... ارتعدت بسمة وهي تغمض عينيها ولم تكمل ما تقول، فاحتضنتها صباح ضاحكة.

- ياالله... كما كنت طفلة بالضبط، تلك السيرة تصيب جسدك كله بالقشعريرة. بدت بسمة فزعة وهي تغطي وجهها وتصفها بأنفاسٍ مُتقطعة:

- لقد كانت يدها... يدها أفرع شجرة قوية عتيقة، لم يكنْ لها كفان مثلنا. سقط كوب الينسون من يد صباح هذه المرة، وهي تستعيذ بالله من الشيطان،

سرحت بخيالها قليلًا بينما بسمة تصف مريم، لقد كان ذلك الوصف هو تقريبًا وصف أمها، الكف أفرع شجرة قوية والعيون حمراء كالدم، بسمة صغيرة السن نسبيًا، ولم تُقابل المرحومة أمها، فمن أين جاءت بذلك الوصف؟!، هل رأتها حقاً؟!، غمغمت برعبٍ وهي تسب روحية:

- الله يخرب بيتك يا روحية، وبيت اللي جابك، ستصيبين الحارة كلها بالجنون، ثمَّ عادت ووجهت كلامها لبسمة قائلة في رجاء:

- أرجوكِ يا ست البنات، لا تذكري هذا الموضع أبدًا، نريد أن نفرح بك ونزوجك، قالت لها بسمة في دهشة:

- وما علاقة ذلك بالزواج والمستقبل، مالت عليها هامسة في خوف، جعل بسمة ترتعد مرة أخرى وتفتح حدقتيها على آخرهما:

- روحية كانت جميلة جدًا، تعمل موظفة في جهة محترمة، ولها زوج وابن، لكن تلك الخرافات باتت تطاردها، حتَّى فقدت كل شيء، لم تتمكن من الخروج من تلك الدائرة اللعينة، فهرب زوجها وابنها، وفقدت كل شيء، ثمَّ هربت أنا من السكن في البيت الكبير، وابتعدت قليلًا حتَّى لا أصاب باللعنة مثلها، ولذلك اِبتعدي تمامًا ولا تنظري تجهاها، تأملتها بسمة، ثمَّ قالت في إعجاب:

- لكنك شجاعة يا صباح، تذهبين إليها وترعين شئونها. على الرغم من كل تلك المصاعب التي تواجهك. نظرت صباح، بعينٍ دامعة إلى السماء، ثمَّ قالت:

- هذا عهد بيني وبين الله، ووعدٌ قطعته لوالدي رحمه الله ألا أتخلى عنها أبدًا، فهي لحمي ودمي، وليسي لها غيري في تلك الحياة الصعبة. بكت صباح، فربتت بسمة على كتفها تواسيها، فأكملت صباح قولها:

- أنا لا أخافها، بل أنا أشفق عليها، فلطالما أغدقت بحنانها عليّ، وأطعمتني وكستني عندما كنت طفلة فقيرة لا أملك شيئًا، بينما كانت هي سيدة قويَّة،

جميلة تملك المال والولد، هل تدرين يا بسمة عندي يقين قوي بشيء. نظرت لها بسمة في تساؤل وهي تقدم لها كوب القهوة بعدما أنزلت الكنكة النُحاسية من فوق موقد السبيرتو الصغير فقالت صباح:

- أن الله يقف بجانبي ويسترني،وسوف يُغنيني من فضله يومًا۔ بسبب روحية وبسبب ذلك الولد المسكين.

- دمعت عينا بسمة، إلَّا إن صباح مسحت دموعها وهي تلتقط هاتفها الذي دق، أخذت ترد بطريقة ميكانيكة:

- أيوه حاضر، مايجراش، ثمَّ قالت في النهاية، خير ان شاء الله... خلاص، ثاني أيام العيد وعليكم خير، كل سنة وأنتم طيبون. أغلقت الهاتف ثمَّ نظرت إلى بسمة، بدأ الأسف واضحًا على وجهها، لكنها سرعان ما ابتسمت قائلة، وهي تفتح حقيبة كبيرة بها أدوات تجميل وبعض مستلزمات الزينة. قائلة:

- بما أن الحفل تأجل، هيا، سأزينك. اِبتسمت بسمة وهي تبعد قلم أحمر الشفاه الذي قربته منها صباح قائلة:

- أمي مريضة وشقيقي غائب، هل جننت يا صباح، ضحكت صباح قائلة:

- لو اِنتظرنا تحسن الظروف، لن نتذوق طعم الفرح أبدًا، والله سنتزين اليوم ولا أجمل عرائس. تبادلا الضحكات، وبدأت صباح في تزين بسمة، لكنها توقفت وكأنها تذكرت شيئًا هامًا، فقالت:

- عندي لك شيء هام، نسيت أن أخبرك به. كنت أسير اليوم بالقرب من ميدان النافورة وتخيلي من أوقفني. خفق قلبها بشدة. فمحل الانتيكات ملكهم يقع في الميدان.

- الدكتور سمير، تظاهرت بسمة بغضب قائلة:

- لا أريد أن أسمع ذلك الاسم مرة ثانية، هيا اِذهبي إلى اِبنك أريد أن أنام.

ضحكت صباح بميوعة قائلة

- ولا كأنني سمعت شيئًا، أنت تحبينه وأيضًا هو... لكن بسمة بدت حزينة وهي تبكي قائلة:

- هو باعني، إرضاءً لوالدته، لن أتزوج رجلًا ضعيفًا إلى هذا الحد. قالت لها صباح:

- لقد اِعترف إنه أخطأ وأنت التي.... لكنها صمتت عندما سمعت اِرتطام في صالة المنزل، لم تتوقف بسمة وهرولت إلى مصدر الصوت لتجد أمها وقد سقطت دون حراك.

(11)

أقدام غليظة

لم يتمكن حمادة الطلياني من النهوض، بعد كُل تلك الضربات المُتلاحقة من الرجال الذين باغتوه على سطح بنايته ثمَّ هربوا. ظل ممدًا أرضًا، يلهث بصعوبة وأضواء الإعلانات المُلونة تُطلق اِنعكاساتها على جسده، لم يكن يرى جيدًا من فرط الدماء التي سالت من أنفه ووجه، إلَّا أنه لمح شخصًا ضخم الجسد يقترب منه. شعر حمادة بوقع الأقدام القوية التي اِقتربت منه بثبات وداست عظام رقبته فكادت تسحقها. تألم حمادة بشدة، شعر أنه يموت تحت وطأتها، وكأنها قدم فيل إفريقي في عنفوانه. ندت منه صرخة مكتومة بينما صاحب القدم الغاضب يبدو في الضؤ الخافت عملاقًا أسطوريًا. حاول حمادة النهوض لكنه لم يتمكن من فرط قوة الرجل، وبالكاد خرج صوته واهنًا وهو يقول:

- ما... ماذا تريد مني؟ جاءه صوت الرجل غليظًا يحمل كُره العالم قائلًا:

- لماذا لم تقل لهم في البار أنك قاتل وخريج إصلاحية؟!، هل تذكر عليش الغبي ومنصور الأصفر؟. حاول حمادة الإمساك بساقه وضربه بالمطواة التي كانت في جيبه، إلَّا أنه سمع صوت تكات معدنية لسلاح ناري وصوت الرجل يقول:

- لا تتحرك وإلَّا تحول جسدك إلى مصفاة. كان حمادة منهكًا من فرط الضرب لكن عقله كان يعمل بكفاءة، فمن ذا الذي ينبش في تاريخه القديم، على الرغم

من محاولاته المُستميتة لطمسه. كان عليش الغبي هو أول جريمة حقيقية ارتكبها. سمع قدم الفيل يؤكد ذلك وكأنه يقرأ صحيفة اِتهامه:

- عليش البتناوني والذي كُنت تسمونه في المدرسة عليش الغبي، بالطبع نجح في اِستفزازك لدرجة كانت مطلوبة، لكنني لم أكن أتخيل شخصيًّا مدى وحشيتك في التعامل معه هل تتذكر؟. حاول حمادة معرفة الرجل، الذي يعرفه جيدًا ويعرف ماضيًا يجب أن ينتهي. يذكر حمادة ذلك العام الذي اِنضم له عليش في في نهاية المرحلة الإعدادية. صار حمادة الطلياني هو الشغل الشاغل لعليش، حيث كان ضخم الجسد قوي البنيان، يحلو له ضرب حمادة والتهكم عليه في كل الأوقات والتلميح عليه بالحسرة والحزن على اِبن الناس الذي اِضطرته ظروف أهله الفشلة في إلحاقه بمثل هذه المدرسة الحقيرة، هو الذي أطلق عليه ذلك الاسم الذي ظل يلازمه للأبد، اِسم "الطلياني" ليوصمه بأسرته العائدة من إيطالية وأمه الإيطالية، كان حمادة يحاول التأقلم مع سخافات عليش، حتَّى لا يقع في المشاكل، إلى أن زاد تنمر عليش وإهانته له أمام الجميع، إلى حدٍ لا يُحتمل، كانوا يعملون في المدرسة يوميًّا وكأنهم مسجونين، ينظفون المباني ويكنسون الحديقة ويرممون جزءًا من سطح المبنى المتهالك والمحدد بخشب ضعيف، حيث وأتت حمادة فكرة عظيمة للانتقام من عليش، فدفع إكرامية لبيومي العامل حتَّى يضعه على سطح البناية مع عليش الذي كان قويًّا كالحمار وماهرًا جدًا في حمل مقاطف التراب إلى المبنى القصير ذو الثلاثة أدوار. اِستمر عليش في إهانة حمادة بكل الوسائل الممكنة، وبقي حمادة هادئًا حتَّى حانت الفرصة أثناء اِنحناء عليش على السور الخشبي. كان ضعيف الجسد بالمقارنة بجسد عليش الضخم، إلَّا أن طاقة غضبه لم تكنْ لها حدود، فاندفع من خلفه بكل قوته، ودفعه من سور المبنى الخشبي المتهالك الذي أحدث قرقعة مدوية تبعها سقوط عليش من الدور الثالث على ارض الحديقة الترابية ،محدثاً عاصفة رهيبة من الغبار،وكأنه وحيد قرن ضخم،وقع في الأسر.

لم يتذكر حمادة باقي الأحداث؛ لأنه سقط على سطح البناية، يشم رائحة الغبار المحملة بالموت، منتشيًا وكأنه تخلص من حملٍ ثقيل، وهو يسمع صراخ الطلبة والمدرسين في الأسفل، وكأن الأمر لا يعينه. وبالتحقيق مع بيومي العامل، اِعترف على حمادة، أنه كان يتعمد دفع عليش من المبنى، وتحول الأمر إلى جريمة أدخلته دور الرعاية، بتهمة أحداث عاهة في عليش الذي بقي مشلولًا حتَّى مات. تم الحكم عليه بعدة سنوات قضاها في دور رعاية الأحداث، وتم تصنيفه حدثًا خطرًا على المجتمع. سمع الرجل الضخم يقول له:

- وبالطبع لم يكنْ حظ منصور الأصفر أفضل من حظ عليش الغبي، فعلى الأقل قدر لعليش الحياة. رد حمادة هذه المرة بعدما فك الرجل حصاره حول رقبته فقال له، ستدفع ثمن دهسك لرقبتي بالحذاء، أعدك أن تندم فلا أحد يفعل ذلك مع الطلياني ومع ذلك ما قيمة أن يحيى المرء وكأنه ميت. لقد كان حظ منصور الأصفر. أفضل حالًا من عليش الغبي، لقد أرحته من معاناته. مرت عليّ أيامٌ، كان الموت فيها رفاهية، كنت أطلبه لكنه لم يجيء فهي إرادة الله أن أحيا لأنتقم من كل هؤلاء الذين دمروني ومنهم منصور الأصفر. ضحك الرجل بعصبية قائلًا: منصور الأصفر قام بشيء مبتكر فلقد تتبع تاريخًا لا تحب أن تره، تاريخ يتعلق بشرف الست والدتك، كان حمادة رغم ثمالته يشعر بالخطر فقال له:

- أرجوك توقف الآن، ضحك بعصبية قائلًا:

- إنه وقت فتح الحسابات يا صديقي.

منصور ذلك الفتى الأصفر النحيف الذي تسلط عليك منذ اليوم الأول في الإصلاحية، كان يبدو كثعبان أصفر هارب من الجحيم، ذو قدرة رهيبة على تحريض الفتية ضدك، كان يكرهك بشدة، رد حمادة بعصبية والخمر زادت من فرط صراحته فقال بسرعة كان يجمع معلومات عني لا أعرف حتَّى الآن، كيف

حصل عليها، حتَّى جاء اليوم الذي أحضر صورة لأمي وهي ترقص في ذلك الملهى اللعين في إيطاليا، وقف في الفناء وهو يحمل صورًا كثيرة قائلًا:

- أحد أقاربي يعمل بحارًا على مركب شحن، لقد كان في إيطاليا الأسبوع الماضي، وزار أحد الملاهي الشهيرة هناك، لقد حكى لي عن جمال الفتيات هناك، كنت أستمع إليه وأعلم أنه يلقي ذلك الكلام القذر إلى مسامعي لكن الأقذر كان في اِنتظاري عندما بدأ يوزع الصور على الفتية وهو يقول:

- لكنه تعرف على راقصة خرافية الجسد اِسمها بولا، هي اِمرأة مجربة ومحنكة، قالت له إنها تحب مصر كثيرًا؛ لأنها عاشت في مصر سنواتٍ طويلة وتركت اِبنها هناك!! كنت قد فقدت القدرة على السمع، لم أعد أحتمل ضحكات الصبية وحركات أجسادهم الشبقة وهم يمررون صورتها على أجسادهم بطريقة مُقززة، بينما أنا أغمض عيني من الألم وأضرب رأسي في الحائط حتَّى سقطتُ مغشيًّا عليّ، إلَّا أنني أستيقظت في الليل هادئًا جدًا وسهرت أفكر وأنا أستمع لكل ما هو قذر في تلك الحياة. حتَّى جاء الحلاق في وقت الظهيرة، كان من عادتهم أنهم يحلقون شعورنا بالموس، ويرشون رؤوسنا بمادة كريهة الرائحة كل أسبوعين حتَّى لا تنتشر الحشرات في الدار، كان الحلاق يضع مجموعة من الأمواس الحادة في الكوب الذي أمامه بينما يجلس الفتى على كرسي قصير. تشاجرت أنا وعودة صديقي الصعيدي، أكثر من تعاطف معي في هذا الملجأ الحقير، شتمني عودة وركلني فسقطت على الحلاق وسقط كوب الأمواس أرضًا، أخذ يسبني ويلعنني، لكنني اِبتسمت له معتذرًا ثم أخذت دوري مرة أخرى أنا وعودة في الحلاقة وكأن شيئًا لم يكنْ. في المساء، نام الجميع بينما بقيت مستيقظًا. قام منصور إلى الحوض الجماعي الطويل، كان مُعدًا فيما سبق لسقاية خيول الباشا، حيث أن الملجأ كان قصرًا من قصور الإقطاعيين فيما مضى. بدأ يشرب كعادته، حتَّى يتمكن من التغلب

على جفاف جسده النتن، مررت خلفه في هدوء وهو يشرب كالحمار العطش، يغُب الماء من الصنبور بصوتٍ مقزز وانحنيت أشرب بجواره هادئًا وأنا أرتدي نفس بيجامته الزرقاء المصنوعة من الكستور، لاحظت إنه وقف، ونظر لي باحتقار، سمعته يقول بتشف:

- ولك نفس تشرب يا بن الراقصة، اِبتسمت له بهدوء ومررت بيدي على رقبته مرة واحدة سريعة وخاطفة كنت سعيدًا بالدماء التي اِنفجرت من عنقه القذر بغزارة أحالت البيجامة الزرقاء إلى لون أحمر دموي. لم أتذكر أي شيء بعدها.

تلفت حمادة يمينًا ويسارًا لكنه لم يجد أحدًا، لم يعرف إذا كان الرجل الذي سحق رقبته موجودًا أم أنه كان مجرد حلم.

(12)

على اِسم مصر

على اِسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء.

أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء.

باحبها وهي مالكة الأرض شرق وغرب.

وبحبها وهي مرميه جريحه حرب.

بحبها بعنف وبرقة على اِستحياء.

وأكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء.

أوقف يحيى سيارته الصندوق في المنطقة الفسيحة أمام مقهى دغموش ومعه جرجس مقار. مقهى دغموش هو أقدم مقهى في السيدة زينب، يرجع تاريخه لعلي دغموش، آخر فتوات المنطقة، قبل إلغاء الفتونة. مسح جرجس مقار الشارع بعينيه في راحة وهو يتأمل بُقعة عزيزة على قلبه، ألقى سلامًا على شجرة التوت العتيقة التي تُظلل ذلك الشاهد العجيب، الذي يقبع فوق تبة صغيرة تظللها الشجرة االكبيرة، إنه قبر صديقه المقدس ملاك، الشاب الذي قضى حياته عربيدًا في الدنيا، ثمَّ تحول بشكل مفاجئ إلى رجلٍ صالح، فأنفق حياته كلها في رعاية فقراء المنطقة، كان منزله خلف التبة تمامًا، إلَّا أنه تهدم قطعة قطعة ولم يتبق منه سوى

تلك الغرفة الصغيرة ببابها الخشبي العتيق، لقد أفنى حياته كلها في خدمة فقراء الرب، فلما مات رفضوا أن يتخلوا عنه ودفنوه بجوار منزله، وبالطبع كعادة أهل تلك المنطقة، أطلقوا آلاف الأساطير والحكايات عن المقدس ملاك، مثل أن قبره يُشع نورًا في الليالي الحالكة، أو أنه، لايرد جائعًا ولا طالب حاجة كما كان يفعل في الدنيا. أغلق يحيى سيارته واقترب مُتئبطًا ذراع جرجس الذي سار على مهل تحت وطأة جسده المحني ونوبة السعال التي هاجمته. اِقتربا من المقهى فسمعهم جرجس يتهامسون:

- أبو دراع وصل، كان يحزن قديمًا عندما يسمع ذلك اللقب الذي أطلقه عليه الناس في المنطقة، لكن آدم الطيب والد يحيى أفهمه، إنهم يعطون له لقبًا، ليميزونه عن العامة، البلد فيها مليون جرجس، لكن بها أبو دراع واحد، الناس هنا تعشق تخليد من تحب، عادة اِكتسبوها من أجدادهم سكان المنطقة الأصلين، الذين أقاموا هنا منذ ألف عام. اِبتسم وهو يرى وجوههم المُرحبة وسلاماتهم الحارة، هنا وجوه طيبة تحب الناس، وتقترب من بعضها دون اِكتراث ولا حسابات، لا تواصل اِجتماعي مزيف، ولا إنترنت أو شاشات زرقاء، لا زالت الأمهات تنادي على أطفالهن، الذين يلعبون بالكرة الشراب أمام المنازل كما ينادين على بعضهن من المنازل المجاورة، لقضاء حوائجهن، فهذه تستعير مقلاة من الأخرى والثانية تستعير طقم الصيني المذهب، حتَّى تظهر بمظهر جيد أمام عريس اِبنتها، الجميع هنا طبيعي وأصيل إلى أقصى درجة، إذا أحبوك سيحملونك على أعناقهم، ولو غضبوا منك، لعنوا أجدادك أمامك دون خجل، مشاعر خام نقية دون تكلف لا تحتاج إلَّا لبعض التهذيب، كحشائش الحدائق حتَّى تصبح مفيدة ورائعة، اِحتضنه رجب دغموش قائلًا في فرحة:

- أهلا يا عم جرجس، أوحشتنا والله، اِنتظرناك طويلًا. اِصطف المقهى لتحية

الرجل وكأنه رئيس دولة، ذلك الاستقبال الأسطوري الذي يعدونه له كُل مرة، تذكر زوجته ماتيلدا التي صارت تُلقي عليه تحية الصباح بشق الأنفس، ثُم تتركه بعد ذلك وحيدًا هائمًا، مابين البلكونة والتليفزيون، وتغرق هي في تليفونها الذي لا ينزل مطلقًا من فوق أذنها، حيث تنصب المكالمات على نميمة سيدات النادي المرفهات، ذوات العقل الفارغ أو مع اِبنها، المحروس فادي، تذكر كلمتها الخالدة:

- خليك أنت مع الخرافات والدراويش، شخص مثلك، وجه فقر لن يتقدم أبدًا.

نسى فظاظاتها مع ذلك الاستقبال الحافل الذي اِستقبله به أولاد المنطقة، جلس بينهم يُتابع عنتر الحاوي وحفيدته بدرية، وهما يقفان في الساحة يؤديان بعض الألعاب السحرية البدائية وحولهم دائرة بشرية كبيرة. وقف عنتر بجسده النحيل العاري الذي خطه الشقاء، وبعض آثار لعضلات كانت موجودة في زمن غابر بينما هو يقوم ببعض الحركات الخطرة، كأن يدخل خنجرًا حادًا في بطنه ويخرجه من الناحية الأُخرى، أو يبتلع كرة اللهب، ثم يلفظها مرةً أخرى وهي لم تزل مشتعلة، ويفصل ما بين كل لعبة والأخرى بجملة واحدة قصيرة مثل، "اسمع الصلاة على الحبيب مُحمد"، أو "صقفة للنبي، ياللي تحب النبي"، بينما حفيدته بدرية ذات الخمسة أعوام تقف مهوشة الشعر، ترتدي فستانًا غجريًّا مُلوناً وتمر على العامة، برقٍ أخضرٍ كبير، تُشخلل به طوال الوقت، حتَّى يضع لها الناس فيه بعض القروش فتجمعها وتضعها في الطبق على الأرض، ثمَّ تعود لتشخلل به مرة أخرى، بينما أبو دراع يتأملها بمزيج من الحب والإشفاق، فهي تقارب حفيدته في العمر. نظر إلى الحقيبة البلاستيكية التي أمامه واطمئن على محتوياتها، قبل أن يُنهي عنتر فقرته، لمحته بدرية الصغيرة وهو يُصفق لهما بعد ذلك العرض الناري، فاتسعت اِبتسامتها العذبة، تشعر بمدى حبه لها، ولذلك هرولت واحتضنته دون أن تفكر، فانحنى هو بقامته المقوسة، واحتضنها وقبل رأسها قائلًا في حنان بالغ:

-أهلًا أهلًا حبيبتي. قالت له بحب:

- لقد أوحشتني يا جدو. كان عنتر ينظر لهما دامعًا بينما رجال المقهى يتأملون ذلك المشهد الصادق بكثير من التأثر، حبٌ حقيقي نشأ بين تلك الصغيرة، وذلك الرجل السبعيني الحنون، وكأن كل منهما قد وجد ضالته في الآخر هو دومًا ما يرى فيها حفيدته ماجي، التي هاجرت إلى أمريكا بينما ترى فيه جدًا إضافيًّا ميسور الحال، يشتري لها أشياءً جميلة تحبها. حاول أبو دراع مرارًا أن يكفلها في منزله، إلَّا أن ماتيلدا وقفت له بالمرصاد واضطر إلى رعايتها حيث تعيش فقط. قال لها وهو يُخرج فستانًا جميلًا أزرق اللون به شرائط حمراء، كأنه فستان سندريلا، وبجواره علبة مبهجة، أخرج منها حذاءً جميلًا, هو يقول لها في حنان:

- أُنظري ماذا أحضرت لك يا حلوة، ملابس جديدة للعيد وحذاءً. قبلته الطفلة على خده قائلة:

- أنا أحبك يا جدو، فضحك الجميع، ثم عادوا يتسامرون حول المنضدة الكبيرة التي أعدها دغموش، بمجرد وصول أبو دراع، وكأنها أحد موائد الرحمن المُنتشرة في الحي بينما الشيخ جابر بائع الفول يعد أطباق الفول بالزيت الحار للجميع، الذين اِنهمكوا في مناولة بعضهم، أرغفة الخبز، وأطباق المخلل، وهم يتبادلون النكات، ويضحكون على النوادر التي حدثت لهم في يومهم، فهذا كاد يطلق زوجته لأنها أحرقت الكنافة بعد الإفطار، وهذا ضحكت عليه مندوبة مبيعات حسناء، وباعت له، بعض المنظفات الرخيصة، داخل عبوات الشامبو الفاخرة، والثالث ذهب لخطبة فتاة على زوجته، فانتظرته هي وأشقائها داخل منزل العروسة بعدما كمموا جميع من بالمنزل وانهالوا عليه ضربًا، تأديبًا له على فعلته الشنعاء، كانوا يضحكون ويطلقون النكات البذيئة أحيانًا دون خجل، بينما جرجس يشعر بالانتشاء وهو يأكل بتلذذ بين الناس الذين يراهم حقيقين دون زيفٍ أو رتوش.

اِنتهوا من الطعام، وجلسوا يشربون الشاي الثقيل ويدخنون الشيشة في استمتاع، سأله جابر في عتاب أخوي:

- ما الذي أخرك علينا هذه المرة، نحن في اِشتياقٍ لحكاياتك. اِبتسم جرجس في حزن، ثمَّ قال بعد تنهيدةٍ طويلة:

- والله يا جابر صارت عندي مشكلةٌ كبيرة، فزوجتي وابني يريدون مني الهجرة إلى أمريكا، حيث الحياة المريحة كما يزعمون، وأنت تعلم مدى اِرتباطي بالعيش هنا، ومع ذلك فأنا أيضًا مُرتبط جدًا بحفيدتي ماجي، وأريد أن أعيش معها، الرؤية اِختلت عندي، لا أتمكن من تحديد ما أريده بالضبط، ثمَّ قال وهو يطلق دخانًا طويلًا، محملًا بالهموم التي في صدره قائلًا:

- أخشى أن تحرموا من تلك القصص إلى الأبد، لو أنا وافقت على الهجرة إلى أمريكا. لكن عوض االله، المنجد العربي، قال له:

- لن تستطيع يا عم جرجس، صدقني لن تستطيع، يحترم جرجس رأي ذلك الرجل المثقف المكافح، فلقد تخرج من المعهد الفني، وفضل أن يكمل مشواره داخل مهنة والده، كما أنه قارئ نهم للكتب، يعلم تقريبًا ما يريد قوله لكنه سأله:

- لماذا يا عوض تقول مثل هذا الكلام، أجابه عوض بتلقائية:

- لأنك من هنا، أنت معجون مع هذه الأرض، أنت لا تُشبه أهلك الذين يعيشون في القصور والفيلات، لا تشبه أهل مصر الجديدة ومدينة نصر. أنت مثل السمكة يا عم جرجس لو خرجت من الماء تموت، أنت حكواتي، تحب الحكايات ودراستك للتاريخ عمقت ذلك الإحساس في داخلك، هنا أصل الحكايات ومهد التاريخ، اِبتسم جرجس بفخر بينما قال رجب دغموش:

- نعم، عوض يقول الحقيقة، أنت لا تشبه هؤلاء البهوات الذين رأيناهم في الكنيسة يوم عزاء شقيقك، أنت تشبهنا نحن، اِبن بلد مثلنا، اِترك يا عم جرجس

مدينة نصر المزدحمة هذه، وتعالى وعش معنا هنا، ونحن سنضعك في أعيننا، ضحك جرجس مقار قائلًا:

- لكن هنا أيضًا زحمة يا رجب، فما الفرق، رد عوض قائلًا:

- يا عم جرجس، مجد سيدك، هنا ونس ودفئ، ستكون سعيدًا هنا أكثر من أمريكا، أعرف أن حالتهم جيدة ، فشوارعهم أنظف من هنا، لكنك ستسير فيها وحيدًا، إن سقطت أو مرضت فلا أحد سيسعفك، فالكل ماضٍ في طريقه، ويحقق حلمه، حتَّى وإن كان فوق جثث الناس، البيوت جميلة وبها أنظمة حديثة وتدفئة، لكن ليس بها دفء، أما هنا... هنا القلوب عند بعضها. أعجبته الكلمة فهز رأسه وهو يكررها ببطء وكأنه يتذكر شيئًا ما وهو يهمس:

- هنا القلوب عند بعضها. خرج عنتر الحاوي عن صمته وقال له وهو يشير إلى حفيدته:

- نحن عشقنا الحكايات على يدك، ابن طولون، وعلي الزيبق، وقطز، وأبو سيفين، والعذراء، والسيدة زينب، أرجوك لا تتركنا فلقد تعلمنا نحن وأولادنا الكثير. رد جرجس مقار بسخرية أولاد البلد قائلًا:

- ما عندك الزفت النت يا عنتر، تقدر تقرأ كل الحكايات ولا الحوجة لجرجس. ضحك الجميع. بينما رد جابر مبتسمًا:

- ياعمي نحن غلابة، لا نعرف نت ولا دياولو، نحن ناس فقراء أرزقية، دائمًا ما نستنير من نور أهل العلم نحبهم ونسير في ركابهم. اِبتسم جرجس اِبتسامة رضا وهو يرتشف رشفة طويلة من كوب الشاي بالنعناع الذي أمامه، يشعر بقيمته الحقيقية فهو بمثابة صندوق الدنيا بالنسبة لهم هم يستمتعون بمعيته أيما اِستمتاع. تذكر اِبنه فادي وذلك الجهاز العقيم الذى أرسله تعويضًا عن عدم

نزوله لرؤيتهم، فابتسم في ألم، ثمَّ اِعتدل في مجلسه، وتناول نفسًا عميقًا من نارجيلته ثمَّ قال لهم:

في المرة السابقة توقفنا عن قصة من؟ ردوا جميعًا كالأطفال:

- قصة اِبن طولون. ففكر جرجس قليلًا ثمَّ قال:

سأحكي لكم اليوم واحدة من نوادر ابن طولون، وكما قلنا في مراتٍ عديدة أن أحمد بن طولون، كان أميرًا على الشام ومصر في عهد الخليفة العباسي، المأمون. عرف أنه مُتقلب المزاج، يحمل في قلبه الخير والشر في آنٍ واحد، فقد كان يحب الخير وينفق على الفقراء والمساكين ويبني المساجد والمستشفيات ويعطي العلماء وطلاب العلم ويكثر من الصدقات، وينظر في مظالم الناس، ومع ذلك فقد كان حاد الطبع والمزاج ظالمًا، إذا غضب، طاش سهمه في كل اِتجاه. ولما اِشتد ظلمه وبطشه شكاه الناس إلى أبي الحسن أحمد بن بنان، الذي كان لا يخشى في الله لومة لائم، فسارع إليه ودخل قصره، ووقف بين يديه و جلساؤه من حوله وصرخ في وجهه (اِتق الله في الرعية يا بن طولون، فإنك مسؤولٌ عنهم أمام رب العزة "يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)" واعلم أن من غش رعيته فإنه لم يشتم رائحة الجنة).

ساد في القصر صمتٌ رهيب، ولم يصدق اِبن طولون والحاضرون ما سمعوه ورأوه، فكيف يجرؤ الرجل، على التحدث بمثل هذا القول؟ واتجهت أنظارهم نحو الأمير لتنظر ماذا يصنع؟ وماذا يصدر عنه من قول أو فعل، وقد أذهلتهم المفاجأة جميعًا، وانتفض اِبن طولون غضبًا وأمر حراسه بحبس اِبن بنان وبسرعة اِنقض الحراس عليه واقتادوه إلى السجن، وجلس اِبن طولون ساهرًا يفكر ماذا يفعل مع اِبن بنان ،وهو العالم الجليل ذو المكانة البارزة، فقرر أن يحضره مرة أخرى إلى مجلسه ليستعتبه فقال له:

- يا ابن بنان، كيف جرؤت عليّ، وفعلت ما فعلت أمام الناس؟ ولكن لا بأس، سأعفوا عنك إن اِعتذرت أمامهم غدًا فقال أبو الحسن اِبن بنان لابن طولون بهدوء وثقة:

– يا أمير، أعزك الله، أنا لم أقترف ذنبًا، وإنما كنت ناصحًا لك.

وهنا جُن جنون اِبن طولون، وأمر الحُراس أن يقتادوا اِبن بنان مرة أخرى إلى السجن، ويجوعوا أسدًا شرسًا، ثلاثة أيامٍ كاملة، ثمَّ يدخلونه القفص مع اِبن بنان حتَّى يأكله ويتخلص منه، لكن اِبن بنان رد عليه بتحدٍ قائلًا، أن الأعمار بيد الله، وأنت عبد من عباد الله لا تستطيع أن تقدم عمري أو تأخره لحظة واحدة. فحمل الحراس اِبن بنان إلى السجن مرة أخرى.

وكان اِبن طولون مغرمًا بتربية الأُسُود، فجاء الحراس في اليوم الذي حدده اِبن طولون له، ووضع ابن بنان في ساحة عامة، ثمَّ جيء بالأسد وهو في قفصه وكان الشيخ يصلي ولم ينتبه للأسد، ففتحوا باب القفص، ليخرج الأسد، فلا يرى أمامه إلَّا ابن بنان فيلتهمه، فتمطى ذلك الأسد وبدأت عظامه تُقعقع وانطلق مزمجرًا كالرعد، فلما رأى ابن بنان توقف عن الركض، ثمَّ مشى هادئًا نحو الشيخ وشمه واحتك به دون أن يمسه بأذى.

فسبحان من بيده مقادير كل شيء، لقد ذهل الحاضرون من صنيع هذا الأسد، ومن عدم خوف ابن بنان،وكان ابن طولون أشد ذهولًا منهم، عند ذلك صاح اِبن طولون بالحراس:

أعيدوا الأسد إلى قفصه، وهاتوا أبا الحسن إلى هنا.

فقال الأمير اِبن طولون لابن بنان في رجاء:

- يا أبا الحسن، قل بربك ما الذي كان بقلبك؟ وبما ذا كنت تفكر؟

قال أبو الحسن اِبن بنان، لم يكنْ عليّ بأس فقد كنت أقرأ قوله تعالى: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)) ، وكنت أفكر بلعاب الأسد: هل هو طاهر أم نجس؟

عند ذلك قام الأمير إلى أبي الحسن و قبل رأسه وطلب منه العفو وأطلق سراحه.

كبر الجميع وأخذوا يصفقون في سعادة، ويلقون كلمات الاستحسان على جرجس.

(13)

العهد

لم يكنْ يحيى يستمع لحكاوي أبو دراع، لقد كان شاردًا تمامًا وهو جالسٌ على كُرسيه الخيزران تحت الشجرة الكبيرة، اِبتسم جرجس وهو يلقي التحية على الرجال المجتمعين على المنضدة الطويلة جدًا وجلس على الكرسي في اِنتشاء بجوار يحيى الذي اِبتسم له قائلًا:

- فتح الله عليك ياعم جرجس، أنت موهوب جدًا، وحكاء عظيم. ضحك جرجس قائلًا:

- يا أخي، أنت لم تسمع كلمة من الحكاية، لقد كنت شاردًا تمامًا، ما بك يا يحيى؟! لا يُعقل أن تكون قد أحببت تلك الفتاة من يومين قضيتهما في ضيافة والدها، تنهد يحي بصدقٍ قائلًا:

- لقد أحببتها بالفعل، لكن لن أذهب مرة أخرى إلى هناك قال له جرجس في حيرة:

- ولماذا ما دمت تشعر بالحب، رد يحيى بهدوء:

لأنني أشعر بضآلتي أمامهم، فكيف لي أن أقترب، لقد كنت مخمورًا ومُثخنًا بالجراح عندما نقلوني إلى المنزل، وشعرت هي بسوء حالي وضياعي، كانت تعاملني كما تعامل الأيتام والمشردين في ملجأها. اِبتسم جرجس، قائلًا في دهشة:

- وهل تمتلك ملجأً؟

- ليس بالضبط، لكنه شيء أشبه بالجمعية الخيرية، التي تساعد المحتاجين وتشغل وتعلم فتيات القرية ممن فاتهن التعليم، ضحك جرجس غامزًا:

- يبدو أنك أصبحت تلميذًا في أحد تلك الفصول، فهذه الأستاذة سوف تؤدبك من جديد، ضحك يحيى على ضحكات جرجس قائلًا في ندم:

- الحقيقة أنني أتمنى ذلك، لكن لا أعتقد أني سأراها مرة أخرى. رد جرجس بجدية:

- لماذا؟ قال يحيى:

- لأن عهدًا ضمنيًّا سرى بيني وبينها ألَّا أعود إليهم مرة أخرى كما أنا. قطب جرجس حاجبيه وأطلق سحابة دخان من نار جيلته ثمَّ قال له وهو ينظر في عينيه:

- آه لقد فهمت لكن ماذا حدث؟ اِنتظر أن أسمع! اِبتسم يحيى آسفًا وهو يرفع رأسه إلى السماء قائلًا:

- كنت أسمع دومًا أن الأحداث القبيحة التي تحدث لنا، تحمل في طياتها منح عظيمة، لكنني لم أصدق تلك المقولة أبدًا، لم أتخيل أنني سوف أرى كل ذلك السلام النفسي على بعد عدة كيلو مترات من منزل المجرم الذي كاد يفتك بي هو وعصابته. تحدثت إليها كثيرًا عن الكُتب والكتابة، ووجدت في عينيها كل أسئلة العالم، التي تتهمني بالتخاذل، لماذ تخليت عن حلمك يا يحيى؟ ولماذا صرت هكذا؟ أي شيطان ذلك الذي أطاح بك إلى ذلك العالم السفلي؟ فأنت الآن في الدرك الأسفل من الحياة، تمهيدًا للدرك الأسفل من النار. كنت أقف متألمًا وأنا أرى قمر، تلك الفتاة الجميلة اليانعة وهي تقضي وقتها بين الفتيات والأيتام، أما والدها عم سبيعي ذلك الرجل الطيب، الذي لم يطلب مني أن أذهب للصلاة بحجة أني

مريض، كنت أمرح وأتخيل أنني قد أتقنت دور المريض، الفاقد للوعي، أرقبه وهو يسجد على حصيرته النظيفة هناك في آخر الحديقة تحت النخلة المعقوفة، وأنا في حيرةٍ من أمري، كنت أتضائل مع كل لفتة في ذلك البيت، يومان قضيتهما في منطقة أخرى من العالم، وكأنني وطأت بقدمي حافة الجنة، كنت أظنني ممثل بارع وهم سذج لم يدركوا ما كنت فيه إلى أن حان موعد الرحيل، فوجدت قمر تعطيني كل الكتب التي تطلعت إليها بشغف، أعطتني إياها في خجلٍ قائلة:

- سأعيرك تلك الكتب على شرط!، نظرت لها مندهشًا لكنها قالت لي بلهجةٍ حازمة.

- أن تردها وأنت يحيى، يحيى الذي حدثتني عنه؟! فكرت قليلًا لكنني أخذت الكتب وأومأت برأسي دون أن أتكلم، بحثت بعيني قليلًا، فقالت لي:

- أنت تعلم مكانه، ستجده يصلي تحت النخلة المعقوفة في آخر الحديقة، وقفت أتأمل حركات جسده المتناغمة مع تمتمات فمه الذي لا يتوقف، وكأنه يعمل ببطارية مُتصلة بقلبه، كان الجو صافيًا والقمر يسطع في سماء الحديقة، لم أتخيل أن أرى ذلك النور المنبعث من المنطقة لدرجة أنني بحثت عن ذلك الكشاف المبهر الذي يضيء المكان، لكن ويا للغرابة لم أجد شيئًا!! إنه مجرد ضوء صغير ينبعث من كلوب كيروسين قديم، لا يمكن له إصدار ذلك الضوء المُبهر، اِفترشت الأرض مطئطئ الرأس كتلميذٍ خائب فشل في الامتحان. كدت أبكي لولا تلك اليد الحانية التي ربتت على كتفي، ثمَّ اِمتدت بثلاث تمراتٍ كبيرة، نظرت له فوجدته باسمًا وهو يقول:

- كلُها يا بني وهون عليك، فيها شفائك باذن الله. نظرت له بإنكار قائلًا:

- أنا لست مريضًا، ولكن المشاجرة هي السبب، فابتسم قائلًا لي بعذوبة:

- أمراض القلوب أشد يا بني، أمراض القلوب أشد. أدعو لي يا بني أدعو لي، ضحكت قائلًا في سخرية:

- من يدعو لمن، أنت الذي لا تبرح مصلاك إلَّا لقضاء حوائج الفقراء ثمَّ تعود، أم أنا الذي... صمتت لم أعرف بماذا أقول له إلا أن جسدي قد اِقشعر عندما قال في تذلل وهو ينظر للسماء:

- أنا مذنب يا بني، أنا عاصي، اللهم أحيني مسكينً وتوفني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين. ثمَّ أمسك يدي وهو يشير إلى السجادة الممتدة تحت النخلة قائلًا:

- سأنتظرك هنا، أعلم أنك سوف تأتي لتصلي معي يومًا. وأن كل ما يحدث لك الآن هو عارض، سوف يزول، أنا واثقٌ من ذلك. كانت الدموع قد اِنهمرت من يحيى بينما جلس جرجس بجواره يجفف دموعه قائلًا:

- ذلك الرجل كان يعلم أنك كنت مخمورًا في نهار رمضان، هز يحيى رأسه قائلًا:

- وهذا ما يكاد يعصف برأسي، من أين أتى بكل هذا القدر من الرحمة. اِبتسم جرجس له ونظر إلى السماء في حب ثمَّ وقف وتحرك بخطى ثابتة تجاه قبر المقدس ملاك الراقد تحت شجرة التوت العتيقة التي تحط عليها اليمامات في سلام وصرخ بقوة وهو يرفع رأسه إلى أعلى وكأنه أحد مجاذيب السيدة:

- إنه الحُب يا يحيى، إنه الحب، الذي ما أن تتذوقه، حتَّى تذيقه كل من حولك، إنه الحب الإلهي، الذي يجعلك كسحابة ممطرة تمطر خيرًا وسلامًا على العالمين، ثمَّ أشار إلى القبر المرتفع قليلًا على التبة قائلًا، لقد كان ملاك هكذا، سلامٌ عليك يا مُقدس ملاك، سلامٌ عليك يا صديقي. غمغم جابر سريعًا:

تعيش وتفتكر يا عم جرجس، في حياتي لم أعرف إخلاصًا كهذا قال له جرجس راجيًا:

-أمانة عليك يا جابر، إن مت تدفنوني هنا، في هذه الأرض، بجوار المقدس ملاك. أجابه جابر، بشهامة:

- حاضر يا عم جرجس أعدك، لكنك وعدتنا أن تحكى قصة المقدس ملاك صديقك الذي لا نعرفه نحن.

أشار إلى القبر قائلًا: قليلٌ منكم من يعلم قصة ذلك القبر الغريب، قد يكون آبائكم يعرفونه بأنه ملاك مضمد الجراح. اِقترب يحيى وجابر وباقي الرجال والتفوا حول جرجس مقار واستعدوا لسماع قصة غريبة أخرى.

(14)

ممر الحياة

راقبته بعينٍ نصف مفتوحة، وهو ينظر إليها نظرات متحجرة من وراء الحاجز الزجاجي لغرفة الغسيل الكلوي، كانت تحدثه بصوتٍ خافت، بينما هي نائمة وجسدها الضعيف موصلٌ بالكثير من الأنابيب:

سامحك الله يا يحيى، صرت تظهر فقط عندما يقولون لك أن أمك تموت في المستشفى، تظل ترقبني من بعيد وكأنك لا ترغب في النظر إلى وجهي، اِعترف أنني أنا الأخرى قد صرت أتحاشاك، فذلك الوجه الشقي النحيل الذي خرطه الشقاء ونحتته الهموم، لا يذكرني بابني يحيى، الرقيق المهذب الذي كان يحب عزف البيانو في الجيزيويت ويكتب الشعر والأدب. لا يوجد أُم تكره اِبنها لكنني صرت مغتمة وأنا أرى حالك وما وصلت إليه، ثلاثة أيام وأنا أبحث عنك، وها أنت تعود بوجه دامٍ وأنف مكسورة من إثر مشاجرة مع أحد الأشقياء، لتشهد نهايتي على ذلك الجهاز اللعين الذي يُذكرني بالغسالة الفول أوتوماتك الصغيرة، التي كنت أغسل لكم فيه الثياب، لقد سئمت ذلك المستشفى الحقير، تلك الأرائك الخشبية المدهونة بالأبيض، وكأنها نعوش بيضاء خالية من الحياة، أن الجلوس عليها لفتراتٍ طويلة، حتمًا سيصيبك بشتى أنواع الأمراض، ذلك الممر الأبيض المخيف ذو البلاطات القذرة، التي كانت بيضاء يومًا ما، لقد سئمت عدها من فرط جلوسي

فيه. تذكرت كلمة الأستاذ وجدي الفيلسوف العجوز، الذي توفاه الله هنا منذ عام، عندما أطلق عليه ممر الدُنيا، لأن له بابان أحدهما باب الدخول المُطل على الحديقة الغناء ذات الملاعب وملاهي الأطفال البسيطة وينتهى بباب الخروج المُلاصق للمشرحة، حيث تنتظر عربات نقل الموتى والنساء متشحات بالسواد، وفي المنتصف ستجد العيادة والكافيتيريا ووحدة الغسيل الكلوي!!! إنه بالفعل ممر الدُنيا. سئمت تلك الوجوه الشاحبة مثلها، وقد أنهكها المرض تمامًا، صارت تعرفهم فردًا فردًا، تومئ لهن بوهن فيردون عليها بابتسامات شاحبة، أكثر وهنًا، عندما يتأخر أحدٌ منهم عدة جلسات، تسأل عنه، وهي تعرف الإجابة مسبقًا، أين فلان؟ فيردون عليها ردًا أوتوماتيكيًا متبوعًا بحوقلة ومصمصة شفاه، الدوام لله!!، يعرفون أنها محطات، وأنهم يقفون في طابور لا ينتهي من الموتى، ولذلك فقد تعاملوا مع الحياة بأمرٍ واقع، يضحكون، ويطلقون النكات، وأحيانًا يتبادلون بعض الأطعمة والمشروبات الخفيفة المسموح بها. راقبت بسمة وهي تهرول في طرقات المستشفى وكأنها مملكتها الخاصة بينما يجلس يحيى على الأريكة البيضاء في لامبالاة وهو يتحدث في هاتفه المحمول، حركات عصبية خرجت من يديه، دلت على أن المكالمة لا تسير على ما يرام، طفرت دمعة من عينيها، وهي تنقل بصرها بين اِبنها وابنتها ثمَّ أغمضت عينها في ألم وهي تقول:

- مسكينةٌ أنتِ يا بنتي، حظك في تلك الحياة قليل، رغم جمالك وخصالك الحميدة مع الجميع، أعلم أن تلك التجربة المؤلمة التي قد مررت بها في بداية حياتك قد صنعت بينك وبين الرجال حاجزًا نفسيًّا مُرتفعًا، لكننا جميعًا أذنبنا في حقك، أنت الضحية يا بنتي، فلقد أثقلت عليك بمرضي وبرحلات العلاج الأسبوعية، تقفين أقوى من الرجال، بعد سفر شقيقك ماجد إلى البحر للعمل على منصة بترول عائمة، أما الآخر فلا طائل منه تمامًا، بل موته أحسن، أخرجت منديلًا مسحت به دموعها وهي ترى بسمة تُقدم العون لسيدة مريضة، فترفع الأُخرى يدها إلى

السماء وتدعو لها. ثمَّ حدثت يحيى وهي ترقبه يكمل شجاره الهاتفي:

- لماذا فعلت بنا هذا يا يحيى فلقد ربيتك أنا ووالدك على كل خير، أعلم أنك كنت تحبه كثيرًا، لكن موته لم يكنْ مبررًا أن تضيع لقد كان يحبك جدًا، يريد أن يراك رجلًا، رحمه الله لقد كان رجلًا صالحًا، أتى به الرجال من المسجد بعد صلاة الفجر، وقالو أنه سقط أرضًا وهو يسبح بمسبحته الخشبية الزرقاء، كان يعتز بها كثيرًا، وآخر جملة قالها وهو يعطيها لي قبل الموت. أعطيها ليحيى لعل الله يهديه، لكن حتَّى الآن لا يمكنني تقديمها لك!! فهو لن يشعر بقيمتها، وأخشى أن تضيعها كما ضيعت كُل شيء حتَّى نفسك. شعرت بثقل في رأسها فاستندت على المسند الجلدي لمحت يحيى وهو يهرول خارج المستشفى فأغمضت عينها في ألم.

(15)

المصنع

منطقة السبتية - مصنع فرفشة للحلويات والمقرمشات:

لم يبقَ سوى ضوء مصباح خافت في الطابق الثاني بعد رحيل العمال، ومجموعة من السيارات الصندوق، اِصطفت أمام ساحة الانتظار الكبيرة. وقف حمادة الطلياني يتأمل الشارع في حذر من زجاج نافذة مكتبه العتيق، بعدما هدأت حركته تمامًا، أشعل سيجارته عدة مرات من قداحته، ثمَّ أغلق الشباك بعدما سمع صوت سيارة مرسيدس تتحرك بخفة لتقف بجوار سيارات المصنع، هبط منها رجلٌ أصلع تبدو عليه علامات الثراء، ومعه ثلاثة رجال أشداء، يرتدون سترات بدت منتفخة، وكأنهم على اِستعداد للقتال في أي وقت، نبح أحد كلاب الشوارع عليهم، لكنه فر فزعًا عندما ركله أحد الرجال الأشداء في بطنه، صعدوا بسرعة على السُلم المعدني المؤدي إلى الطابق الثاني بينما بقى رجلان بالأسفل. وقف حمادة يرحب بالرجل الأصلع الذي خلع معطفه سريعًا وهو يتحدث. بلهجة لبنانية:

- أهلين مسيو حمادة، أوحشتنا كثيراً. اِبتسم حمادة، وهو يقول:

- تقصد نقودي التي أوحشتكم يا جاك، ضحك جاك ببرود قائلًا:

- تكسب من وراءنا كثيراً، ومع ذلك لا تحمد الله. صمت حمادة وهو يردد:

- الله، لا تُقحم الله فيما نفعله، وأعطني الحقيبة، يجب توصيل الطلبية لميلص قبيل الظهر. نظر له جاك ببرود قائلًا:

- آسف مسيو حمادة، أين باقي المبلغ؟. نظر له حمادة ببرود مماثل ثمَّ اِستدار وفتح خزانته المعدنية الخضراء وأخرج منها رزمًا من النقود، وهو يعطيها لجاك الذي شرع في عدها، حتَّى اِنتهى حمادة قائلًا:

- تلك هي الدفعة الثانية هذا الشهر نصف مليون جنيه، أخرج الرجل الحقيبة وقدمها له، فتحها حمادة بسرعة وهو يعد محتوياتها من الأكياس البيضاء الصغيرة، كيس صغير في حجم أصبع اليد، اِبتسم جاك قائلًا:

- ألف كيس كما طلبت أغلق حمادة الحقيبة سريعًا وهو ينادي على مليكة التي ظهرت ترتدي سالوبيتًا من الجينز وتعقص شعرها بمشبك كبير وكأنها ترسم، تأمل جاك صدرها بفجاجة وهو يقول:

- كيف حالك يا مدموازيل مليكة، أحسد مسيو حمادة على أن ذراعه اليمنى بكل هذا الجمال، اِبتسمت مليكة ببرود وهي تقول له بفظاظة:

- وأنا أحسد زوجتك على صبرها يا جاك، كيف يمكنها التعامل مع ثقل ظلك، اِمتقع وجه جاك وهو ينفث دخانه ويضحك في برود قائلًا:

- سليطة اللسان كما أنتِ لكن لا بأس، مضطر أن أغادر، ولكن سوف أعود بعد عدة أيام.

اِقترب منه حمادة قائلًا:

- أحتاج أن نضاعف الكمية، فنحن على أعتاب عيد، اِبتسم جاك قائلًا بلا مبالاة:

- أعلم هذا ولذلك سوف يعمل البارون حسابك. هزَّ حمادة رأسه على مضد

بينما اِنسحب الرجل سريعًا وتابع حمادة يغادر هو ورجاله، بينما هرولت مليكة وحمادة إلى المخزن حيث وقفت أزهار وثلاثة رجال وهم يمسكون سكاكين رفيعة حادة تشبه قواطع الورق وأخذوا يفتحون الصناديق الكرتونية الكبيرة ويفرغون علب الكعك الصغيرة بسرعة ويدسون الأكياس البيضاء الصغيرة التي أحضرها جاك داخل كيس السكر الرديء بسرعة كبيرة!!، كان حمادة يشرف عليهم كقائد محنك بينما كانت مليكة تحمل مسدسًا أصفرًا كبير الحجم، تمرره فوق الكراتين لتغلقها من جديد، ثمَّ تضع علامة حمراء صغيرة فوق كل كرتونة، وقفوا جميعًا يلهثون بعدما اِبتسم حمادة اليهم وهو ينظر إليهم نظرة رضا قائلًا:

- كعكة واحدة بالسكر، تعطي لحياتك طعمًا. ضحك الجميع في سخرية بينما سمعوا صوتًا لسيارة تقترب من المصنع فأطفأوا الأنوار واختبأوا.

جلس حمادة على مكتبه يدخن في هدوء وهو يتابع يحيى يركن السيارة ويصعد على السلم المعدني. دلف إلى الغرفة بينما كان حمادة يجلس مسترخيًّا واضعًا أقدامه في لا مبالاة على المكتب وهو يتابع أحد الأفلام الأجنبية على الشاشة الكبيرة التي أمامه. اِبتسم له حمادة قائلًا في ترحابٍ زائف:

- حمدًا لله على سلامتك، قالو لي أنك هربت بالسيارة، لكنني لم أصدق ولم أشأ إبلاغ البوليس، اِبتسم يحيى في تهكم قائلًا:

- دعك من تلك الحركات المكشوفة، أنا وأنت نعلم أنك لن تبلغ البوليس أبدًا. نظر له حمادة في اِستخفاف بينما أخرج يحيى نقودًا وألقاها فوق مكتبه، هذه هي نقودك كاملة، عدها. تناولها حمادة في شك ثمَّ قام بعدها، ونظر له في دهشة قائلًا:

- النقود كاملة!! رد يحيى بتلقائية:

- ولماذا توقعتها ناقصة؟!

- لأن عبده ميلص، اِتصل بي وأخبرني بما حدث؟ نظر له في غضب قائلًا:

- اِبن ال... هل أخبرك أنه سرق ألف جنيه من جيبي؟ رسم حمادة الهدوء على وجهه قائلًا:

- بالطبع لقد كان مستنكرًا معاملتك السيئة له فقرر تأديبك، هذا كلما في الأمر، قال يحيى:

- إنه لص وابن كلب وأنت تعلم ذلك. قال له حمادة في هدوء:

- وهل ميلص هذا يحتاج للألف جنيه هذه، أنت تعلم إنه يكسبها في دقائق. رد عليه حمادة في ضجر قائلًا:

- هذا الأمر لم يعد يعنيني، لقد سددت ذلك العجز من جيبي، وانتهى الأمر. رد عليه حمادة في توتر وهو يشعل سيجارته قائلًا:

- ماذا تعني، بانتهى الأمر؟!

- سيارتك عندك، ولي باقي حساب نصف شهر إعطني إيَّاه، وأنا سأرحل. ضحك حمادة وعاد بكرسيه إلى الخلف، بينما توترت كُل حواس يحيى وهو يراقبه في غضبٍ. لكن حمادة مد يده في أحد أدراج مكتبه ولوح له بورقة وهو يقول بفظاظة:

- هل تظن أنك تعمل في هيئة الاستعلامات يا روح أُمك، اِنتفض يحيى وهم بالانقضاض على حمادة. إلَّا أن صوت التكات المعدنية القادم من أحد الأركان المظلمة أوقفه، حيث اِنتبه إلى مصدر الصوت فلمح أحد الثيران الأقوياء وهو يصوب مُسدسًا ضخمًا إلى رأسه مُباشرة، فابتسم حمادة في أسف وهو يُشير إلى الثور المُتحفز قائلًا:

- الأمر لا يستدعي ذلك يا باولو، فصديقي يحيى عاقل ولن يضطرني لإيذاءه.

هذا إيصال أمانة بمائة ألف جنيه كتبه في لحظة سُكر عظيمة، من التي نتشارك فيها، فنحن أصدقاء من قبل العمل. أطرق يحيى برأسه ثمَّ رفعها في قائلًا في غيظ:

- كان يومًا أسودًا، ذلك الذي عرفتك فيه، أنا لن أعمل معك مرة أُخرى يا حمادة وليكن ما يكون، ويكفي ما اِقترفناه من جُرم. اِبتسم حمادة قائلًا بطريقة مسرحية:

- ومالذي اِقترفناه يا صديقي، نحن مصنع فقير للمُقرمشات والكعك البسيط، نقدم منتجاتنا للأطفال الفُقراء في القُرى والنجوع، وأحياء القاهرة الفقيرة، بالعكس نحن نُقدم خدمة جليلة للإنسانية. ضحك يحيى بجنون وهو يصفق.

- الحقيقة هي فكرة عظيمة، كعكة واحدة بالسكر، تباع للأطفال الفقراء. والعبوات الخاصة منها يعود نفعها على المدمنين، تلك الصناديق ذات العلامات الحمراء. سقط السيجار من يد حمادة وتصنع الدهشة وهو يصفق بحرارة قائلًا:

- ما هذا؟! لقد أدهشت توقعي، لقد كنت أعتقد أنك أقل ذكاءً من هذا. لكنك لم تسأل نفسك، هل يكسب مندوب توزيع في الشهر، ما تكسبه أنت في عدة أيام!! أنت تعرف أن هناك شيئًا ما ولكنك جازفت يا صديقي؟! لأنك تحتاج النقود، تُريد أن تُصبح ثريًّا مثلنا جميعًا.

- كُنت أعلم أن هناك شيئًا ما لكنني لم أكتشفه سريعًا. قال له حمادة بهدوء:

- صدقني أنك لم تكنْ تريد معرفته فقط، أنت مثلنا يا صديقي، لقد اِحتلت على خطيب أختك وسرقت نقوده، وتسببت في تدميرها فلا تّدعي الشرف، وأنا مُتأكدٌ أن الصدفة فقط هي من دفعتك لاكتشاف هذا السر. اِستمع يحيى له في اِستسلام وكأن الأمر لا يعنيه. جلس على الكرسي الخشبي العالي الذي وضعه حمادة بالقرب من الرف المرتفع الذي يحوي رفًا سريًّا يخفي فيه زجاجة الخمر. مد يده وفتحه بطريقة خاصة، ثمَّ تناول زجاجة الخمر وصب له كئسًا تجرعه على دفعة واحدة، قال لنفسه أن ذلك القذر يقول الحقيقة.

"إنك لم تكتشفه سوى بالصدفة".

كان صوت الكلب (كليفر) يُدوي في أذنه وهو يعوي على السيارة، في تلك الليلة لمحه يفر من الحظيرة وينبش باب السيارة بجنون، حتَّى أن الحاج سبيعي بدا قلقًا من عمله، وسأله ما الذي في السيارة ولماذا هو مُصاب، ولم يطمئن حتَّى فتح يحيى له السيارة وأقسم له أن الذي بها ليس سوى حلوى أطفال شعبية ورخيصة. ولم يطمئن حتَّى فتح كعكة واحدة ووضع فوقها السكر، كانت جافة جدًا ورديئة حتَّى أنه تذوقها بالكاد ثمَّ ألقاها قائلًا:

- يا ساتر، إن طعمها سيئ بالفعل، الآن فهمت لماذا تضعون معها سكر ناعم وتباع بتلك القروش الزهيدة!! كان عواء الكلب يزداد بينما لمح يحيى تلك الذرات البيضاء العالقة في أرضية السيارة. لكن الرجل نهره مرة أخرى وأمر رجاله بسحبه إلى داخل المزرعة، وهو ويقول ليحيى:

- معذرة يا بني، لقد زاد ذلك الكلب من شكوكي، إن له خبرة أكثر من سبع سنوات في كشف المخدرات!! لكن يبدو أنه قد كبر وجُن. تذكر يحيى الكلمات ثمَّ نظر لحمادة قائلًا:

- ذلك الكلب قدم لي أعظم خدمة في حياتي، فلقد فحصت تلك العلب ووجدت كيس الكوكايين الذي تبيعونه بداخل كيس السكرالكبير والآن يجب أن أتوقف فورًا. ضحك حمادة قائلًا:

- لم أسمع شيئًا، أن الشمس قد اِقتربت من الشروق، خذ سيارتك واذهب اليوم إلى ميلص واترك البضاعة هناك، وأعدك أن ننهي كل شيء بيننا بل ستحصل على رقمًا سيسيل له لعابك؟! قال له بغضبٍ:

- لماذا أنا على ذلك الطريق الخطر، فأكمنة الشرطة تنتشر فيه. قال له بحدة:

- اِطمئن يا صديقي، فلا أحد يفتش مندوب توزيع اِبن ناس، حاصل على شهادة

جامعية، ويعمل على عربة حلويات رديئة، أي أحد من هؤلاء المشبوهين سوف يُفتضح أمره من أول لحظة، قال له يحيى:

- المقاهي تمتلئ بخريجي الجامعة العاطلين، اِذهب واحصل على بديل آخر، ضحك حمادة قائلًا:

- سوف يُفتضح أمرهم سريعًا، فهؤلاء عظمهم طري، أنت المثالي يا يحيى، شكلك مقبول، لكن قلبك ميت، والدليل على ذلك أنك تعمل منذ عدة أعوام!! أنت الأفضل في توزيع كعكة واحدة بالسكر في مصر كلها. تابع يحيى الرجال وهم يرصون الصناديق داخل السيارة بسرعة قبل أن يدخل عمال الوردية الأولى مرة ثانية. ربت حمادة على كتف يحيى برصانة قائلًا:

- لا تقلق يا يحيى، نحن لا نضحي برجالنا، ستكون تلك آخر مرة، وستحصل بعدها على تأشيرة السفر لإيطاليا كما وعدتك. ستعمل هناك في وظيفة جيدة، كما أنني سوف أحرق إيصال الأمانة، لكن أرجوك اِنقذني، فالبضاعة يجب أن تسلم في موعدها، وإلَّا فقد نصبح جميعًا في خطر.

- أنا أيضًا سأكون في خطر مع تلك البضاعة. قال حمادة هامسًا في غضبٍ:

- تفعل ذلك منذ عدة سنوات ولم تُصب بسوء. قال له يحيى بسرعة:

- هناك فرقٌ كبير، فأنا الآن أعلم!! قال له حمادة مُطمئنًا:

- لا تقلق يا صديقي هناك من يعملون معك ولكنك لا تراهم، سوف تراهم في الوقت المناسب فقط.

-كيف، لقد توعدني ميلص بالقتل إذا عدت، ضحك حمادة والرجال قليلًا وهو يقول:

- كل شيء كان مدروسًا يا صديقي، كانت تلك القصة محبوكة ولذلك خذ

الألف جنيه، فهي لا تلزمني، تناولها يحيى ووقف يفكر قليلًا، ولمح الرجال وهم يشيرون لحمادة من الأسفل بأن السيارة صارت جاهزة، فقال له وهو يربت على كتفه:

- ساعتين زمن، سوف تفرق بين وجودك في أوروبا وهنا، ساعتين زمن، وستمزق إيصال الأمانة، وتسافر لكي تبدأ حياة جدية بلاخوفأو فشل. أشارت الساعة إلى السادسة صباحًا بتوقيت القاهرة، أصابته قشعريرة وهو يهبط السلم المعدني للمصنع، ويلمح العمال وهم يدخلون بتفاؤل مرح من البوابة الكبيرة الصدئة التي اِصطفت بها السيارات، بينما حمادة يتابعه من الزجاج الشفاف وهو يهبط السلم في تردد. تكلم في التليفون بصوت منخفض وهو يقول:

- نعم هو قادمٌ إليك الآن، لقد صار يعرف كل شيء، سمع ضحكات كريهة على الناحية الأخرى، فندت منه هو الآخر اِبتسامة كره، أظهرت أسنانه الصفراء، وهو يقول:

- هذا ما أردت سماعه بالضبط، لقد صار كارتًا محروقًا، فقم بالتنفيذ في هدوء.

(16)

الصفقة

لم تُخف صباح دهشتها عندما وجدته واقفًا أمامها في المدرسة، يتأملها بابتسامة راضية، كانت ملامحه تشي بانبهاره بجمالها الأخاذ، تعرفت عليه سريعًا، إنه الشيخ بلال، صاحب توكيل مستحضرات التجميل، الذي أومأ لها في ذلك اليوم، كانت تلك هي المرة الأولى التي تراه عن قرب، ففي كل مرة يسلم عليها من خلال الحائط الزجاجي الذي يفصل مكتبه عن باقي الموظفين، لم تخف إعجابها بوسامته ولونه الأسمر، يبدو نموذجًا مذهلًا للعربي القوي، بلحيته وشاربه المرسومين بعناية، له جسدٌ قوي ممشوق، خالي من الأطعمة الدسمة، بدا ثريًّا من رائحة عطره الفائحة في كل جنبات المدرسة، وساعته غالية الثمن، وحذائه اللامع، ملامحه تشير أنه في منتصف الأربعينات بالتقريب، تعرف أنها قد أثارت إعجابه من المرة الفائتة، فلقد كان يتأملها باهتمامٍ بالغ واستجاب لطلب تخفيض السعر كما أرادت، عادةً هُم لا يفعلون ذلك مع زبائنهم!!، لم تتوقع صباح تلك الزيارة الغريبة، كيف دخل إلى المدرسة؟ لتجده أمامها، لكن نظرات الاحترام التي ألقاها عليه بدوي البواب والأستاذ عبده سكرتير المدرسة، أجابت على سؤالها!!، لقد سهلت نقوده كُل شيء، ولو أراد أن يجلس معها في حجرة الناظر شخصيًّا لفعلوا، وقد يعطيه الناظر كرسيه عن طيب خاطر، النقود تتكلم!، لغة عالمية جديدة، صارت هي المحرك الرئيسي

لكل العالم. اِقترب منها أكثر بعدما فرغت الغرفة سريعًا من أنفاس القوادين، الذين لم يسألوه حتَّى ما الذي يريده من زميلتهم العاملة المسكينة، لقد أمر أن يخلوا الغرفة فأخلوها، هكذا وبكل بساطة!!، شيءٌ مُخيف؟! .كانت صامتة وتشعر بالكثير من الخجل فاحمر وجهها لتصبح أكثر جمالًا، اِنتظرت رد فعله فاقترب منها وبلهجة خليجية تعرفها من المسلسلات ألقى عليها السلام بصوته الرخيم الذي اِستحسنته كثيراً. ردت سلامه بصوتٍ مُتحشرج لا يكادُ يُسمع، لم تع كثيراً ما قاله لها لكنها فهمت منه أنه يريد أن يحادثها في موضوع هام وأنه فضل أن يأتي إليها هنا خيراً من المنزل، لم تعرف صباح ما الذي وصل إليه حديثه، فلقد كانت غائبة تمامًا عن واقعها، بالكاد سمعت طلبه بالجلوس معها بعد العمل، لم تسمح لنفسها بالخروج مع أحد في الأماكن العامة من قبل، لكنها في هذا المساء. وجدت نفسها تجلس أمامه في أحد المطاعم العائمة، الراسية على النيل. ترددت كثيراً قبل أن تأتي معه إلى هنا، لكنها اِستمعت إلى نصيحة صديقتيها في المدرسة نعمة وهانم، بأن تستمع إليه وترى ماذا يريد، فالفرصة تأتي للإنسان مرة واحدة فقط، فعليه أن يحترمها، وينسج شباكه حولها كصيدٍ ثمين، خشية ألَّا تأتي مرة أخرى. قال لها ببساطة:

- اِسمي بلال عبد الملك البريج، من الكويت وأعمل بالتجارة، ولي أنشطُة تجارية مُتعددة في كل أنحاء العالم، من تجارة السيارات، ومستحضرات التجميل، والمواد الغذائية. أنا باختصار أمتلك الملايين من الدولارات، بدت لعبته واضحة فهو الآن يسيل لعابها بالمال، لكنها قالت له برقة:

- بالطبع اِسمك مطبوع على علب المستحضرات!، البريج اِسم مشهور. اِبتسم قائلًا:

- هل تقرأين يا صباح، قطبت صباح حاجبيها مستنكرة:

- لست جاهلة، فلقد وصلت في التعليم إلى المرحلة الإعدادية، وأقرأ القرآن والجرائد باستمرار، كما أنني اِستمع إلى المنشدين والسيرة، جلس يرقبها باستمتاع من يشاهد طفلًا بريئًا يلهو في الحديقة، بينما كانت هي مرتاحة وهي تحكي، أعجبت به فهو لم يقاطعها بل اِسترسل معها قائلًا:

- ما شاء الله، وأي من المنشدين تفضلين؟، أجابت بعفوية:

- لا أعتقد أنك ستعرفهم. اِبتسم لها قائلًا:

- أنا أحب الشيخ ياسين التهامي، ونصر الدين طوبار، والكحلاوي، اِبتسمت في تعالٍ قائلة بدلالٍ أثار جنونه.

- حضرتك تسمع نجوم عالم المديح، أما أنا مداحة بدرجة مستمعة، أنا من مواليد السيدة أسمع كل ما تقع عليه أذني، أحب ناسٌ ليسوا نجومًا في التليفزيون مثل الشيخ أحمد التوني، والشيخ عبده الشريف، وجمالات شيحة وبدرية السيد. اِبتسم بلال مستحسنًا، لم تكنْ جميلة فقط بل كانت عذبة الحديث، صمتت عندما وجدته شاردًا يتأملها، لكنه قال لها برضا:

- أكملي يا صباح. ترددت قليلًا ثمَّ قالت:

المنشد صاحب الصوت الحلو يدخل إلى قلبي مباشرة، أحبهم جميعًا وأقدرهم، وشيخي هو الشيخ ياسين التهامي، عندما يكون مدعوًا عندنا في السيدة زينب، أجلس أمامه بالساعات، أنا رأيته عدة مرات وأحفظ جميع مديحه. كان يهز رأسه باستمتاع بينما تحركت هي بعفوية محببة، أنه طيب القلب ودود. صمتت قليلًا حتَّى يتناولا الطعام لكنه عاجلها بسرعة قائلًا:

- تتزوجيني!! كاد الطعام يقف في حلقها فسعلت بشدة جاذبة أنظار رواد المطعم، لكنها هدأت بعدما قام، وقدم لها الماء. بقيت صامتة بعدها لفترة وهي تنظر إلى النيل والدموع في عينيها. ظل يراقبها في هدوء دون أن يكلمها، كان

يعرف ما تفكر فيه، فتركها، كان يشعر بسؤالها يدور حوله ويطارده، وبالفعل لم تهدأ حتَّى سألته:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا، اِبتسم وأومأ برأسه فتوقعاته تجاه المرأة صحيحة فقالت له:

- أعلم أنك تجوب العالم، وتصادف الحسناوات من كل بلد. فلماذا أنا؟ صمت قليلًا محاولًا اِختيار كلماته فقد يكون الرد جارحًا، لكنه قرر الإجابة بمنطقية:

- حسنًا سأكون صريحًا معك، تلقائيتك تعجبني كثيرًا، ما قلتيه صحيحٌ تمامًا، تزوجت عارضة أزياء إنجليزية، ومذيعة لبنانية، وكان لي عدة تجارب أخرى لم تكتمل!!، وبعد ذلك اِنغمست في التجارة والسفر واكتفيت بزوجتين وخمسة من الأبناء، حتَّى رأيت جمالك وعفويتك، علمت أنك تأتين ثلاث مرات في الشهر كنت أتابعك من خلف زجاج مكتبي بهرني جمالك ومرحك، وقبل ذلك بساطتك الجبارة في التعامل مع أصعب الأمور، عندئذ تغيرت حساباتي، وقررت الزواج بك. لقد علمت عنك كل شيء، حتَّى عن كرم وروحية اِبنة عمك المريضة، فزاد إعجابي بك أكثر. لا حظ هو تلك الابتسامة العفوية التي ندت منها دون قصد، دائمًا ما تبحث المرأة أيًّا كانت عن لحظة النصر التي تميزها عن سائر النساء. فاستمتع هو بتأثير كلماته الساحرة عليها. إنه الصدق الذي يدخل إلى القلب مباشرةً.

- نعم سأتزوجك ونسافر من هنا ولكن... ولكن ماذا؟! تعرف هي تلك الكلمة التي تود أن تمحوها من قاموسها، تشعر أن اللون الأبيض يختفي تدريجيًّا بعد تلك الكلمة السيئة لتظهر تلك البقع الواضحة على الثوب الأبيض الجميل، تعلم أن، لكن، يأتي بعدها شروطًا مُجحفة.

- ولكن سيبقى اِبنك كرم هنا في مستشفى خاصة لمثل حالته كما سأتكفل برعاية روحية سأضعها في دار رعاية فاخرة فأنا ظروفي لن تسمح بوجودهم هناك

بين أسرتي كانت يدها ترتعشان بشدة لكنها لم تعقب، بينما رفع بلال كوب الشاي على شفتيه وأعاده مرة أخرى بعدما ألقى عليها القنبلة ثمَّ قال:

- تعلمين أنني أسافر كثيرًا ولا أبقى في الكويت ووجود طفل سوف يعرقلني بشدة، وأريدك معي خفيفة كي نجوب العالم، اطمئني فهو سيكون سعيدًا، وسأوفر له كل ما يحتاجه من تعليم ممتاز وعلاج جيد كما سأفعل ذلك مع روحية فلماذا الخوف إذن، حاولت أن تتحدث لكن لسانها ظل ساكنًا. نظرت إلى الأفق فلم تجد الشمس مرة أخرى، لقد ظنت أنها قد رأتها هذا الصباح لكنها قد عادت إلى مكمنها من جديد.

(17)

(سلام)

وحبَّذا فيكَ أسقامُ خَفيتُ بها عنّي تَقومُ بها، عِنْدَ الهَوى حُجَجي.
أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مكتئبًا ولَمْ أقُلْ جَزَعًا: يا أزْمَةُ انْفَرِجي.
أهفو إلى كلِّ قلبٍ بالغرامِ لهُ شغلٌ وكلِّ لسانٍ بالهوى لهجِ.
عذِّبْ بما شئتَ غيرَ البعدِ عنكَ تجدْ أوفى مُحِبٍ، بما يُرْضيكَ مُبْتَهِجِ.

لا يُصدق أنه قد صار حرًا، عثر على شقة جميلة تطل على ميدان السيدة، بعدما قررت ماتيلدا الرحيل إلى اِبنها فادي هذا العام ولذلك تركته يرحل كما يشاء، ليتخذ قراره على مهل. تسعى لإنهاء إجراءاتها بسرعة الصاروخ وكأن تلك البلد كانت عبئًا ثقيلًا عليها، لايدري كيف يعيش بعض الناس في تلك البلد بضمائر جواسيس، يتحينون أية فرصة للفرار والارتماء في أحضان بلد باردة أخرى تلقي له ببعض المميزات، فيصبح اِبنًا لها، قد لا يُجرمهم القانون، لكن الحياة تجرمهم، حتَّى أوطانهم الأخرى، لا تراهم مواطنين من الدرجة الأولى، بل تعطيهم ما يستحقون، المواطنة من الدرجة الثانية المشروطة، جريمةٌ كبرى أن تترك أمك لمجرد أنها لا تعجبك، وترتمي في أحضان سيدة أخرى لمجرد أنها أجمل، سار على مهل في ميدان السيدة عائشة، تأمل القباب العالية والمآذن التي تحيط بالقاهرة القديمة. لا يعرف

كم من الوقت مر وهو سائر بسيارته بمحاذاة جبل المقطم، وجد نفسه جالسًا على أحد المقاعد الخشبية، داخل كنيسة سمعان الخراز، الوقت هادئٌ هنا ساعة العصاري، صوت العصافير التي تملأ الباحة أحاطت روحه بالسكينة، اِقترب من المذبح وأشعل شمعة وهو ينظر إلى السماء هامسًا:

- ياالله كل الخيارات صعبة فارشدني إلى الصواب، أنهم يخيرونني بين أن أعيش وحيدًا أو أموت غريبًا فماذا أختار. تأمل تلك اليمامة الوادعة. لقد اِختارت لنفسها ذلك الشباك الملون المرتفع حتَّى ترقد على بيضها في سلام، هي هنا آمنة في حضرة الرب القدير. سمع تلك السيدة تقول لجارتها، باكية، وهي تتحدث عن أحد الأشخاص:

- عاش في الدنيا كحمار الرحى، ياما قلت له، اِهدأ يا أخي وارجع، كفاك لهاثًا، كان يضحك على نفسه، كل مرة يقول العام القادم، ثمَّ العام القادم، لم يهدأ، حتَّى هدأت أنفاسه، وما ناله منها غير شوية تراب... أية رحمه الله، فقالت لها جارتها مؤمنة على كلامها:

- ويا ليتهم يفهمون. الإنسان لا يحتاج إلَّا إلى لقمة تكفيه، وملابس تكسيه، وبعد ذلك كله خراب، صدرت منه التفاتة بسيطة لصاحبتي الصوت، فغمرته الدهشة، سيدتان في العقد الخامس من العُمر، تجلسان في سلام على مقاعد الكنيسة الخشبية، إحداهن كانت تضع آية الكرسي حول عنقها! وتنتظر صديقتها ريثما تنتهي من الصلاة، إن ذلك المشهد وغيره المئات لن تجده غير هنا؟ عربة فول الشيخ جابر، أو صبر وجلد عنتر الحاوي، مولد السيدة زينب، رائحة الشواء المنبعثة من كبابجي الرفاعي، دقات العود الرائقة في مقهى الفيشاوي، صوت قوس عوض الله المنجد أمام منزل أم العروسة والشربات أمامه والأهازيج في كل مكان، أساطير الأولياء والصالحين، أنامل تحفر على النحاس في خان الخليلي، الروعة هنا،

اِكتشف أنه معجون بتراب تلك الأرض، أن على ظهره خاتم الحضارة والتاريخ، لقد يسره الله ليحكي ويحكي، ولو فقد الحكايات، سوف يموت. خرج من باب الكنيسة والراحة تغمره، كان قرص الشمس الأرجواني ينسحب بنعومة من فوق جبل المقطم، وأصوات العصافير التي تغرد فرحة بالعودة إلى أعشاشها ترتفع في الأفق، القاهرة كلها هنا تحت ذلك السفح الأسطوري. أنه يراها دفعة واحدة وكأنه ملك مصر يطمئن على رعيته. اِرتجت القاهرة القديمة مع صوت مدفع الإفطار العريق مدفع الحاجة فاطمة* الذي يصعد من القلعة منذ مئات السنين، لما لا يحكي لهم اليوم مدفع الحاجة فاطمة، وزرافة محمد علي وكل الأشياء المبهجة، أن عنده الكثير والكثير، لكي يحكي عنه للأطفال، ولهؤلاء البسطاء الذين يكافحون على أرزاقهم فلا يقرأون التاريخ. اِنطلق صوت الشيخ رفعت مؤذنًا للمغرب، بينما تنفس هو الصعداء وكأن جبلًا من الهموم قد زال من على كتفه إنه يسمع القاهرة كلها بل مصر كلها وهي تطعم في وقت واحد، طربه هسيس الأواني، وضحكات البشر، أنه الدفئ الذي لا مثيل له القاهرة القديمة كلها تحتضنه وكأنها تبتهج بقراره، قال مُحدثًا نفسه بقوة:

لن أبرح هذه الأرض، وليكن ما يكون.

(18)

الرحلة

الساعة الآن تشير إلى السابعة صباحًا تقريبًا، عرفها من صوت المذياع الذي ضبطه على إذاعة الشرق الأوسط، لم يكنْ يرى ساعته بسبب الضباب الذي غمر الطريق في هذا الوقت المُبكر من الصباح، لكنه قانون اللعبة، يجب التسل بالبضاعة بعيدًا عن أعين رجال الشرطة، فتلك هي آخر فرصة للحصول على مبلغ مُحترم، يمكنه من السفر إلى أوروبا، حيثُ كل شيء سهل ومتاح هناك، سافرت به أغنية فيروز الأثيرة لديه إلى زمانٍ آخر ومكان مختلف، إلى الإسكندرية، حيث بيت عاليا، زمن كان فيه إنسانًا يشعر. الآن مات فيه كُلُ شيء.

موعود ..... بعيونك أنا موعود.

وشو قطعت كرمالهن ضيع وجرود.

أنتِ عيونك سود وما أنك عارفة.

شو بيعملوا فيّي العيون السود.

لم تكنْ السيجارة كافية لتحمل ذلك القدر من الألم. مد يده بخفة في التجويف السري وتناول جرعة أخرى من الخمر، أخذ يحدثها بصوتٍ هامس وهو يراها في الضباب تقف في شرفتها الملكية أمام شاطئ ميامي، وشعرها الكستنائي القوي

يعكس وميضًا رائعًا شديد الحمرة في ضوء الشمس، فيخفق قلبه بشدة. لقد اِمتلأ زجاج السيارة بصورتهما معًا. كان يحدثها بقلبٍ كسير:

- أرأيت ما وصلتُ إليه يا عالية، صرت رجلًا ثلاثينيًّا مُهمشًا وضائعًا، يعيش بين الساقطات وهوام البشر، يرتاد حانة حقيرة، وينفق كل نقوده ونقود أمه المريضة على كئوس خمر رخيصة، وعلى ساقطة لا يعرف لها أصلًا، لقد هربت من توزيع الكعك في الإسكندرية خوفًا من أن تشاهدين هزيمتي، ومع ذلك حدث ما خشيت منه، ما الذي أتى بك إلى طنطا، حيث شاهدتيني بهذا الشكل، وأنت تجلسين في أحد المقاهي مع زوجك وابنتك، والسعادة والتحدي باديين على وجهك، أنا لا أقوى على تلك المنافسة يا عالية، أنا الشاب الذي كان ينبض بالأمل والحياة، الذكي النابغة في البداية الضائع حتَّى النخاع في النهاية، أعلم أن الجميع يتهمني بالضعف، والتخاذل، أرى التُهمة جاهزة في عيونهم، كان يجب أن تضع مشاعرك في ثلاجة وتتركها ترحل، تُكمل تعليمك وتنتقم منها، لكنني اِنتقمت من نفسي قبل أن أنتقم منك يا عالية، لم يعد عندي ما أخسره، لم يعد لي وزنٌ بالفعل، فلم الحزن إذن؟ تلك هي نظرة الناس الجديدة لي!، في المنزل، والشارع والمقهى، إنهم يظنون أنني ولد خائب ضاع مستقبله من أجل فتاة!!، لم تكوني فتاة عادية، بل كنت كل شيء بالنسبة لي، لقد فعلت كل شيء كي أبقى بجوارك يا عاليا، أنا الطالب المتفوق، الكاتب الواعد وحاصد جوائز الجامعة في كتابة القصة، عملت ليلًا نهارًا في كل المهن الحقيرة التي لا يتحملها أحد، حتَّى أحقق مطالب أسرتك، عملت نادلًا في الكازينو القريب من بيتك، وعملت بائعًا للبطاطا على الكورنيش وغطاسًا على الشاطئ، وسائقًا للتاكسي، كانت محاولتي أشبه بمحاولات سيارة كارو يجرها حمار أعرج للحاق بسيارة رياضية حديثة. لم يستمر الأمر طويلًا، وبعدها صدر الحكم من والدك، لا زلت أذكر ذلك اليوم، حيث جلس والدك يتلو حيثيات الحكم في غرفة الصالون المُذهب المطلة على شاطئ ميامي، بينما نسمات الهواء

العنيفة تطيح بالنجفة الكبيرة فتحدث هزة غير مريحة بالإضاءة، لتزداد الرؤية اهتزازًا، وكأنه تعمد ذلك حتَّى يبث الرعب في نفسي، لكنه لم يكنْ في حاجة إلى ذلك فلقد كانت رؤيتي مُهتزة بالفعل لأنني ببساطة غير مؤهل للفوز بك، ولا أملك الحيثيات الاجتماعية التي تمكنني من ذلك. حاول والدك أن ينتقي بعض الكلمات الأخف وطأة، ولكنها بدت معلبة وسخيفة، لو كنت أملك سيفًا وقتها لفصلت رأسه السمينة عن جسده المُتهدل، كنت بالنسبة له، فرس رهان خاسر في حلبة تمتلئ بالأحصنة القوية، فرسٌ كُسرت ساقه في السباق، يجب إطلاق رصاصة الرحمة عليه الآن، بينما أنت تتابعينه بحيادية من خلال باب غرفتك نصف المُغلق، قال لي وهو يهتز كعربة ريفية تسير على طريق غير مستوي:

- أعرف أنك شاب مجتهد، ومن أسرة طيبة، ندت مني اِبتسامة ساخرة وأنا أصرخ بداخلي:

- أكمل الجملة أيها الخنزير المُتفاخر، من أسرة طيبة، لكن فقيرة؟! وكأنه قال نفس المعنى مرةً أخرى.

- ذلك لا يُجدي يا بُني أنت تُعيق تقدمها، وتمنعها من الالتفات إلى مستقبلها، عامٌ كامل وأنت لا تتخذ خطواتٍ جدية حيال زواجكما، على أمل حصولك على مقعد معيد بالجامعة كما وعدتني، ثمَّ أشار لورقة بيضاء في يده عليها شعار الجامعة ثمَّ قال:

- ها هو كشف المُعينين، واسمك ليس فيه بالطبع، كما أن الكتابة ليست مهنة، تفتح بها بيتًا في هذه الأيام الصعبة، حاولت أن أدافع عن نفسي بأنني الأحق بالتعين وأنني قدمت تظلمًا، وأخرجت له كل ما في جيبي من قصاصات أوراق بها مسودات كتابة جيدة، وإعلانات توظيف في شركات كبرى قدمت فيها، لكنه قاطعني قائلًا في غرور:

- أنت فقط تحلم بكل شيء! ولا مجال للحلم في حياتنا الواقعية هذه، فأرجوك حاول أن تُنهي ذلك الموضوع برفقٍ، لم أُجب عليه بل صمتت كثيراً، لكنه وضع أشيائي في حجري، وكأنه يتخلص من كرة لهب تحرق أصابعه الغليظة. كُنتُ أُتابع دموعك التي لم أعتبرها صادقة، أنها دموع إعفاء نفسك من المسئولية، وكأنك قلت لنفسك:

- مهندس بترول بالخليج، يكبرني قليلًا، لكنه أفضل كثيراً من ذلك المكافح المزعج، اِطمئني لقد توقفت عن كل شيء حتَّى الكفاح، فلم يعد شيء يجدي، أو يهم! كلكم باعني بثمنٍ بخس، فلا كرامة لكم عندي اليوم، وها هي النتيجة، شقى شارع، يسير الآن بسيارة صندوق تسير إلى حافة الهاوية. اكفهر وجهه عندما وجد الطريق يضيق ومجموعة من رجال الشرطة يقفون واضعين الحواجز الحديدية، ويتأهبون لإيقاف السيارة، اِقترب منهم وهو يكاد يغشى عليه قائلًا لنفسه:

- يبدو أن هذا اليوم لن يمر، لقد اِنتهى أمري. دخل عليهم بابتسامة غائمة فاقترب منه ضابط الشرطة بملامح جامدة قائلًا له بلهجة آمرة.

- رخصك وافتح لي باب الصندوق، قال له بصوت متهدج:

- خير يا باشا، رد عليه الرجل بلهجة جافة جدًا:

- تفتيش. فتح يحيى الباب بيدٍ مرتعشة. لكن الجميع هرولوا وتركوه عندما اِنزلقت دراجة بخارية محدثة دويًّا مفزعًا ثمَّ اِشتعلت.

(19)

الشيطان

دق الجرس عدة مرات قبل أن يستجمع يحيى شجاعته ويلتقط هاتفه المحمول، سمع صوت ضحكة مرتفعة مميزة، عرف صاحبها، فأطلق وابلًا من السباب البذيء ثمَّ قال:

- يابن ال..... كاد قلبي أن يتوقف، الكمين كان... قاطعة حمادة في جدية قائلًا:

- حسنًا لقد وعدتك بشيء في الأمس، ونحن نجلس في مكتبي، هل تذكرته؟، كان يحيى مشوشًا ويقود ببطء حيث توقف الطريق أمامه من فرط الضباب. لكنه كان يرد على الطلياني بحدة قائلًا:

- وعد ماذا؟... لولا تلك الحادثة لكانوا... لكن حمادة قاطعه قائلًا:

- حادثة؟!... لا توجد أية حادثة، اِحتار يحيى قائلًا:

-كيف؟ لقد رأيت تلك الدراجة النارية وهي تصطدم بالشجرة وتشتعل. ضحك الطلياني مرة أخرى قائلًا:

- لا زلت لا تعرفني جيدًا، أنا الطلياني هؤلاء هم رجالي، وهم مدربون على مثل هذه الحركات، فلا تقلق. ضحك يحيى قائلًا:

- أنت اِبن كلب يا حمادة، الشيطان يصلح أن يعمل عندك صبيًّا، تبادلا السباب والنكات البذيئة، حتَّى سمع عدة دقات من جرس هاتفه الآخر، خط الطوارئ

الذي لا يعرفه سوى أسرته. قرأ يحيى اِسم المُتصل في اِنزعاج، فشقيقته بسمة، لم تعتد الاتصال به في ذلك الوقت المُبكر، أغلق محادثته مع حمادة سريعًا، اِستعد لتقديم كذبات جديدة تبرر غيابه عن المنزل، كان ينوي عدم الرد لكنه خشي أن تكون أمه في خطر. أجاب بكلماتٍ مُقتضبة لكنه صمت عندما وجدها تصرخ.

- تعالى يا يحيى فورًا، أمك تريد رؤيتك. رد يحيى سريعًا:

- ما الذي حدث؟

- لقد كانت على جهاز الغسيل الكلوي، وأصيبت بغيبوبة، للأسف لم يستجب جسدها هذه المرة. قال لها في حيرة:

- وما العمل إذن، ردت بسمة باقتضاب:

- للأسف هي في غيبوبة متقطعة، تستيقظ أحيانًا وتبحث عنك وعن ماجد، فأرجوك تعالى بسرعة، فالوضع سيئ. تغير وجه يحيى، وزادت حيرته وهو يرد باقتضاب، حاضر سوف آتي. اِنقطع الاتصال ويحيى عالق على الطريق الزراعي. كانت البرودة قد تملكت من أطرافه، وارتعشت يده القابضة على مقود السيارة، لكنه لم يكنْ يملك شيئًا حيال ذلك الموقف، فلقد كان الطريق لا يزال مُزدحمًا بالسيارت التي كانت تسير ببطء شديد، لمح تلك اللافتة المواجهة كان مكتوب عليها، قرية "سندوب الكبرى"، إنه يبعد تقريبًا مسافة ساعة ونصف من القاهرة، وعليه العودة الآن لكنه تذكر تلك الكارثة التي بحوزته، فهو على بعد نصف ساعة فقط من مكان التسليم، أصابته الحيرة، لكنه قرر أن يسير عبر الطريق الترابي حتَّى يصل أسرع الى مكان التسليم، ثمَّ العودة إلى القاهرة، وبالفعل اِنحرف بالسيارة سريعًا، لكنه اِنتبه إلى ذلك الضوء الأصفر القوي، الذي هاجمه من الجانب الأيمن للسيارة، وسمع صوت البوق المُزعج لذلك الوحش القادم، الذي حطم زجاج السيارة الجانبي، تبعه صوت اِنفجار رهيب وبعدها هدأ كل شيء.

(20)

حلق بعيدًا

البلد تبدو جميلة من أعلى، تبدو كقطع من المكعبات الصغيرة التي تشكل الحياة. لا تُصدق صباح أنها قد اِتخذت قرارها وتزوجت من الشيخ بلال بهذه السرعة، تركها وسافر حتَّى ترتب حالها ثمَّ تلحق به. تأملت المنازل تحتها، والسيارات التي تجري في الشوارع في تلك الساعة المبكرة من صباح القاهرة الحافل بسعي الغلابة خلف لقمة العيش، نظرت إلى ساعتها السويسرية الجديدة، تشير إلى الخامسةِ والربع صباحًا، كل شيء تغير فيها، بدت كأميرة عربية، بعبائتها الخليجية وحجابها الذي بدا ملائمًا تمامًا لطبيعة المرحلة الجديدة، بالإضافة لكمية المجوهرات التي كست يديها وعنقها، لمحت تلك الأبنية المتجاورة، لا بد أن كرم ينام الآن في أحد تلك المراكز الراقية لعلاج السرطان، لقد دفع الشيخ مبلغًا طائلًا في سبيل علاجه وتعليمه في ذلك المركز المعد لذلك، ولا يدخله سوى أبناء الأثرياء، كما أن روحية، تنام الآن في أحد المصحات الخاصة، لقد أوفى بوعده وأنفق عليهم بسخاء لم تزل تشعر بالندم فهي، لم تتركهم أبدًا، لكنها اِستمعت إلى كلمات كل من حولها، الجميع قالوا لها أن فرصة العمر لا تأتي سوى مرةً واحدة، وما فائدة جلوسك بجوارهم وأنت لا تملكين ثمن علاجهم وإعاشتهم بشكلٍ جيد، لكل شيء ثمن أيتها البلهاء، اِذهبي واصنعي المال والسعادة لك ولهم، فما فائدة وجودك

كعاملة بسيطة في مدرسة؟ النقود هي السلطة والسعادة، اِبتسمت عندما تذكرت المعاملة الراقية من الضابط الكبير مدير الجوازات وهو يقدم لها العصير في مكتبه ريثما تنهي الموظفة إجراءات جواز السفر، وتذكرت تلك المعاملة الحقيرة التي تلقتها في القسم من ضابط برتبة صغيرة، عندما اِحتجزوها دون ذنب اِرتكبته، حتَّى تدلهم على زوجها اللص، الذي هرب بصحبة تلك الخادمة القذرة.

- أعتقد أن قراري كان صائبًا، ولا أحد يمكنه لومي على ذلك، والجميع أقروا ما فعلته. كانت تحدث نفسها تجنبًا لمحكمة الضمير التي نصبتها لها الدكتورة بسمة جارتها. التي عارضتها بشدة هي والأستاذ عيسى ياسين المحامي، صديق روحية. لقد اِتهموها بالأنانية والتخاذل، والشبق تجاه المادة. اِتهموها بالتخلي عن هؤلاء الضعفاء من أجل نزواتها وملذاتها، لكن، ليس هذا صحيحًا، ولسوف تثبت لهم الأيام، أن حالهم جميعًا سوف تكون إلى الأحسن، خفق قلبها عندما مرت الطائرة فوق قلعة صلاح الدين، فألقت السلام على كل أحبائها الذين يعيشون بالأسفل.

(21)

المروج

الشمس سطعت من جديد، ومروج الأزهار الشاسعة، اِمتدت أمامه. تلفت يحيى حوله عدة مرات فلم يجد الضباب ولم يجد السيارة الصندوق، لم يبد متفهمًا لأي شيء فلقد وجد نفسه في أرضٍ غريبة يراها للمرة الأولى، حاول النهوض لكن ساقاه لم تحملاه، فبقى جالسًا يتأمل ذلك المنظر البديع الذي اِختفى من حياته منذ أمدٍ بعيد، فالشمس كانت واضحة وقوية تملأ الكون، لكنها لم تكنْ تحمل قدرًا مفزعًا من الحرارة بل كانت أشعتها دافئة ورحيمة، انعشه الشذى الرائع المُختلط بنسمات الهواء الباردة، فجلس مسترخيًّا يتأمل تلك الفراشات رائعة الألوان وهي تحط على الزهور ثمَّ تعود فتطير في اِتجاه الشمس محدثة اِنعكاسات ملونة على وجهه. جلس يتأملها في دهشة الأطفال، وهو يداعبها بيديه. لم يعد يحيى يتذكر أي شيء، سوى تلك المروج الشاسعة التي اِنتهت عندها عذاباته. حاول الركض عدة مرات خلف الفراشات الساحرة، إلَّا أنه لم يتمكن من ذلك، يبدو أن قدميه مصابتان، فالألمُ شديد، بحث عن أي شيء يستند عليه لينهض، لكن يدًا جذبته من يده بقوة وانهضته دون مجهود، نظر لصاحبتها فاندهش لقوتها، لم تكنْ سوى طفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها، شقراء الشعر، ملونة العينين رقيقة الجسد، تبدو على ملامحها براءة ونزق الطفولة، وإن كانت جامدة

الوجه، لم تبتسم له أبدًا، حاول يحيى الحديث معها إلَّا إنها بقيت صامتة تنظر إليه مليًّا، ثمَّ اِستدارت وركضت تطارد الفراشات بعصاة صغيرة تصدر صوتًا ساحرًا جعله ينهض رغم إصابته ويسير خلفها بلا وعي، وهو ينادي عليها بينما هي تركض أمامه بسرعة وتقفز إلى أعلى بشكلٍ مخيف وفي كل مرة كانت تسقط على الأرض، تحدث زلزلةً رهيبة وكأنها تتمتع بوزن عشرة أفيال، على الرغم من خفة جسدها. ظل ينادي عليها عدة مرات.

- أيتها الفتاة الجميلة، أنا يحيى آدم الطيب، فمن تكونين؟، وأين نحن؟. ظل يحيى يُكرر النداء وهو يسير خلفها، لكنها لم تُعره اِنتباهًا بل اِستمرت في الركض خلف الفراشات. توقف قليلًا عندما سمع صوت سيارات الإسعاف قادمة من بعيد وشاهد دُخانًا في الأفق. حاول أن يتلفت إلى هناك، لكن الطفلة كانت تجذبه خلفها بقوة، قدماه كانتا تستجيبان فقط لإشارات تلك العصاة السحرية، التي في يدها. ظل يحيى يتبعها مسافة طويلة، حتَّى شاهد بيتًا رائعًا فوق ربوة خضراء مرتفعة يحيط به سور أخضر كبير. اِلتفتت الطفلةُ له وأشارت إلى المنزل عدة مرات فسئلها يحيى:

- هل تسكنين هنا؟،هل هذا بيتك؟ وكعادتها لم تتكلم لكنها أومأت له تلك المرة، وهي تصعد بخفة على التبة التي اِستغرقت منه مجهودًا كبيرًا ليصعدها وهو ينادي عليها:

- اِنتظريني أيتها الفتاة، أنا جائع، أريد بعض الطعام، اِذهبي إلى والديك وقولي لهم أنني جائع. لكنه توقف عن الكلام عندما وجد الأسرة كُلها في اِستقباله. أسرة كلاسيكية بحق فالأب رجلٌ وقور الهيئة، قارب على الخمسين، يرتدي جاكتًا من الكاروهات البنية وقميصًا أبيض اللون ورابطة عُنق أنيقة وبجواره سيدة وقورة ترتدي فستانًا أنيقًا وقبعة جميلة، عتيقة الطراز، وبجوارها فتى وسيم، له

شعر بني ناعم، يرتدي بذلة سوداء كاملة ورابطة عنق مبهجة تحمل الكثير من الفراشات الملونة، تُشبه تلك التي رأها في المروج منذ قليل، توقف أمامهم قليلًا، وهم يتأملونه بابتسامة ودودة بينما عبرت الطفلة الشقراء، أسوار المنزل الخشبية الخضراء، حيث حديقة المنزل الواسعة التي اِستقرت بها أرجوحة كبيرة ملونة، ركبتها فطارت بها في الهواء على اِرتفاعات شاهقة. تأملها الأب بحب وهي تُحلق بأرجوحتها في الهواء فتنبعث حولها موسيقى ساحرة، ثمَّ قال وهو يُربت على يد يحيى في ودٍ:

- معذرةً يا بني فروح الفؤاد لم تسمعك؛ لأنها طفلة بكماء صماء؟! كان يحيى مذهولًا من وقع الاسم، فهو لم يسمع به من قبل، روح الفؤاد، ما أعجبه من اِسم!، لكنه اِنتبه على صوت الرجل وهو يمد يده المُمتلئة بالسلام قائلًا بودٍ كبير:

- أهلًا بك في منزلنا الفريد، أنا الأستاذ محمد زين، أحد رجال التعليم، وهذه هي السيدة درية، زوجتي، ثمَّ أشار إلى الفتى الوسيم ذو الشعر البُني قائلًا:

- أمَّا هذا، فهو حسن اِبني، صياد ماهر بالبندقية ومقاتل من الطراز الأول، كان الشاب يرمق يحيى بكثيرٍ من السخرية فلم يرتح له كثيرًا، بينما غمرته السيدة درية بابتسامة ترحيب وهي تشير إلى قدمه قائلة:

-أهلًا بك يا بني، يبدو أن رحلتك لم تكنْ على ما يرام. اِنتبه إلى تلك الدماء التي تغطي قدميه وظهره، لكنه نسي تلك الآلام مع جمال المنظر في المروج، ومرح تلك الفتاة الجميلة، روح الفؤاد وهي تركض خلف الفراشات. ربتت السيدة على يده برفقٍ قائلة:

- سأُضمدُ لك جراحك، وكل شيء سوف يكون على ما يرام. ضحك السيد زين قائلًا:

- لا تقلق يا أستاذ يحيى، فهي خبيرة في تضميد الجروح، لقد عملت متطوعة أيام الحرب؟! قطب يحيى حاجبه في رعب وهو يهمس:

- حرب؟! أية حرب؟! فآخر حربٍ مرت على البلاد كانت قرابة الأربعين عامًا!!، ماهذا الجنون؟!. لكن السيد زين أكمل بصوته الجهوري قائلًا:

- باسمي وباسم أسرتي، أدعوك للانضمام إلينا في منزلنا.

قالها وهو يشير إلى المنزل ذو البوابة النُحاسية الكبيرة، والتي وقف عليها حارس نوبي قوي، ثابتًا دون حراك، وإن لاحظ أن عينيه كانتا تراقبان ذلك الغريب الذي سيدخل المنزل. لم يشعر يحيى بالارتياح، على الرغم من الاستقبال الجيد الذي اِستقبله به السيد زين وعائلته، عشراتٌ من الأسئلة كادت تعصف برأسه، أنه لا يتذكر سوى اِنفجار زجاج سيارته الصندوق، فما الذي أتى به إلى هنا؟، وأين سيارته الآن؟، وماذا عن المخدرات المُخبئة بداخلها؟ وماذا عن أمه؟، كيف عرفوا اِسمه؟! ومن أين أتت تلك المروج. تذكر والدته فقرر العودة إلى القاهرة، مهما كلفه ذلك من ثمن. فقال لهم بحزمٍ:

- أشكر لكم دعوتكم الكريمة ولكن والدتي مريضة بالقاهرة، ويجب أن أغادر الآن للاطمئنان عليها، اِبتسم الأستاذ زين في صبرٍ قائلًا:

-كُل شيء وله أوانٌ يا بُني، لن تتمكن من الحركة كثيرًا قبل أن تندمل جراحك؟! اِلتفتوا جميعًا إلى المنزل وتحركوا تجاه البوابة الخشبية، فنهض البواب لهم في اِحترام، بينما حاول يحيى الرحيل بعيدًا في اِتجاه صوت سيارات الإسعاف والدخان الأسود الكثيف، إلَّا أن ساقاه التفتا حوله مرتين وتحركتا دون سيطرة في اِتجاه منزل عائلة السيد زين، حيث بدا مُنجذبًا تمامًا وكأن هناك قطعةً من المغناطيس قد ثُبتت في جسده وربطته بهم، مروا جميعًا من البوابة النحاسية الكبرى، وهم يحيون البواب، بتحية قديمة متصلة، جملة واحدة لا تتغير، (سعيدة يا عم عثمان).

بينما عثمان النوبي، ثابت لا يتحرك وإن كانتا عيناه البيضاون تتحركان بسرعة في اِتجاه كل فرد من أفراد الأسرة، وكأنه جهاز تتبع دقيق الصنع. وجد يحيى نفسه يدخل من البوابة النحاسية وهو يتابع وجه عم عثمان المُختلج وهو يرمقه بنظراتٍ ثاقبة شرسة، اِرتعد لها جسده، حاول المقاومة إلا أن نصفه السفلي بدا وكأنه يعمل بجهاز تحكم عن بعد، حيث وجد نفسه وكأنه أحد أفراد المنزل وهو يُسلم على عم عثمان بجملتهم التقليدية التي كانت قديمة جدًا، قائلًا:

- سعيدة يا عم عثمان. لكنه سمع صوت عم عثمان يرد عليه بزمجرة مزعجة صحبها فحيح مخيف اِقشعر له بدنه، وهو يرمقه بنظراتٍ قاتلة، لم تُمكنه من التراجع، وهو يُغلق خلفه البوابة النُحاسية الكبيرة.

(22)

القصر

المكان بالداخل مذهل، كلُ شيء دقيق كتروس ساعة سويسرية، البهو الأنيق ذو التحف، التي لم يتمكن من تحديد حضارتها ولا من أي ثقافةٍ أتت، قطع الأثاث الكبيرة في الدور الأول، وطاولة الطعام المُمتدة من البهو حتَّى السلم الخشبي الأنيق، المُفضي إلى غُرف النوم، البيانو الخشبي الكبير، ذو القواعد الأبنوسية، تأمله للحظة، لقد رآه فيما سبق، لكن أين؟!، هو لا يذكر. تابعهم يحيى وهم يتحركون بسرعة، وكأنهم يُحضرون لحفلٍ أو ما شابه، فالسيدة درية بدت كقائد عسكري حازم، وهي توجه مجموعة كبيرة من الخدم لرفع بعض الأثاث وتنظيف الستائر، بينما دعاه السيد زين لتناول مشروب الأسرة المفضل في شرفة المنزل الأنيقة، المُطلة على الحديقة الغناء. الطفلة روح الفؤاد لم تزل تلهو بأرجوحتها الذهبية، والتي ترتفع إلى السماء، ثمَّ تهبط مرةً أخرى لتحيط بها الفراشات والعصافير الملونة، جلس يحيى يتأمل ذلك المشهد في ذهول، بينما السيد زين، يتابع حركة أهل الدار، والعمل على قدمٍ وساق. اِستغرق يحيى النظر في البرواز الكبير الذي يتوسط الحائط والذي يحوي صورة مُجمعة جميلة لأسرة السيد زين، الأستاذ محمد زين والسيدة درية وحسن الأنيق، ذو النظرات الثاقبة، والطفلة روح الفؤاد.لا حظ

يحيى أن تلك الصورة تنقص فردًا، تلك الشابة الجميلة ذات الخمسة عشرة عامًا، لعلها تكون قد غادرتهم إلى مكان ما. ربت السيد زين على يده قائلًا:

- تناول هذا، لن تنسى طعمه أبدًا، فهو خليط من عسل النحل الجبلي القوي وعصير الفواكه. تناول يحيى مشروبه بيدٍ مُرتعشة، قربه من أنفه وشمه على مهل ثمَّ ذاق منه رشفة، وجد طعمه غريبًا، مشروب بني الطعم سميك القوام، يحوي مرارًا في البداية، لكن له مذاق عسلي ثقيل يختلط برائحة الزهور والفواكه. شعر يحيى بقوى خُرافية تسري في أوصاله بعدما تناوله. كان عقله حاضرًا لكن جسده، كان بطيئ الحركة جدًا، فقدميه تلتصقان بالأرض بشكلٍ مُستمر. رأى السيد زين يتناول مشروبه في اِستمتاع وفي يده قطعة خشبية تحدث دخانًا له رائحة ذكية كان يضعها في فمه مسترخيًا، ذكرت يحيى بوسيلة التدخين البدائية لدى الهنود الحُمر والتي تُشبه البايب. حاول يحيى أن يخبر الرجل بأن المشروب حلو المذاق لكنه لاحظ اِنشغاله بمتابعة اِبنه حسن وهو يصطاد خارج الحديقة. بدى حسن مُخيفًا بنظراته الثاقبة وعينه الملونة وشعره البني، الذي كان يعكس ضوءًا أحمرًا في الشمس القوية. ظهر جسده ممشوقًا وقويًا وهو يرتدي ملابس الصيد التي اِلتصق بجسده، وهو يحمل سكينًا طويلًا، حادًا من الجانبين، خلف ظهره. يصطاد ببندقية خشبية عتيقة الطراز، ويصوب في اِتجاه أشياء تطير في الجو فيسقطها على الأرض لتحدث دويًا مخيفًا فزع له يحيى كثيرًا، وكاد يسقط من فوق كرسيه عدة مرات، إلَّا أن السيد زين طمئنه بابتسامة ثابتة، قائلًا:

- لا تقلق ياولدي، فحسن صيادٌ بارع، يمكنه الإيقاع بآلاف منهم في الساعة الواحدة؟!

سقط الكوب الخشبي من يد يحيى، عندما تأمل حسن الذي يصوب بندقيته إلى السماء... ما هذا؟!! حسن يصطاد طيورًا نارية تقترب بسرعة خرافية من الأرض

وتحدث دويًا مخيفًا. كائنات مُخيفة تُشبه التنين، لها ذيول نارية وقرون. اِستمر حسن في التصويب عليها لتسقط متهاوية، ثمَّ تنهض وتهاجمه من جديد مُحاولة الفتك به، إلَّا إنه كان يعاجلها بسكينته الشاحذة ذات النصلين، فيقتلها وتختفي سريعًا في باطن الأرض المُحترقة فتعود لتُزهر بسرعة خرافية. اِنكمش يحيى في كرسيه أكثر عندما لاحظ أن روح الفؤاد تركل تلك الكائنات المُخيفة بأقادمها بكل بساطة دون أن تتوقف لحظة واحدة عن التأرجح. ويحيى يموت رعبًا، إن هذا المكان يخيفه، يكاد يسلب عقله. لا زال الدخان القادم وصوت سيارات الإسعاف تأتي من الطريق البعيد. قرر القفز من الشرفة والذهاب إليهم لينقذوه من ذلك الجحيم. حاول النهوض، ألا أنه لم ير ساقه، لقد اِختفتا تمامًا. صرخ بقوة:

-أين أنا أريد أن أرحل كم الساعة الآن... سمع دقات الساعة الخشبية الموجودة في منتصف البهو، لم يتمكن من التنفس جيدًا عندما وجدها تعود إلى الوراء!!، وسمع درية تصرخ في الخدم بقوة. الآن يُمكنكم التوقف فكل شيء قد صار مُعدًا لحفل باكر.

(23)

ليلة في المنزل

نحن نستعد للاحتفال بشخص عزيز كان غائبًا عنا، وها هو يعود إلينا قريبًا. سمعهم يقولون ذلك كثيراً تطلع يحيى إلى الصورة الكبيرة المُعلقة على الحائط، بتمعن وهو يُخمن:

- يبدو أن الغائب هو تلك الفتاة الجميلة حمراء الشعر، ذات الملابس الكلاسيكية الأنيقة، وكأن السيدة درية كانت تقرأ أفكاره، فاقتربت منه قائلة، وهي تُشير إلى الفتاة في الصورة قائلة:

- إنها اِبنتنا آمال، لقد كانت غائبة منذ زمن، وهاهي سوف تعود قريبًا، لقد هاتفتنا اليوم.

اِزدادت حيرة يحيى، فالغموض يسيطر على كل شيء، والأسئلة تطحن رأسه. فإلى أين رحلت تلك الفتاة ولماذا عادت الآن؟، وكيف تركوها تسافر وحدها إلى تلك الأرض البعيدة كما قالوا. لم يكنْ الليل أحن حالًا من النهار، بل بدا مقبضًا ومخيفًا وزاد من وحشته نعيق تلك البومة العملاقة التي اِستقرت على الشجرة الكبيرة، بينما كان بهو المنزل صامتًا. الكل مشغول في شيء، فالسيد زين جلس يقرأ من كتاب بني اللون في صمت، وفي يده البيبة الخشبية التي كانت ترسل بضع دفقات من الدخان طيب الرائحة وهو ممدد على كرسي هزاز أنيق، عتيق الطراز بينما

الصغيرة روح الفؤاد تشرب من كوب خشبي كبير، بدا أنه ذلك المشروب الغريب المتوافر لديهم، منذ الظهيرة وهم لا يأكلون، فقط هم يتناولون ذلك المشروب الغريب الذي لم يرق كثيراً ليحيى، على الرغم من كونه مدمن خمر يحتسي أي شيء، لم يكنْ يرفض تناوله على أية حال. نام يحيى على الأريكة بينما السيدة درية وحسن مشغولان بتضميد جراح ساقيه، حمد الله أنها لم تزل موجودة، لقد شعرأنه فقدها، بعدما شاهد كل تلك الأشياء المُخيفة في الظهيرة، كانت السيدة درية تمزق بعض الضمادات، وتضم الجروح التي كانت عميقة بشكلٍ مخيف، بينما يقوم حسن بعمل شيء جنوني، فلقد دفن سكينه المزدوج الذي كان يذبح به التنانين الصغيرة في المدفأة العتيقة حتَّى اِحمرت. أومأت له السيدة برأسها فاقترب حاملًا السكين المزدوج من مقبضها الخشبي في المنتصف، وقدمها إليها وهو ينظر ليحيى نظرة رهيبة تفصد لها جبينه. لم يتمكن يحيى من الصراخ لكن فمه كان مفتوحًا على آخره بينما صوته محتجبًا تمامًا، عندما دست السيدة السكين بعناية فائقة مكان الجروح العميقة، فأخذت تندمل شيئًا فشيء، وهي تحدث صوتًا ورائحة شواءٍ مُقززتين، بينما يحيى لم يزل فاتحًا فمه وعينيه جاحظتين في رُعبٍ جنوني، دون صوت. لكنه بدأ يتأوه عندما اِنتهت قائلة له:

- لقد كانت الجروح غائرة فاضطررنا إلى كيها لكنها الآن، اِندملت يمكنك الوقوف والحركة فلا شيء يمنعك. ولدهشة يحيى وقف على قدميه دون أن يشعر بالألم.

الساعة الخشبية تسير إلى الوراء، بينما روح الفؤاد تلهو بتلك الدُمى الغريبة، كانت دُمى آدمية!! ما هذا العبث. كاد يحيى أن يغشى عليه من فرط الرعب. الهدوء القاتل، أشعره برغبة عارمة للخروج من هنا والعودة إلى أمه المريضة، إلى حياته التي يكرهها إلى زمانه الضائع، محدد المعالم، ظل يتأرجح جيئة وذهابًا في بهو القصر الكبير، بينما الكل منشغل بشيء ما. لم يكنْ أحدهم يكترث به بعد تلك

الكلمات المُقتضبة التي قالتها له السيدة درية، وتضميدها جرحه بمساعدة حسن. أغلق السيد زين كتابه العتيق وهو لم يزل مُمددًا على الأريكة قائلًا:

- آفة الإنسان هي تلك الأسئلة التي تنطلق من رأسه كأسراب النحل التي غادرت قفيرها وانطلقت في كل اِتجاه بلا هوادة، وآفته الأكبر هي تعجله المستمر في الإجابة على تلك الأسئلة، مع أن القاعدة الرئيسية التي نظم الخالق عليها الكون الفسيح هي التوقيت. جلس يحيى على المقعد القريب وهو يتابع السيد زين وكأنه طفل صغير يتلقى درسه الأول من المُعلم. الذي أكمل كلامه قائلًا:

- لكل شيء توقيت فإن اِحترم المخلوق التوقيت، اِرتاح باله وهدأت نفسه، ولم ينشغل بغير الذي قُدر له، كُل أسئلتك يا بُني لا إجابة لها الآن؟!، لكن عندي ما سوف يسري عنك وإن كان سيزيد تلك الأسئلة في رأسك، فهل توافق على الخروج إلى نزهة صغيرة، سترى فيها الكثير؟ كان الملل قد تمكن من يحيى تمامًا حتَّى أنه لم يستغرق وقتًا في الإجابة فأومأ برأسه موافقًا، فأشار السيد زين إلى الصغيرة روح الفؤاد فتركت عرائسها المُخيفة واقتربت منه وهي تنظر له نظرات قوية بعينيها الخضراوين. الطفلة جميلة جدًا، لكنه لا يعرف لماذا تثير كل هذا الرعب في نفسه!!، فتصرفاتها تبدو مخيفة. لم تمهله الفتاة فلقد قبضت على يديه قبضة قوية لم يتمكن من إفلاتها، أثارت دهشته فهي تتمتع بقوة عشرة رجال وتجري بسرعة مخيفة أجبرته على الجري معها فوق أرضية بلورية زلقة، بدت كحوض سمك كبير ضخم، تحته آلاف من الغرف الزجاجية الكبيرة بها الكثير من الناس في تجمعات، يضحكون ويأكلون يتكلمون، منهم من يقوم بأشياء طيبة ومنهم من يقوم بأشياء يندى لها الجبين، كانت الرؤية مشوشة في البداية خاصة مع تلك السرعة الرهيبة التي جريا فيها على الأرض البلورية الشاسعة، ثمَّ اِنزلقا داخل نفق زجاجي طويل، وكأنه أحد زلاجات الأطفال العملاقة التي شاهدها في التليفزيون في مدينة العاب ديزني كان مترددًا لكنها سقطت به في تلك الهوة السحيقة وهو يصرخ بشدة.

(24)

البارون

تلقى حمادة الهاتف الذي ينتظره من صبيانه على الطريق، ظل وجهه مصفرًا، وهو يستمع إلى تفاصيل الحادث الذي حدث ليحيى. سأل الرجل في اِهتمام:

- هل قمتم بالخطة الوقائية. سمع صوت الرجل الآخر يقول:

- للأسف يا سيدي، السيارة الآن تشتعل عن آخرها، اِستشاط حمادة غضبًا:

- كيف تستخدم الخطة الثالثة يا غبي دون أن تخبرني، أن هذا يمثل لي كل شيء، أنها خسارة كبيرة.

- حاول الرجل أن يطلق الكثير من الأعذار إلَّا أن حمادة توعده وهو يغلق سماعة الهاتف في وجهه وهو يسب بصوتٍ عالٍ:

- هؤلاء الأغبياء، أضاعوا كل شيء. فكر قليلًا ثمَّ ضغط على زر الهاتف، جاءه صوت بارد لفتاه بدت وكأنها موظفة خدمة عملاء، سألته بأدب كيف تخدمه قال لها:

- عفوًا فلقد اِنفجر إطاري البديل وأبحث عن زوج إيطالي قياس 175\65 صمتت الفتاة لدقيقة ثمَّ قالت له بتحفظ:

- حسنًا يمكنك زيارة فرع المعادي في تمام الساعة الرابعة عصرًا. بقي على

الموعد ساعة كاملة، ظل جالسًا في المقهى المقابل لتوكيل الإطارات الذي يطل على الشارع الأنيق، حتَّى جاءته الرسالة فابتسم مطمئنًا "لقد تمت المهمة، يمكنك الآن الدخول".

اِقترب من توكيل الإطارات الكبير المجاور لفيلا أنيقة في حي المعادى، اِرتعدت يده وهو يتأمل الشارع، والفيلا المواجة للتوكيل، تذكر أباه وأمه، أصدقاءه، والأتوبيس الذي كان يقله من وإلى المدرسة الأجنبية الفاخرة، صديقته منى وجاره أمير صميدة الميشلان. أول مرة يأتي إلى هنا بعدما رحل هو وأسرته عن المنطقة، لم يكنْ مُطمئنًا فالموقف كله يُنذرُ بخطرٍ داهم، عادة ما كان جاك جورداق يزوره في مواعيد محددة وأماكن محددة، لكنه لم يستجب هذه المرة، فطلب حمادة مكالمة الطوارئ تلك، والتي علمه إياها في حالات طلب المقابلة في أي وقت. إنهم يعملون وفق نظام شديد الصرامة، ولذلك كان عمل حمادة يسير على ما يرام، وتوزيع الكعكة بالسكر، يحوز الإعجاب، لكن تلك الحادثة السخيفة التي حدثت للمجنون يحيى هي التي أفسدت كل شيء. تأمل المبني من الداخل، الاستقبال جميل. اِقترب من السكرتيرة الجميلة حمراء الوجه وأخبرها بالموعد، تفحصته عدة مرات في اِهتمام وضغطت على الزر الموجود في المكتب، اِقترب أحد الرجال الأقوياء في هدوء وطلب منه السير معه، فاستجاب حمادة وسار خلفه في ممر طويل أفضى إلى حديقة جميلة، أنه يعرفها وإن كان شجرها قد شاخ كثيرًا، وجد جاك يجلس على مكتب كبير أنيق به العديد من إعلانات الإطارات والكثير من نماذج السيارات الجميلة على مكتبه. نظرله جاك وهو يدخن بلا مبالاة. ظل الرجل الضخم داخل المكتب بينما جلس حمادة في توتر بعدما قص عليه القصة مرة أخرى، وانتظر يستمع لحلها منه. إلى أن قال:

- أخبرني الرجال بما حدث، هل مات الشاب يحيى؟:

- هز حمادة رأسه في حيرة:

- الحقيقة لا أعرف، كل ما همني هو السكر. خشيت أن ينفضح أمرنا. ضرب جاك يده على المكتب سابًا إياه في غضب:

- لأنك غبى وجبان، كان يجب أن تتأكد من كونه حيًّا أم لا، فوجوده حيًّا الآن قد يشكل خطرًا كبيرًا عليك وعلينا، تصبب حمادة عرقًا وهو يقول:

- الحقيقة، أن الحادث كان مروعًا والسيارات اِحترقت، حاول الرجال إخلاء السيارة من السكر إلَّا أنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب الزحام ف.... رد جاك جورداق الملقب بالجيجي.

- فأحرقها رجالك، وبها السكر، هل الأمر بهذه البساطة... حتَّى وإن لم تكتشف الشرطة الأمر، سوف تدفع ثمن البضاعة وفق إيصالات الأمانة التي كتبتها على نفسك، وقيمتها:

نصف مليون جنيه!! أطرق حمادة برأسه ثمَّ رفع رأسه قائلًا بابتسامة باردة:

- دعك من هذه اللعبة الرديئة يا جيجي، سجني لن يفيدكم في شيء بل فيه ضرر كبير لكم، فلن أبقى صامتًا كثيرًا إذا ما اِحترقت كل كروت اللعبة، اِمتقع وجه جاك غيظًا من كلمات حمادة، ونفث دخان سيجاره الذي أشعله في هدوء قائلًا:

- حسنًا، ما الذي تريده إذن؟. رد حمادة سريعًا:

- أعتقد أنني يمكن أن أتفاوض مع البارون مُباشرةً في جدولة ثمن السكر الذي ضاع في تلك الحادثة على أن تمدوني ببضاعة جديدة في أسرع وقت و... قطع كلمات حمادة صوت ضحكة عالية غاضبة قادمة من أعلى من السلم المعدني تبعها صوت رجالي رفيع يقول:

- ومن قال لك أن البارون يتفاوض مع وكلائه الفاشلين، غبي تمامًا مثل أبيك؟!

- جن جنون حمادة من تلك العبارة والتفت بحدة ليرى صاحب الوجه الذي يسبه إلَّا أن لكمة عنيفة من الوحش المرافق لصاحب الصوت أسقطته أرضًا، حاول النهوض مرة أُخرى إلَّا أن قدمه الغليظة ضغطت عليه مرة أخرى بالإضافة لذلك الوحش الذي يثبت فوهة مُسدسه على رأسه. تذكرحمادة تلك القدم الغليظة فقال في غضب:

- تكررها للمرة الثانية أعدك بالموت جراء سحق رقبتي لمرتين، أعدك بألَّا تجد رقبتك مكانها في المرة الثالثة، زاد الرجل من دهس رقبة حمادة الذي تأوه وسعل بشدة بينما قال الرجل:

- أحيك على لمحة الذكاء تلك، أعتقد أنك عرفتني، لكنك أتيت مُتأخرًا كعادتك فلن يكون هناك مرة ثالثة، اليوم هو آخر مرة نتقابل فيها، أعدك بذلك يا حمادة. لهث حمادة وهو يقول في حيرة.

- لماذا تفعل كل هذا معي يا أمير، لماذا تكرهني كل هذا الكره، لقد كنت مسالمًا تجاهك تمامًا رد أمير ويده ترتعش بعدما أرخى قدمه الغليظة عن رقبة حمادة، وجثى على نصف ركبة ليكيل له عدة لكمات عنيفة جعلته يتأوه، ويسيل الدم من فمه، وهو يصرخ:

- لأنني أكرهك طوال عُمري، لقد كنت دومًا سببًا لإزعاجي وللسخرية مني، الجميع كانوا يقارنون بيني وبينك. حتَّى منى التي أحببتها طوال حياتي كانت لا تعريني اِهتمامًا بل كانت تهتم بك أنت على حسابي

رد علي حمادة غاضبًا:

- إذا لم يكنْ كل ذلك من سبيل المصادفة، ضحك أمير قائلًا:

- الأغبياء فقط هم من يعتمدون في حياتهم على المصادفة، كما فعل والدك الغبي، وكما تفعل أنت الآن، لقد كنا نكرهكم أنا وأبي، نظر له حمادة دامعًا وهو يصرخ:

- الإفلاس، ثمَّ هرب أمي إلى إيطاليا، هؤلاء الصبية الذين كانوا يتعمدون إذلالي في المدرسة الإعدادية، أو في دار الرعاية، كنت أتساءل دومًا، من أين يحصلون على تلك المعلومات الدقيقة؟، وهم في تلك الحالة السيئة من الفقر والبؤس، لا بد أن أحدًا يمدهم بالمعلومات تلك، حتَّى اِنتحار أبي وموته بتلك الطريقة البشعة ظل لغزًا يحيرني. رد عليه البارون في هدوء:

- والدك ظل يعمل معنا، فأبي أول من اِبتكر تلك الحيلة العبقرية، وهي دس البضاعة في كعكاتكم الرخيصة، واستغل طبعًا حاجة والدك إلى المال، واستمر في العمل معي حتَّى وفاة والدي، لكنه كما تعلم أفشى السر للدجالين، بعدما أصيب بالجنون ولذلك فالموت معلقًا كان مصيره الذي اِختاره لنفسه كما هو مصير هؤلاء الخونة. ومصيرك أنت اليوم. أشار البارون إلى رجل وفتاتين تمَّ تعليقهم في الدور العلوي بحبال غليظة وتكبيل أفواههم، كانوا ممزقين الثياب وعلى أجسادهم آثار تعذيب، اِندهش حمادة حيث كانت أزهار ومليكة وبجوارهم مساعده جيجي. فنقل بصره تجاه أمير الذي قال:

- لقد سرقوا البضاعة واستبدلوا الصناديق التي بها السكر المخصوص، بصناديق عادية، ثمَّ تعمدوا أحداث الحادث بالسيارة وإشعالها حتَّى تختفي معالمها، وتسدد ثمنها أنت بينما السيد جيجي وصديقاته ينعمون بالنصف مليون دولار، في بيروت. لم تنتبه إن كاميرات مصنعك معطلة، هل ترى لقد أديت إليك خدمة عظيمة. قال حمادة في حيرةٍ:

- نعم قدمت لي خدمة عظيمة في تدمير مستقبلي. مد يده بسرعة خاطفة

داخل قميصه وأطلق رصاصة على عنق أمير الذي اِنفجرت الدماء منه، بينما أطلق الرجال الرصاص على حمادة فأردوه قتيلًا. ثمَّ دوى صوت الرصاص من الخارج. فألقى الحراس أسلحتهم.

بعد عدة أيام:

جلست منى زوجة حمادة مع اِبنتها على متن الطائرة المتجهة إلى سويسرا، وهي تتشح بالسواد وتضع نظارة شمسية وتقرأ خبرًا مفاده.

مصرع بارون المخدرات أمير صميدة ومجموعة من أعوانه قبل مداهمة الشرطة لمكتب التوكيلات التجارية الذي يملكه، والذي كان يحوي مخبأً سريًّا تحت الأرض.

(25)

المُقاتل والوحش

تلك الأرض البكر والنباتات البرية العملاقة التي نمت فوق ذلك الشاطئ الصخري الرائع. أرض خضراء تمتلئ بالعشب الندي والثمار الغريبة المتدلية من الأشجار، ثمار حمراء شوكية كبيرة لها ملمس ناعم على الرغم من تلك الأشواك المحيطة بها، كانت الصغيرة تسير اِتجاه الشاطئ. حاول يحيى إيقافها وسؤالها، أين نحن وما الذي أتى بنا إلى هنا، لكنها تركت يده ووضعت أصبعها فوق فمها بحزم ليسكت، ثمَّ أشارت في حذرٍ اتجاه الشاطئ. شاهد يحيى صبيًّا صغيرًا، هزيل الجسد أصلع الرأس مستلقيًّا على وجهه، دون حراك، لكنه بدأ في الحركة عندما دوت في الجزيرة دمدمة مرعبة تبعها صوت خوار مخيف. جذبت الطفلة يحيى من يده ودعته للاختباء بين أشجار الموز الوارفة، وهي تتابع في قلق، ذلك الطفل الذي اِنتفض واقفًا وتوترت كل حواسه وقبض على يده، ثمَّ اِقترب من موضع في الأرض وحفره بيديه ليخرج سيفًا قويًّا كان أطول منه، حيث ظهر له وحش مخيف، يشبه سحلية ضخمة في حجم سفينة، اِقتربت منه وحاولت أن تمزقه بأسنانها، حملته عدة مرات وألقت به من ذلك الارتفاع الشاهق وحاولت دهسه بعد سقوطه أرضًا، إلَّا أن الطفل وقف على قدميه واستل سيفه وهاجمها مرة أخرى، بينما هي تبارزه بمخالبها، حتَّى قفز في الهوا وضربها في جسدها. فصرخت

صرخة مدوية بعدما اِنفجرت الدماء منها. اِزدادت جنونًا وهي تحاول قتله، كانت قواه تخور أحيانًا مع الضربات المستمرة منها لكنه كان يعود أقوى، حاول ضربها مرة أخرى إلَّا إنها عاجلته بضربة هائلة، طار على إثرها في الهواء، ثمَّ سقط فوق صخرة كبيرة فشجت رأسه، واستلقى بعدها على الأرض بلا حراك بينما هو لم يزل قابضًا على سيفه، اِنتشت السحلية المخيفة واقتربت من الطفل بأسنانها الحادة، تحاول اِفتراسه، إلَّا إنه اِستدار في اللحظة المناسبة ليغرس سيفه الحاد في عنقها فدارت حول نفسها بسرعة رهيبة وهي تطلق حشرجة مُزعجة، رجت الشاطئ الهادئ قبل أن تترنح وتسقط ساكنة، مخلفة عاصفة عنيفة من الرمال. تابع يحيى المعركة، وهو يلهث في رعبٍ، بينما الصغيرة روح الفؤاد تنظر في هدوء، لكنها اِنتبهت عندما رأت تلك الطيور النارية تقترب من الشاطئ، لقد رآها يحيى، من قبل إنها تلك التنانين الطائرة التي كانت تركلها بأقدامها وهي على الأرجوحة وكان حسن يقتلها بسيفه ذو النصلين الحادين. كانت تهبط بسرعة مخيفة وتقترب من الشاطئ في اِتجاه الصبي تحاول عضه، وكيه بالنيرات التي تخرج من فمها، فتركت مكانها بين الأشجار وانطلقت إلى أرض الشاطئ، بينما الصبي الصغير لم يزل نائمًا على الصخرة بعد صراعه مع الوحش. اِستلت روح الفؤاد ذلك السيف ذو النصلين الذي يستخدمه شقيقها حسن وهاجمتهم بشجاعة وبينما هم يقذفونها بالنيران كانت تسدد ذلك السلاح ذو النصلين بلفات دائرية بارعة كأبطال الألعاب القتالية، وتصرخ في شراسة فيسقطون في الماء واحدًا تلو الآخر، ثمَّ تعود وتلتقطه ببراعة وتعاود الكرّةَ من جديد، بدت صغيرة على كونها مقاتلة بكل هذه الشراسة. عاد الصراع مرة أخرى، فالتقطت الطفلة إحدى الثمار الحمراء الكبيرة وقذفتها في اِتجاه الطفل الساقط على الصخرة فانفجرت في رأسه كرة من الماء المنعش فنهض وفي يده السيف ليعيد الكرة مرة أخرى. كان يحيى خائفًا،لا يدري كيف يحارب تلك الوحوش على الرغم من كونه رجلًا أقوى من هؤلاء الأطفال، فتناول أحد الأغصان

القوية واقترب من الشاطي، إلَّا إن الوحش كاد يقتله بنيران لسانه، فقتله الصغير بسيفه الحاد وأشار إليه قائلًا:

- لا تظهر لهم فقط اِختبئ خلف تلك الشجرة. أعادته الطفلة ليختبئ تحت شجرة الموز، ثمَّ عادت لتقاتل. لاحظ يحيى ملامح الطفل، إنه يشبه ذلك الطفل كرم الله اِبن صباح جارتهم، يعرفه طفلًا مريضًا، هزيلًا فقد حيويته بسبب العلاج الكيميائي اللعين، آخر مرة رأه فيها كان يسير بالكاد وهو عائد من رحلة علاجه المؤلمة، الآن رأه بطلًا قويًّا مفتول العضلات، عنيدًا حاد القسمات وهو يُقاتل تلك الوحوش الخرافية باستماتة حتَّى قتل منهم الكثير، بعد معركة حافلة قاتل فيها هو وروح الفؤاد ببراعة. اِبتسمت روح الفؤاد له وسلمت عليه بود وسقته من الماء البارد الذي يسقط من تلك الثمار الحمراء الكبيرة، ثمَّ اِقتربا من تلك الأرجوحة العالية المعلقة بين نخلتين عاليتين على الشاطئ، كانا يتسلقانها بكل سهولة وكأنهما يتأرجحان في قرص الشمس، وكعادة روح الفؤاد كانت تركل تلك التنانين المخيفة كلما حاولوا الاقتراب. ظل يحيى يراقبهم في حيرة، إنه يعرف ذلك الولد كرم، فقرر النداء عليه، فقد يملك بعض الإجابات عن تلك الأسئلة:

- يا كرم، ياكرم، تعالى إلى هنا أتعرفني أنا عمك يحيى. تلفتت روح الفؤاد إلى أسفل بينما توقف كرم عن التأرجح هو وروح الفؤاد ثمَّ سقطا في الماء بمرح، بينما يحيى ينادي عليه بلا يأس حتَّى توقف الولد عن اللهو وخرج ببطءٍ من الماء، كانت جراحه قد اِندملت سريعًا وجسده قد اِستعاد قوته مرةً أُخرى، بدا أطول وأقوى مِمَّا اِعتاد أن يراه، كما أن جراحه قد اِندملت سريعًا قال له يحيى:

- أنا أعرفك، ألست كرم اِبن الست صباح جارتنا؟، نظر له كرم نظرة قوية ثمَّ هز رأسه بإيجاب، فارتاح يحيى قليلًا، فها هو يرى شخصًا يعرفه جيدًا في ذلك العالم الموحش. فقال له بودٍ:

- كيف حالك يا كرم؟. رد الفتى بهدوء:

- الحمدلله أنا بخير... كما ترى أُقاتل الوحوش في كل لحظة. كان الفتي يتحدث وهو يشحذ سيفه بقطعة من الصخر القوية بينما لاحظ ذلك السوار الأخضر القوي المجدول على معصمه الأيمن، فقال له:

- لكنه شيء قاسٍ عليك. رد الفتى بثبات.

- إنه قدري، وعلى الشجعان أن يتحملون أقدارهم بثبات، حتَّى يأذن الله.

تأمل يحيى كلمته التي جعلته يفكر كثيرًا. أعجب يحيى بشجاعته وهو يراه يمد يده المفتولة ويقطف ثمارًا حمراء تشبه المانجو، ويقدم واحدة ليحيى، الذي أعجب بطعمها كثيرًا، ثمَّ تناول واحدة أخرى تشبه جوز الهند ثقبها بسيفه وتناول ماءها الزلال. بينما يحيى لا يزال يتأمل جسده القوي الذي صار أشبه بأجساد المصارعين وهو يقول له:

- أنت محارب عظيم، لقد حاولت مساعدتك وخشي أن يذكره بأن الوحش لطمه فأسقطه أرضًا فعاد واختبأ لكن كرم قال له:

- كل منا عليه الآن أن يحارب معركته وحيدًا. ظل في حيرة وهو ينظر إلى روح الفؤاد المعلقة فوق الأرجوحة تركل التنانين بقدميها قائلًا:

- ولكن روح الفؤاد. قاطعه كرم قائلًا:

- روح الفؤاد تشبهني كثيرًا فعدونا مشترك.

سأله مرةً أخرى في فضول ولكن أين أُمك، صباح؟ وضع كرم يده على وجه في أسى قائلًا:

- لقد رحلت وتركتني أحارب منفردًا، ضرب بقدميه الماء عدة مرات وأشار ليحيى الذي نظر إلى الماء في دهشة فلقد رأى حياة الفتى تجري على الماء كشريط

سينما، شاهد فيه أمه صباح وهي تتزوج من رجلًا بدا غير مصريًّا، بعقاله وجلبابه الأبيض، ثمَّ وهي تسافر معه إلى بلاد بعيدة تاركًا إياه في مكان غريب وسط أناس لا يعرفهم، حتَّى ساءت صحته. دمعت عين يحيى لما يراه على صفحة الماء من مشاهد قاسية، لقد تحمل ذلك الفتى اليافع ما لا يتحمله بشر، لكن الفتى ضرب حجرًا في الماء فاختفت الصورة قائلًا:

- كما ترى لقد رحلت، تركتني للوحوش، وتركت لي كل تلك الأوراق المطبوعة، وقف يحيى مذهولًا وهو يرى أوراق النقود الكثيرة التي تسقط على الأرض، لتتحول بعدها إلى حشرات لزجة مخيفة تسقط في الماء فقال كرم:

- كنت أحتاجها أكثر من اِحتياجي للمال، ربت يحيى على يده قائلًا:

- أتمنى لو يمكنني مساعدتك، لكن كيف؟ نظر له الطفل وهو مستريح فوق الصخرة ثمَّ مد يده بتلك الثمرة الحمراء العجيبة قائلًا:

- اِشرب من تلك الثمرة، ثمَّ خذ هذا السيف واتبعني. رفع يحيى الثمرة على فمه فنزل عصيرها غزيرًا في فمه، واستل ذلك السيف الذي قدمه له كرم بعدما سمعوا دمدمات الوحوش مرة أخرى وهي تحاول أن تحتل الشاطئ، بينما هو يحارب الديناصورات الأرضية بضراوة، وظلت روح الفؤاد تقاتل على أرجوحتها في الهواء. لم يكنْ يحيى خائفًا هذه المرة على الرغم من ضراوة الوحوش التي أثخنت جسده بالجراح، إلَّا أنه كان سعيدًا وهو يستمع إلى صيحات الرضا والتصفيق من الطفلين قائلين:

- مرحبًا يا يحيى، أنت تقوم بعمل بطولي هنا، كانت الوحوش تلقي بكرات اللهب فوق الشاطئ فتحيله لجحيم لكنه كان يعود بعد ثوان من القتال إلى جنة خضراء تطير فيها الطيور الملونة وتسبح في الماء الدلافين. جلس يحيى يلهث بجوار كرم وروح الفؤاد، شكره كرم كثيراً قائلًا:

- قد قمت بعمل بطولي فشكرًا.

- شكرا لك أنت فلقد تعلمت منك الكثير لكنني سأعود وأنت معي يجب أن أساعدك. نظر له كرم في تردد، ثمَّ خلع سواره الأخضر من يده وأعطاه ليحيى قائلًا:

- المعركة لم تزل محتدمة، يجب أن أستمر في قتالهم، عندما تعود فقل لها أن تضع ذلك السوار حول يديّ مرة أخرى، قل لها أن تقرأ على رأسي القرآن كما كانت تفعل قديمًا، وأن تعود لتشرب من ماء السبيل كما اِعتادت، فذلك يخفف من وطأة الوحوش وقد ينقذني يومًا بإذن من الله، قل لها أنني أحتاجها ولا أحتاج تلك الأوراق الخضراء المطبوعة التي ظنت أنها ستسعدني فلم تفعلْ لي شيئًا. قال له يحيى:

- لكنها هامة يا كرم من أجل علاجك ضحك قائلًا:

- الدليل على ذلك أن حالتي ساءت بعدما صار عندي الكثير منها، أن ذلك الوحش يرسله الرب وهو وحده القادر على قهره. أنت هنا هل اِشتريت بها شيئًا هل اِحتجتها قط، هنا فقط تحتاج الرحمة لا أكثر، فقط قل لها ما قلته، تذكره يا يحيى فلسوف تحتاجه يومًا عندما تعود.

- أعود، مِن ماذا؟

- اذهب فقط الآن، وتذكر ما قلته لك. في رعاية الله، لوح له بسيفه القوي له بينما روح الفؤاد تدفعه إلى القارب الخشبي الصغير وتقفز خلفه بينما بقي كرم يحارب الديناصورات القادمة من الأرض والتنانين القادمة من الجو.

(26)

النخلة

الحمائم تنعم بالسلام فوق قمة الجبل، والمركب يتهادى برفق إلى الجزيرة التي بدت تنتشر بها تراتيل عظيمة، وكأن الصلوات قد عطرتها فبدت جزيرة هادئة متسامحة. شعر يحيى بالسكينة تجتاح روحه المتعبة. في تلك الجزيرة البيضاء، كل شيء هُنا ناعم، حفيف الأشجار الوارفة، هديل الحمائم البيضاء التي تحط وتطير في نعومة، حتَّى لون الموج أزرق ناعم وكأنه يجذب خيوطًا رقيقة من السماء الأشد زرقة، فيذوب ذلك اللون الساحر في البحر لم يكنْ يحيى يتحدث من فرط الجمال، كان لسانه يلهج بأشياء غير مفهومة، بينما عينيه مفتوحتان عن آخرهما، حالة من الصفاء العظيم، اِجتاحت كيانه وهو يتابع القارب الخشبي أثناء اِقترابه من شاطئ الجزيرة في هدوء، كاد يقفز شوقًا ليحتضن بجسده تلك الأرض الرملية البيضاء. الرحلة كانت ممتعة في البحر مع روح الفؤاد، التي تحسنت علاقتها به كثيراً بعد معركتهم المشتركة مع الوحوش. بدت سعيدة وهي تشير إلى السماء فيتأمل تلك الطيور الجميلة التي تسبح في الفضاء، أو تشير إلى تلك الدلافين المرحة التي تسبح بجوار القارب فيقفزان في الماء ويسبحان معها. علمته كيفية ركوب الدلافين والنداء عليها. أحس يحيى أنها قد اِستردت براءتها كطفلة تعشق اللعب مع الدلافين والجري خلف الفراشات الملونة، على الرغم من كونها مقاتلة شرسة

لم يرَ مثلها من قبل، لكنها اِختفت، بمجرد رسو القارب. نادى يحيى عليها دون جدوى، لم يستغرق شعوره بالوحدة وقتًا طويلًا، فلقد كان مشدوهًا من كل هذا الجمال المحيط به فالجبال ملونة، حمراء وصفراء وخضراء، ومنها ما هو نحاسي اللون، تلفت حوله عدة مرات رافعًا بصره لأعلى، لاحظ أن الجبال تختلف هنا، عن جبال جزيرة الوحوش التي يقاتل فيها كرم، فلونها كان أسودًا. جذبه صوت خرير الماء القوي القادم من خلف تبة متوسطة الارتفاع تقع في أقصى الجانب الأيمن. ذهب وصعد إليها، حتَّى يتمكن من رؤية مصدر الصوت، تنفس في سعادة وهو يتأمل تلك الأرض الخضراء الساحرة المُحاطة، بجدول ماء ينساب بقوة، وقد اِصطفت حوله الحيونات تشرب في سلام، دون أن يؤذيها أحد وفي نهايتها بيت ريفي ملون تجاوره نخلة طويلة مقوسة. اِسترجع يحيى ذاكرته. شعر أنه رآها من قبل سار بهدوء في اِتجاه الكوخ الملون. اِقترب ليجد شخصًا يرتدي الملابس البيضاء مكومًا فوق الحصيرة الكبيرة الممدودة تحت النخلة والتي تُساقط رطبًا جنيًّا، كان جائعًا يريد أن يأكل ويشرب، لكنه فضل الانتظار على الأريكة الخشبية المُريحة، ريثما ينتهي الرجل من صلاته. تأمله في إجلال وهو يسجد بكل حواسه ويرسل همهماته الدائمة إلى السماء. ظل يحيى يرقبه حتَّى اِنتهى الرجل وابتسم له في سلام، وكأنه يعرفه، لم يسأله حتَّى من أين أتى، بل نهض وجمع الكثير من التمر وغسله بماء الجدول الرقراق ثمَّ وضعه في وعاء خشبي جميل من خشب الأشجار وقدمه له قائلًا:

- سفرك كان طويلًا. اِبتسم له يحيى وهو يأكل التمر الرائع، ثمَّ اتبعه من الماء البارد لاحظ أن الطعام في تلك الجزيرة كان مختلفًا فالنخلة الوحيدة هنا كانت لا تتوقف عن إلقاء التمر أبدًا فالتمر في كل مكان. تأكل منه كل الطيور والحيوانات ومع ذلك فإنه يزداد. نظر له يحيى قائلًا:

- نعم لقد جئت من سفر طويل. قال له الرجل ببساطة:

- أجئت من أرض الوحوش؟، أرض الطفل المقاتل. اِحتار يحيى قائلًا:

- لماذا يقاتل وحده كل تلك الوحوش، إنه مسكين يقاتل وحيدًا اِبتسم الرجل قائلًا في حكمة:

- إنه ليس وحيدًا فهناك الآلاف يقاتلون مثله، كلٌ له مكانه. اِبتسم الرجل مرة أخرى قائلًا، وهو يشير إلى حصيرته التي فرشت بجوار النخلة:

- لقد توقفت قليلًا حتَّى أقدم لك الطعام فأنت ضيفنا، لذا وجب أن أعود مرة أخرى للصلاة. تأمله يحيى قائلًا:

- هل أعرفك؟ أشعر أننا اِلتقينا كثيرًا وتحدثنا لكن أين، ومتى لا أتذكرفمن تكون؟. قال له الرجل في حزم: ستعرفني جيدًا عندما تعود، فيوم ميلادي هو يوم وفاتي، وقبري هو موضع سجودي!! ثمَّ أشار إلى موضع حصيرته التي يصلي عليها قائلًا:

أنا الراقد تحت النخلة المعقوفة في سلام، والتي ستظل تغدق خيرًا إلى يوم الدين. لقد ولدت هنا وعشت هنا ولسوف أبعث باذن الله من هنا. اِلتهم يحيى التمرات وشرب الماء لقد شعر بارتواءٍ وسكينة لم يشعر بهما من قبل. كان ممتنًا للرجل قائلًا:

- لا أعرف كيف أشكرك، لقد كنت متعبًا، لكنني أريد العودة إلى أهلي، فأرجوك دلني على الطريق، اِبتسم الرجل قائلًا في حكمة:

- أنت متعبٌ منذ زمنٍ يا يحيى، ألقِ حمولك التي أثقلت ظهرك وارتاح، ثمَّ خلع شاله الأخضر ووضعه على كتفه وألبسه خاتمه النحاسي الأحمر والمكتوبٌ عليه بنقشٍ جميل كلمة، فإني قريب. تأمل يحيى تلك الأشياء ونظر للرجل الذي قال له، وهو يشير إلى بيت قصير على النهر، قائلًا اِذهب إليه فهو ينتظرك.

- من تقصد، قال الرجل:

- غازل السجاد، اِذهب إليه وسوف تعرفه بقلبك. سار عبر الممر الرخامي العتيق، والذي اِنتهى بغرفة كبيرة أنيقة الطراز، تحتوي الكثير من السجاجيد الأنيقة على الحوائط، والأثاث الخشبي الأنيق، بهره اللحن الشرقي لموسيقى شهرزاد لكورساكوف. تأمل تلك السجاجيد الرائعة المعلقة على الحوائط، كل منها يحكي قصة، أو يخط حكمة، لم يشعر إنها غريبة عنه، لقد اِرتبط بها في زمانٍ ما، اِنتبه إلى ذلك النول الخشبي الكبير المعلق في نهاية الغرفة لاحظ ذلك الرجل المنهمك عليه يعمل في جد، بينما ظهره ليحيى، الظهر محني قليلًا، لكنه قوي، كانت السجادة التي يعمل عليها جميلة لكنها لم تكنْ اِكتملت بعد. لاحظ يحيى تلك الكلمات المخطوطة على السجادة، نصف آية فقط، لم تكنْ بعد. بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا مرضت.....، كان النصف الثاني لم يكنْ قد اِكتمل بعد، لكن ناقش السجادة كان يجاهد. حاول يحيى جذب اِنتباهه في البداية إلَّا أنه لم يفلح حتَّى قال له يحيى:

- سوف تكون تحفة فنية رائعة. اِلتفت الرجل ليحيى فشعر كم هو قريب منه، كان الحزن باديًا على وجهه وهو يقول:

- وما الفائدة إذا لم يكنْ الوقت في صالحي. قطب حاجبه مندهشًا:

- وما الذي يمنعك؟. اِبتسم الرجل في يأس:

- الخيوط لا تريد أن تكتمل، لقد اِنتهى وقت إكمالها بالنسبة لي، فلا يمكن ذلك، وليس عندي من يكملها. قال له يحيى في حيرة:

- لماذا؟ ألا يوجد أحد يعاونك على إكمالها، اِبتسم الرجل في أسى وهو ينظر لعينيه في قوة:

- كان عندي، لكنه هجرها، قرر ألَّا يُكمل، رحل وتركها تعاني الهجر، فلا أملك لنفسي شيئًا أنا أدعو له فقط.

صمت يحيى ثمَّ خطى عدة خطوات بالقرب من الرجل، تأمله يحيى قليلًا، تلك المسبحة الزرقاء التي لم تكن تفارقه، وذلك المصحف المفتوح، جلبابه المغربي المزركش الذي يصلي فيه الفجر، اِقترب يحيى ليحتضنه لكن الرجل، ظل جالسًا ينظر للسجادة في حسرة بينما. اِقترب منه يحيى باكيًا:

- لقد اِفتقدتك كثيراً يا عم آدم، كانت تلك الكنية التي ينادي بها يحى على أبيه دائمًا، لكنه بدا غاضبًا كثيراً كما كان آخر مرة. قال له يحيى مشيراً للمسبحة الجميلة:

- لقد وعدتني أن أحصل عليها: غمغم الرجل يائسًا:

- وماذا فعلت من أجل أن تحصل عليها يا يحيى، لقد وعدتني أن تكمل أنت الآخر ما بدأته أنا، لكنك ضيعت ما علمتك إياه، أنت الوحيد الذي تعلم مني ذلك الفن، ووعدتني أن تنهيها، لكنك ضيعته ولسوف تضيع منك السبحة كما ضاع كل شيء، ظل آدم يسبح بها وهو يتجنب النظر إلى يحيى الذي قال له:

- لا لن تضيع أعدك بذلك، رد الرجل في حزم:

- أنت لست بخير الآن، سوف تجدها عندما تستعد لحملها، حاول يحيى أن يجذب اِنتباه والده آدم الطيب فقال:

- أرجوك انظر لي، كيف أعود وكيف أحصل عليها، دلني يا أبي، فلقد ضاع مني الطريق. نظر له آدم الطيب نظرة ثاقبة ثمَّ قال وهو يحتضنه في حنان مشيراً إلى خيوط السجادة، صل تلك الخيوط تصل، أكملها يا بني فلقد كانت رسالتي لك، تأملها يحيى مرة أخرى وهو يقرأ:

- بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا مرضت وبقيت الخيوط ناقصة لباقي اللوحة..... أومأ يحيى برأسه ودمعت عيناه، فقال الأب في حب:

- فهو يشفين، عندما يضيق بك الطريق وتمطر عليك السماء، عندما توحل الأرض، ويعوي الرعد، ارفع رأسك للسماء واصرخ بكل ما أوتيت من قوة بكلمة... يارب ظلت الكلمة تدوي في أذنه، وهو يحملق في السجادة المعلقة على النول الخشبي، تلفت يحيى فلم يجد الرجل. عاد مرة أخرى. إلى الرجل الساجد تحت النخلة المعقوفة قائلًا:

- أين ذهب والدي آدم الطيب، فرد الرجل بهدوء:

- ليس المهم أين ذهب، المهم أن تسمعني جيدًا، اِذهب إلى الأرض التي تنتظرك لتزرعها بالخير والحب، اذهب هناك يا يحيى، مد يده وخلع الشال والخاتم وقدمهما له قائلًا هؤلاء هما دليلك فلا تفقدهما، أومأ يحيى برأسه موافقًا، فاستدار الرجل قائلًا:

- والآن سأتركك وأذهب أنا الآخر، فقال له يحيى:

- أذن أرجوك أصحبني معك، قال له الرجل في حزم:

- لكل منا مسلكه فالزم مسلكك، لكن ثق إننا سوف نتقابل ثانية. اِقترب منه واحتضنه بسرعة، وعدل له الشال الأخضر على ملابسه البيضاء، ثمَّ أدار ظهره واختفى في لمح البصر. بحث عن طريق الخروج فوجد روح الفؤاد تنادي عليه من بعيد وهي تركب القارب الخشبي وتنتظره حتَّى ينتقلا إلى جزيرةٍ أخرى.

(27)

الطفلة الشجرة

القارب الخشبي تهادى بالقرب من جزيرة تعج بالحياة حيث كان الصغار يلعبون مع الدلافين في الماء، ومنهم من كان يجري خلف الفراشات الملونة ثمَّ يصعد فوق الأشجار ويسقط في الماء دهش يحيى جدًا عندما أشار للقارب في سعادة بمجرد أن لمحوا روح الفؤاد. بدا إنهم يعرفونها جيدًا، حتَّى إنها لم تنتظر أن يرسو القارب عندهم، بل قفزت في الماء وهي تحتضنهم في سعادة بينما هم يلتفون حولها ويصرخون من الفرحة. نزل يحيى على أرض الجزيرة وهو يشعر بالفرحة التي تغمر تلك الأرض المنبسطة التي تكسوها الخضرة وتطير في سمائها الطيور الملونة وتكثر بها الأشجار المثمرة. حيث كان الأطفال يصعدون فوقها ويلتقطون التفاح ويلقونه ليحيى ترحيبًا به وبروح الفؤاد. جلس يحيى في سعادة يتأملهم وهو يلتهم الفاكهة اللذيذة، لقد قرر أن يلعب معهم هنا، فقد عاد طفلًا سعيدًا كما مضى. الأطفال مشغولون في القفز والصياح وتقاذف الفاكهة لكنهم توقفوا عندما سمعوا بكاءً طويلًا. ثمَّ جروا إلى يحيى وهم يشيرون إلى نقطة هناك ما بين أشجار الفاكهة أشاروا له أن يتبعهم ومعهم روح الفؤاد حتَّى وصلوا إلى شجرة مخيفة ضخمة أصابت روؤيتها جسد يحيى بالقشعريرة وجعلته يتراجع في ظهره كانت الشجرة تصرخ بينما أوراقها الحمراء تقطر دمًا و يحيى يرتعد خوفًا

عندما أشارت روح الفؤاد إلى جذعها الضخم الذي كان مجوفًا وله قضبان قوية من الأخشاب الجافة. وفي داخله كانت هناك طفلة في السابعة من عمرها تبكي باستمرار دون توقف، وهي وتحاول فك القضبان. أشاروا له أن يقترب فاقترب في رعب لكنه فهم إنهم يريدون منه أن يفتح ذلك المزلاج وبالفعل حاول يحيى أن يفتحه إلَّا أنه بقى صامدًا ولم يستجب لمحاولات يحيى المستمرة في فتحه ومعه الفتاة التي مدت يدها الغليظة لتفتحه. تراجع يحيى في فزع عندما شاهد كفها الذي تحول إلى أفرع شجرة جافة لكنها نادت عليه قائلة:

- أرجوك يا يحيى أخرجني من هنا، أريد أن ألعب معهم ولو يوم واحد تصم رايح وهو يسمعها تنادي باسم هو فقال لها:

- هل تعرفيني؟ ردت عليه في عتاب قائلة أنت أيضًا تعرفني فنحن جيران هل تعلم أنني شاهدته مولدك نعم، لقد جرى اِحتفال السبوع أمامي في حديقه منزلي. رد يحيى قائلًا في حيرة:

- ولكن كيف هذا؟ أنا أكبر منك كثيرًا، ابتسمت الفتاة في حزن، ثمَّ قالت:

- أنا لا أكبر يا يحيى سأبقى هنا إلى الأبد حبيسة هذه الشجرة، التي تقطر دمًا حتَّى يفصل الله في حقي. فقال لها:

- تقولين إننا جيران فأين تسكنين؟ ردت عليه بتلقائية:

- أنا أسكن هناك في منزل الحارة الترابية. فتح يحيى فمه واتسعت حدقتاه وهو يقول:

- تسكنين عند العفريتة؟! أقصد روحية نظرت له، قائلة والدموع في عينيها:

- وأين هي روحية؟! لقد رحلت وتركتني وحيدة، أن مصيرنا معًا فقل لها، إذا لم ترجع قريبًا سوف أشعل المنطقه نارًا لن يتحملها أحد. سألها في حدة:

- ولكن أين ذهبت؟، وماذا لو لم تتمكن من الحضور للبقاء معك. قالت له:

- ستجد العنوان مكتوبًا فوق البوابة الحديدية. تعال وزرني أو أسقني من ماء الزير الموجود في الحديقة وسيهدأ كل شيء. المهم الآن أطلق سراحي كي ألعب مع الصبية. حاول يحيى عدة محاولات لفتح المزلاج الخشبي العنيد وفي كل مرة كان يفشل، تبكي الطفلة حتَّى نجح في فتحه أخيرًا، فانطلقت تلعب معهم وانطلق يحيى هو الأخر يجري خلفها ويقفز في الماء. لعبوا حتَّى أنهكهم التعب، فسقطوا جميعًا على رمال الشاطئ الذهبية من التعب، لكن الفتاة نهضت ومديت يدها إلى يحيى، ثمَّ نظرت له في امتنان:

- لن أنسى لك ماقدمته من أجلي، اِسمي مريم، أو الفتاة الشجرة كما يناديني الجميع. مد يحيى يده ولمس كف مريم المتفرع كأغصان الشجر، دون خوف هذه المرة، ثمَّ قال لها:

- لقد سعدت كثيراً باللعب معك يا مريم،أنت فتاة رائعة. وأتمنى أن أراك مرة أخرى، اِبتسمت مريم، ثمَّ قالت في ودـ

- أعدك أننا سنتقابل قريبًا يا صديقي سألها إلى أين أذهب، دلته على جذع شجرة أجوف يقف على ربوة عالية، بدا شكلها غريبًا كزلاجة قديمة، لا يدري يحيى لماذا قرر أن يضع قدمه فيها، وسرعان ما اِنزلقت به بسرعة خرافية على أرض منحدرة وهي تأرجح به يمينًا ويسارًا حتَّى ظن أنه يركب أحد قطارات الملاهي السريعة. ثمَّ قذفت به في الهواء في منتصف أرضٍ رملية، شعر بقوة هواء البحر، ولاحظ ذلك الكهف المرتفع الذي يعلوها لكنه اِختبئ عندما انتبه إلى تلك الوحوش التي تحرسه.

(28)

الكهف

اِختبأ يحيى خلف الصخور الكبيرة، بعدما سمع زمجرة الوحوش عند الكهف. دق نفيرٌ نحاسي في الجبل جعل الحيوانات تصطف في اِحترام وهي تقترب وكـأنها فرقة عسكرية مُنظمة. تحرك يحي بهدوء حتَّى لا يكتشفون وجوده، لمح تلك النقوش الموجودة على الكهف من الخارج، بدت كنقوش بدائية محفورة منذ فجر التاريخ، لناسكٍ يتعبد وحوله ترابض الحيوانات في سلام، الجميع يصطف في حزن لكن البوق دق مرة أخرى بصوتٍ أعلى، لقد كان يصدر من فيل ضخم يقف أمام الكهف، وهو يضع بوقًا نحاسيًّا في خرطومه القوي، ثمَّ اِصطف مرة أخرى في اِحترام. لاحظ يحيى ذلك الرجل القوي عاري الصدر الذي، وقف أمام الجموع كقائد عسكري، رشيق الجسد كالسباحين، مهوش الشعر، له لحية مشذبة، وحول رقبته خيط قوي في طرفه حمامة بيضاء جميلة الشكل كانت تفرد جناحيها عندما يتحرك وكأنها تطير حاول أن يتمالك أنفاسه إلَّا إنه شاهد أربعة حمير قوية تسحب عربة خشبية بدائية عليها جسد أسد قد فارق الحياة، وتتحرك به في اِتجاه حفرة كبيرة، بينما وقفت الحيوانات أمامها، كانت الجنازة مهيبة حيث أسقطوا الأسد القتيل في الحفرة ثمَّ أهال الرجل عليه التراب وهو يقوم ببضع إشارات بيديه، ثمَّ نهض ووقف أمام القبر منكس الرأس، بينما الحيوانات، تصدر مزيجًا من

الأصوات المُزعجة التي رجت الأرض. بدا ليحيى أنهم يلقون على صديقهم عبارات التأبين، ثمَّ دقت الأجراس مرة أخرى، فقفز الرجل فوق صخرة عالية، ووقف يتأمل الحيوانات قليلًا ثمَّ قال في حزن لا يخلو من هيبة:

– اليوم نفقد سلطان الحكيم، أحد الجنود الأقوياء في المملكة، كان سلطان يفصل في القول وينصر الضعيف ويأتي للمظلوم بحقه، إنه الأسد الوحيد في ذلك الكون الذي خرج عن طبيعته الشرسة حتَّى لا يظلم أحدًا، كان مقتصدًا وشجاعًا في كل تصرفاته. كانت الحيوانات تدمدم وتتأود حزنًا على قائدهم الحكيم، وقف كل منهم يلقي بضع إشارات أو جمل لا يفهمها سواهم، ثمَّ وضعوا الزهور على قبر سلطان الأسد. وانصرفوا حزنًا إلى البحر أو إلى التلال الكثيرة المتشعبة، بينما عاد الرجل في اِتجاه باب الكهف، لكنه نظر إلى أعلى حيث الصخور، ثمَّ قال ليحيى:

- أخرج من الظلام ولا تخشى شيئًا، لقد أبلغني السيد زين أنك قادم.

خرج يحيى في اِستسلام بينما الحيوانات تراقبه في توتر، بدا الكهف غريبًا من الداخل فالجدران منقوشٌ عليها الكثير من القصص والسير مكتوب تحتها برموز غريبة كانت أبرزها لشاب قوي، أصفر الشعر ملون العينين، عاري الصدر، يصطاد الأسماك من الماء بيديه العاريتين، ويطعم الحيوانات، لاحظ تلك الحروف المكتوبة بعربية متفرقة اِندهش لكلمة روح سليمان، لاحظ تلك الصغيرة، النائمة في مهدٍ خشبي عتيق، بينما الرجل القوي يهدهدها في وداعة، يالله لقد رأى صورتها من ذي قبل ويعرفها جيدًا، شقراء جميلة لها رموش طويلة، طفلة لم تتجاوز السادسة، تُشبه لحد كبير ماجي حفيدة جرجس مقار؟ فما الذي أتى بها إلى هُنا ربت الرجل بقوة على كتفه قائلًا:

- نعم، أنها هي، كانت لا تزل نائمة في وداعة في مهدها الخشبي الجميل. فرد عليه يحيى في حيرة:

- وما الذي أتى بها إلى هنا؟، هزَّ الرجل كتفه في اِستسلام:

- أنا لا أعرف يايحيى. رد يحيى بهدوء وهو يتأمل ملامح وجهه القوية:

- هل تعرفني؟ اِبتسم الرجل في هدوء قائلًا:

- كلنا أخوة في الملكوت، كلنا نعرف بعضنا. قال له يحيى مسرعًا.

- وجهك محفور بداخلي لكني لا أذكر، أين ومتى رأيته؟ لم يُجب الرجل عن السؤال، بل اِستمر في إعطاءه المزيد من الفاكهة قائلًا:

- أعلم أنك تشرب النامر منذ الأمس، ولقد مللت ذلك، يمكنك أكل ما شئت من فاكهة، كانت سلال الفاكهة تملأ المكان فتناول يحيى ما شاء، ثمَّ عاد وتأمل الطفلة النائمة داخل المهد الخشبي الجميل كدمية باربي جميلة، ليس فيها روح بينما الشاب القوي قد جثى على ركبته يقرأ في كتاب، وهو يتمتم في خشوع وقد اِرتدى قميصًا من كتان يميل إلى الصفرة. أيقن يحيى أنه يصلي، فتأمله في راحة حيث عمت السكينة المكان بعدما رحلت الحيوانات إلى منازلها أو اِسترخت داخل مياه البحيرة الصافية. شاهد يحيى ذلك النور القادم من خلف الجبل وسمع همهمات الرجال وصوت اِبتهالاتهم تأتي بقوة لقد سمع أصواتهم قبل ذلك أنه يعرفهم جيدًا. جلس يحيى بجوار الشاب القوي على الأرض قائلًا له في حيرةٍ:

- أنا لا أعرف أين أنا فهل تدلني على الخروج؟ رد الرجل في حكمة:

- الخروج إلى أين؟

- إلى حياتي، إلى منزلي!! هل مت؟ اِبتسم الرجل قائلًا:

- وهل كنت حيًّا قبل ذلك، نظر يحيى إليه بدهشةٍ قائلًا:

- بالطبع لقد كنت.... صمت يحيى، وهو يرى تلك الصور المتتابعة التي تمر أمام عينيه كفيلم سينمائي سريع فصمت خشية أن يراه الرجل الصالح فينفر منه، كانت الهمهمات تزداد وصوت تراتيل الرجال تملأ الجبل فقال له الرجل:

- يا بُني هناك أمواتٌ أحياء، وهناك أحياءٌ أموات، فقرر أين ستذهب، أنت من تتخير إلى أي الفريقين تنتمى. قال له يحيى وهو يهز رأسه في أسى:

- صدقت يا سيدي، ولكن لا أظنني فاعلٌ شيئًا، وأنا هائم في الملكوت، لقد ضعت أنا الأخر في المتاهة الكونية. اِبتسم الرجل في هدوء قائلًا. أريد أن أرسل معك شيئًا لصديق. دهش يحيى قائلًا:

- بالتأكيد ولكن كيف؟ اِبتسم الرجل في طيبة وهو يجذب ذلك الشريط الأحمر الملون الذي تزين به الطفلة الصغيرة شعرها ففتحت الطفلة عيناها وابتسمت فربت الرجل القوي بحنان على وجهها، وظهرها فنظرت له باسمة ثمَّ طارت وارتفعت خلف الطيور الملونة. أخذت ترتفع أكثر حتَّى اِختفت عن ناظره. تأملها يحيى في عجب، لكن الرجل وضع في يده الشريط الأحمر، ثمَّ ربطه حول حمامة عاجية صغيرة منحوتة نحتًا بديعًا، وكأنها توشك على الطيران، ثمَّ قال ليحيى:

- دع الأمور تسير كما قُدر لها، فأنت ستعلم كل شيء عن قريب، ولكن كل ما أطلبه منك أن تخبره، بأن لا يبرح الأرض، وأن يبقى هنا، قل له فقط:

- ابقى هنا بين الكتف والقدم في كنف إخوانك الذين سيحملونك إلى حضن الجبل الذي تحوم حوله الفراشات، وتأنس فيه الطيور، ابق هنا في سلام. فقط قدم له هذه الأشياء وهو سيفهم قال له يحيى في حيرة:

- هل يمكن أن أعود يا سيدي؟ فأنا مثلك حبيس الملكوت، وأتمنى أن أتغير أن أصبح إنسانًا آخر لقد اِكتشفت أنني شخصٌ سيئ، لم أفعل شيئًا جيدًا واحدًا في تلك الحياة البائسة:

رد الرجل في هدوء:

- النهايات يا بني، النهايات هي كل شيء. دعني أحكي لك تلك القصة العجيبة، أشار إلى السرير الخشبي الجميل الذي كانت تنام فيه الطفلة قائلًا:

- هل ترى ذلك المهد الجميل، قال له يحيى، نعم أنه جميل بالفعل، فقال له الرجل:

- لم يكنْ كذلك عندما ألقاه البحر إلى هنا هنا، فلقد كان مزودًا حقيرًا تأكل فيه الحيوانات. لكن الهاتف الرباني، ناداني أن أصنع منه مهدًا جميلًا للطفل فصنعت، وتلك المركب الخشبية الجميلة، أتعلم ماذا كانت؟ لقد كانت مركب صيدٍ مهدمة تفوح منها رائحة نتنة. لكن الله هداني وصنعتها، ظلت عاكفًا أقطع الليالي والأيام حتَّى تصبح بهذا الشكل بر أمان للملهوف. الإنسان مثل أخشاب الأشجار تلك، بداياته واحدة لكن نهاياته مختلفة. المهم ما الذي آل إليه حاله وكيف انتهى. هز يحيى رأسه باكيًا لكن الرجل قال له:

_ أنت مثلًا يمكنِ أن تكون، غير ذلك الولد القاسي الذي كاد يخنق الكلب الصغير بأنشوطته.عندما كان صغيرًا، يمكنك أن تكون إنسانًا آخر أكثر رحمة واتزانًا.

اِنتفض يحيى قائلًا:

- أجل، لقد تذكرتك الآن، لا أحد يعرف ذلك سوى ذلك الرجل الطيب الذي كان يسكن بيتًا غريبًا تعلوه ربوة تعج بها الحيوانات، والحمائم وكأنه كهف بدائي شُيد من بدء التاريخ، أنت المقدس ملاك الطيب، صديق الحيوانات، الذي كانوا يحكون عنه دومًا لقد رأيتك مرة عندما كنت صغيرًا، وأنت الذي خلصت الجرو المسكين من أنشوطتي آنذاك لقد عرفتك، وبالطبع عرفت من صديقك. نظر له الرجل بجدية، قائلًا:

سمع يحيى قرع الطبول القادم خلف الجسر. سأله يحيى:

- ماهذا الصوت؟ قال له الرجل:

- إنه صوت رجال الجوقة، إذا أردت الذهاب إليهم يجب أن تحترم قوانينهم، وإلَّا فلا تذهب. دفعه الصوت العذب والضوء الساحر لعبور الجسر الخشبي ليجد نفسه على الأرض الأخرى.

(29)

ثمن العفو

الأرض باردة قليلًا وقمرها يضيء السماء بشدة. وجد رجالًا يفترشون الأرض في حلقةٍ كبيرة حول النيران وهم يبتهلون ويذكرون، ذلك الصوت المنغم ليس غريبًا عليه فلقد سمعه قبل ذلك مراتٍ عدية لكنه لا يذكر متى وأين. اِبتسم لهم لكنهم ظلوا متجهمين ولم ينظروا له، حاول أن يقترب أكثر، لكنه تعثر في صخرة كبيرة أسقطت أرضًا، لم يتمكن من النهوض عندما وجد عجوزًا معه كلابة قوية، يضغط بها على يد يحيى، الذي أخذ يصرخ في ألم مستغيثًا بالجوقة التي اِنشغلت بالذكر ولم تلتفت إليه، حتَّى بعدما صرخ يحيى قائلًا:

- اترك يدي، لماذا تفعل ذلك، فنظر له الرجل العجوز بغضبٍ قائلًا:

- هذا مؤلم، أليس كذلك؟!، إذن لماذا فعلت ذلك بي، قال يحيى في ألم:

- أنا لم أفعل شيئًا، صرخ الرجل في غضب:

- بل أنت من ضربني وكسر يدي، يوم أن عدت ثملًا مع صديقك. صرخ يحيى في فزع قائلًا:

- لا، أنا لم أكسرها، أن فقط كنت أحاول أن أدخل إلى الساحة وأنت منعتني.

- تدخل الساحة وروحك مدنسة، والله ذلك لم يكنْ يحدث ولو فنس جسدي كله، كانت يد يحيى لم تزل

تدهسها الكلابات الضخمة، قال الرجل:

- لقد اِشتركت معه في ذلك الجرم ثمَّ هربت، أنا سأقتص منك. حاول الرجل تحطيم يد يحيى إلَّا أن الرجال منعوه قائلين:

- اِهدأ يا أخيل، إنه ضيف السيد زين، ولا يُمكن أن نفعل به هكذا رد أخيل بغضبٍ:

- لقد آذاني أذًا شديدًا، لقد منعني من كسب رزقي، الذي أرعى منه حفيدي، ومنعني من الصلاة في المسجد، ومنعني من كنس الساحة الطاهرة.

فاقترب كبيرهم وهو يجذب يد يحيى من براثن الكلابة التي أدمتها، ثمَّ وضعها في الماء المالح ليصرخ يحيى ألمًا وتلتئم جراحه فورًا ثمَّ قال بعدما أجلسوه بالقرب من ضوء المشاعل وكأنهم قد عقدوا له محكمة سريعة:

- إذن هو ملزمٌ بإصلاح ما فسده، همهم الجميع بينما رفض الرجل قليلًا، ثمَّ قال:

- إذن يرعى حفيدي ويصلي الفجر في المسجد ويكنس الباحة كل يوم جمعة قبل الصلاة كما كنت أفعل. اطرق يحيى قليلًا، وهو يفكر، ثمَّ قال:

لقد كانت تلك الأشياء صعبةٌ عليّ فيما مضى، لكنني سأحاول. رد الرجل في غضب:

- لا، بل إنك ستفعل، هذا هو ثمن العفو. أطرق يحيى قليلًا بينما جاءه صوت الرجل الرزين القادم من المنتصف قائلًا:

- هل توافق على ما قاله يا يحيى، هل أنت قادر على دفع ثمن العفو. قال يحيى وهو ينظر إلى النار شاردًا:

- أجل أوافق على كل شيء. تهلل الرجال واحتضنوه بود فخضبته رائحة المسك

التي تملأ أجسادهم، حتَّى أخيل اِحتضنه وهو يخبره بأنه قد سامحه تمامًا، فقال لهم كبيرهم وهو يدفع لهم يحيى قائلًا:

-هذا أخيكم فحيوه جيدًا، وأخذوا يدورون حوله ثمَّ اقتادوه بلُطفٍ إلى بئر الماء الباردة، وأمروه أن يخلع ملابسه ويغتسل. شعر يحيى بأن روحه تعود، وبأن كل جراحه تلتئم. أمروه أن يتوضأ، فتوقف قليلًا وكأنه نسى الوضوء، لا يتذكر آخر مرة أقام فيها صلاته، لا بد أنها منذ زمنٍ طويل، لكن الرجل أرشده، ثمَّ تركه يصلى بعدما قدم له العسل. لم يشعر يحيى في حياته كلها بمتعة تفوق ذلك الشعور. جلسوا بعدها في نصف حلقة وهم يذكرون الله في حب. ذاب يحيى معهم وتعرق جسده، وسخن بشدة، حتَّى شعر أن جسده يغلي على مرجل، فسقط أرضًا فاتحًا فمه، وهو ينتفض بشدة وكأنه يحتضر بينما صوت الطبول تدق في الأفق فتصم الآذان، أخذوا يرقبونه في خيفة وهم لا يتوقفون عن الذكر مرددين كلمة، الله، وهو ينتفض مغمضًا عينيه، حتَّى خرج ذلك الطائر الأسود المخيف من فمه محدثًا قعقعة مزعجة اِشمئز لها رجال الجوقة، تركوه يطير وهو ينعق بصوتٍ رفيعٍ مُزعج، حيث أخذ يدور حول النار الكبيرة ثمَّ سقط فيها، واحترق تمامًا، مخلفًا كمية كبيرة من الدخان بعدها فتح يحيى عينيه ونهض جالسًا فوجد الطفلة روح الفؤاد تجذبه من يده وهي تقول هيا بنا لقد تأخرنا.

(30)

الأرض صفر

اِستغرق الأمر فقط عدة دقائق، منذ رحيل القارب الصغير عن الجزيرة البيضاء، ويحيى يحاول الاتزان فيه، مع كل تلك الأشياء التي حصل عليها لكنه لم يكنْ يعرف إذا كانت ستصل إلى أصحابها أم لا. الأمر كان مُجرد محاولات يائسة منهم. لكن لكل شيء توقيت، هذا أهم درسه تعلمه في الأرض صفر، لا يعرف من أين أتى عقله بهذه التسمية الغريبة، قد يكون قد حصل عليها من فرط قراءته لروايات أجاثا كريستي واتش جي ويلز، لكنه كان راضيًا تمامًا عن ذلك الاسم، الزمان والمكان صفر على هذه الأرض، فلا يمكن تقيمهم بمقاييس عادية، فالساعة تعود إلى الوراء، قد تعود إلى العصور الحجرية أو إلى أيام التكوين، حيث خلق الله الدنيا، وقد تسبقنا إلى زمنٍ آخر، يعيش فيه الناس في كبسولات فضائية. أما المكان فلا حدود للمساحات، كيف لطفلة لم تتجاوز الثامنة، أن تقطع تلك الهكتارات المرعبة أرضًا وفضاءً،على أرجوحة أو من خلال نفق بلوري عجيب، أو حتَّى بقارب خشبي متهالك كذلك الذي يركبونه الآن، في الأرض صفر لا يجب أن تسأل الكثير من الأسئلة، المتعلقة بالزمان والمكان، فلا أحد هنا سيجيبك.لا يعرف يحيى إذا ماكنوا يعرفون الإجابة ويحجبونها عنه لأمرٍ ما، أم أنهم مثله لا يعرفونها من الأساس؟ لكن لا فرق فالإجابة محجوبة عنه على أية حال. تعلم يحيى أن

يحترم ذلك المنطق، ومع مرور الوقت، فقد الإحساس به تمامًا، لم يكنْ يعلم كم قضى وكم سيقضي هنا. لكنه اِكتفى بالمشاهدة خاصة إنه لم يُطلب منه عمل شيء. كان الظلام قد ساد من جديد وارتفعت الأمواج بشكل مخيف، واشتدت الرياح، والقارب يتأرجح ككرة مطاطية وسط ذلك البحر الذي اِرتفع بطول مبنى من ثلاثة طوابق، كل شيء كان مرعبًا حتَّى تلك التنانين النارية التي عادت تبصق النيران فوق القارب. لكن الطفلة عادت أقوى من جديد، كانت في غاية الشراسة وهي تواجه الأمواج العاتية وتلك الوحوش الطائرة. ساعات طويلة ويحيى يدفع تلك التنانين، بسيفه، لقد اِكتسب مهارات قتالية خاصة، لم يعتدها من قبل، لكنه لم يأبه، حتَّى بعدما عضه أحد التنانين المتوحشة، صرخ واستمر في قتاله حتَّى قتله وألقاه في البحر. القارب يئن وتتفكك مساميره العتيقة، تحت الضربات المتواصلة من الأمواج المرتفعة، وذيول التنانين الضخمة المخيفة، لقد سقطت معظم ألواحه ولم يبق منه سوى بضعة خشبات، والقلع القماشي القوي، لكنهم لم يستسلموا لقد تعلم الصمود أمام الهجوم الضاري منهم. تعلم من الطفل كرم ومن الصغيرة روح، أنه يمكنه القتال حتَّى آخر رمق، لكن الاستسلام يأس، واليأس خيانة. القارب تحطم تمامًا لكنهما ظلا واقفين على حطام خشباته وهم يقاتلان بالسيف. حتَّى سقطت آخر موجة من الوحوش الطائرة. كان حطام القارب، يقترب من ذلك الشاطئ الرملي الناعم المضاء بالنيران، المباني فاخرة بشكلٍ رائع والموسيقى تصدح فوق الشاطئ الذي تمَّ فرشه بنباتات حمراء تشبه الورود، الفتيات جميلات يرتدين ملابس الشاطئ العارية تذكر زياراته المتكررة لشواطئ الأغنياء في الساحل الشمالي، حيث كان يوزع المقرمشات، وكان يحقد عليهم، لماذا لا ينزل من سيارته الصندوق الحقيرة ويجلس معهم، تقاطع أمنياته ضحكات زميله النوبي حمدينو، قليل الطموح والموهبة:

- أنت مجنون يا يحيى، الناس مقامات يا ولدي؟! كان الموج العاتي يدفعهم بقوة إلى الشاطئ، فنادت عليه الفتيات المثيرات، لاحظ أنه يعرف بعضهن. زجاجات الخمر الفاخرة. شكلت ممر شرفي فوق الشاطئ، وهم يملأون كؤسهم ويثملون. شعر يحيى برغبة عارمة في تذوقه، لم يعرف متى كانت آخر مرة تذوق فيها كأسًا، لكنها فرصته الآن. اِقترب شاب وفتاتان من القارب وهما يلوحان إليه، اِستطاع تميزهما جيدًا فهم رفقاء بار الطاووس، حمادة الطلياني وصديقتاه مليكة وأزهار، تهللت أساريره عندما رآهم، ها هو أخيرًا يجد أُناسًا يعرفهم في الأرض صفر، كانوا يُلوحون له ويُنادون عليه بصوت مرتفع:

- تعالى يا يحيى، نحن ننتظرك منذ زمن، الأوقات الجميلة لا يمكن تعويضها، الموج كان عاليًا فأخذ يجدف بكلتا يديه حتَّى يقترب أكثر، لكن روح الفؤاد كانت تحاول الابتعاد وتحذره بإشارات من يدها، وهو يقول لها.

- لماذا هذا الشاطئ تحديدًا؟.

- لا ، لا تقترب أكثر من هذا. لأول مرة يسمع صوتها. كان رخيمًا ثقيلًا، لم يصدق أنها تتكلم فقال لها

- ها!! أنت تتحدثين لقد قال والدك أنك بكماء؟! والدك أنك بكماء نعم أجابته في بطء.

- نعم، لكنني أتحدث كل فترة قصيرة في العام فقط وللضرورة القصوى سألها سؤالًا ساذجًا، لم يبدو منه أنه تعلم الدرس كاملًا في الأرض صفر، قال لها:

- ولماذا لا تتحدثين طوال العام؟ لكنها كعادتها، هزت كتفيها ولم تعطيه إجابة: فقال لها:

- إنهم أصدقائي وأنا أريد أن أبقى معهم، كان يحاول النزول من القارب والسباحة تجاههم، إلَّا أن علامات الذعر كانت على وجهها قائلة:

- انتبه فانت تخرج عن القواعد، لايمكنك الاقتراب منهم. بدا يحيى مُغيبًا وهو يحاول الاستجابة لدعواتهم المرحة التي لا تتوقف، لكن روح الفؤاد جذبته بقوة من شعره الطويل، ثمَّ ركلته ركلة عنيفة في بطنه فتلوى وهو يصرخ، جاثيًا على ركبتيه على لوح القارب الخشبي، كانت الضربة مؤلمة لدرجة أنه شعر بغضبٍ عارم وهم بالنهوض، ليلكمها في وجهها، لكنها منعته من النهوض وهي تهمس واضعة يدها على فمه قائلة:

- انتظر، لا تتحرك إنه موعد القربان؟ كانت تشير إلى الشاطئ بينما صوت النفير المزعج يرج أنحاء الجزيرة حتَّى أن الجميع تركوا الشاطئ والتفوا في خشوع في نصف حلقة كبيرة وانحنوا، أمام تبة صخرية عالية تحيطها الأشجار الضخمة حيث ظهر ظلٍ مخيف لطائر ضخم، يتحرك خلف التبة بينما ظلوا جميعًا صامتين حانيين رؤسهم. حط الطائر الخرافي على أرض الشاطئ، له وجه مُزغب مخيف كالضبع وجناحان جلديان كبيران، حجمه يصل إلى حجم طائرة عملاقة، أحمر العينين له ذيل مخيف، وجسد مزغب كثير الألوان ينتهي بذيل كبير، وله لسان مشقوق يقذف نارًا. كان مخيفًا لحد أن روح الفؤاد كانت تغمض عينيها، بينما تحاول ألَّا تجذب اِنتباهه لهم. جلس الوحش يُراقب الجميع بعينيه الحمراويين، بينما الصبية والفتيات ذوي الأجساد الجميلة ناكسي رؤوسهم في خنوعٍ تام، وحاشيته تزبد وتصدر ثُغاءً مُخيفًا. أشار الوحش بجناحه الأيمن فأحضر الحراس إحدى الفتيات، التي كانت ترقص في سعادة منذ قليل، سحبها الحراس وألقوا بها تحت قدمي الوحش الملك، بينما أحد الحراس الأقوياء يقف بسيفه الهائل فوق رأسها، ومع الإشارة الثانية، كانت رأسها قد طارت تمامًا. وانفجرت نافورة الدم من رقبتها، راقبها الشباب قليلًا ثمَّ اِنطلقوا نحوها، ولطخوا أجسادهم بدمائها بينما الوحش الملك يتابعهم باستمتاع هو ورجاله، ثم يعبئون الدم في الزجاجات الحمراء التي أمامهم ويشربونه، ويكملون الحفل الراقص، ثمَّ يعودون بعد ذلك فتقف

فتاة أخرى، ليأتي شاب آخر قوي ويقطع رأسها، ظلوا هكذا يقطعون رؤسهم ويشربون الدماء. اِنتبهوا إلى وجود القارب الخشبي فبعدما سمعوا صرخات يحيى الفزعة، اِنطلقوا خلفه يريدون ذبحه، لكن روح الفؤاد صرخت فيه بقوة أن يجدف بعيدًا. وهي تعنفه وهم يجرون خلفهم بالقارب، حتَّى سقطوا من المركب، فمدت روح يدها وجذبت يحيى بقوة أسفل الماء، حتَّى وصلا إلى نفق كبير ملون، دخلا فيه ليقذفهم بسرعة خرافية أصابت يحيى بدوار شديد ورغبة عارمة في النوم.

(31)

الجدة والصغير

اِستيقظ يا يحيى لقد أحضرت لك الإفطار، اِستيقظ يا حبيبي حتَّى لا تبرد الطعمية الساخنة

فتح عينيه بصعوبة ليجد سيدة ستينية، ترتدي جلبابًا بيتيًا مُزركشًا، وطرحة بيضاء

تفترش الأرض وأمامها سجادة صلاة ملونة كثيرة الشراشيب، تتوسطها صورة للكعبة المُشرفة. فتح عيناه بصعوبة على العصافير والنحلات المنقوشة ببراعة على قماش الأريكة الخشبية لدرجة تشعرك أنك تريد لمسهم للتأكد من أنهم مجرد رسم. تأنى قليلًا قبل أن ينهض، اِكتشف أن جسده قد خرجت منه نسخة صغيرة، نسخة تشبهه تمامًا عندما كان طفلًا في السابعة، كانت أنامله صغيرة وذراعاه نحيلتان لم يكسوهما الشعر بعد بينما وجهه بات حليقًا، ولم تكنْ ذقنه قد نبتت بعد، لا توجد مرآه هنا، كي يرى شكله النهائي، لكنه شعر به، كان سعيدًا بجسده الذي عاد مُنمقًا واختفى منه الكرش، واختفت فرقة الآلات النحاسية التي تعزف داخل رئتيه المُتهالكتين من فعل تدخين سيجارة السوبر الطويلة بلا اِنتهاء. لمح السيدة وهي تمد طبلية خضراء جميلة وتضع فوقها طبق الفول الرائع بالزيت

وبجواره طبق الطعمية الساخنة وأرغفة العيش البلدية المنتفخة الخارجة لتوها من الفرن، أدارت المذياع على برنامج ربات البيوت، ونادت للمرة الثانية عليه:

- يحيى، يا يحيى قم يا بني الوقت تأخر:

لم تكنْ هناك ساعة بالغرفة لكنه تذكر أن ذلك البرنامج يُذاع قبل العاشرة صباحًا، على إذاعة البرنامج العام، نهض الطفل وجلس أمامها يأكل لكن يحيى نفسه اِكتشف أنه لم يزل مُتكئا على الأريكة يتابع تلك النسخة الصغيرة التي خرجت منه، وجلست في سعادة تلتهم الفول والطعمية بالسمسم على صوت برنامجه الأثير، غنوة وحدوتة، بينما جدته نعيمة تطعمه بيضة مسلوقة قائلة في حنانٍ بالغ:

- كل يا حبيبي، واجلس نقرأ الجريدة سويًّا، ستغضب أمك لو جاءت ووجدتك لم تأكل. جلس يحيى يقرأ معها الجريدة، ثمَّ مجلته المفضلة ميكي وهما يستمعان إلى برامج الراديو المفضلة لديها، أو صوت القرآن الكريم، يسمع صوت عبد الوهاب البوسطجي وهو يصرخ أسفل البلكونة بصوته الجهوري:

بوسطاااا..... تلك العبارة التي كانت تتعلق بها قلوب الأمهات في فترة الثمانينات من القرن الماضي للاطمئنان على أبناءهن، الذين رحلوا إلى دول النفط بحثًا عن حياة أكثر رفاهية، تلك الوريقات الحالمة عابرة البحار والصحاري والسماوات، تبث الأشواق والحنين، تطمئن الغائب وتريح المتعب، وتحفز المحبط، قبل أن يجتاح العالم جنون الإنترنت وحمى البريد الإلكتروني. تجلس الجدة نعيمة، واضعة نظارتها الثقيلة على أرنبة أنفها وهي تفض خطاب اِبنها الأوسط، المسافر للخليج، تقرأه بتمعن وفي يدها كوب من الشاي بالنعناع، ثمَّ تعيد قراءته عدة مرات وكأنها تقرأ ما بين السطور تطمئن على حاله، وما يحاول أن يخفيه من آلام. كان يستمع إليها وهي تقبله في حب قائلة:

بكرة تكبر أنت كمان وتفوتني، الله يلعن الفلوس على اللي طبعها، ثمَّ تتنهد في حسرة مُغلبة مصلحة الأبناء على شوقها الجارف قائلة:

- إيييييه.... ربنا يوفقكم.

كانت تنهيداتها المستسلمة تشعر يحيى بُجرحٍ عميق، وهو لم يزل أخضرًا بكرًا، فيضحك محتضنًا إياها على الرغم من تلك الدموع التي تزور مقلتيه الصغيرتين وهو يقول محاولًا الدفاع عن نفسه:

- أنا لما أكبر مش هاسيبك أبدًا يا ستي. تضحك الجدة الطيبة والدموع في عينيها. وتحتضنه في حب داعية الله أن يبقيه لها، أدرك يحيى الكبير أنه في منزل جدته في زمنٍ سابق!!، تلك الكتب الملونة التي أحضرتها له ليتعلم القراة والكتابة والتي جعلت منه قارئًا نهمًا، ولطالما زارته تلك الرغبة المُلحة في الكتابة منذ أن كان صغيرًا، دعمها بكثير من المُحاولات الناجحة أيام الجامعة، لكنها لم تكتمل، بسبب كل تلك العوائق والمحبطات التي واجهته في حياته. سالت دموعه عندما اِكتشف أن الجدة لا تراه هو، بل تتحدث وتحتضن الطفل الصغير الذي خرج من جسده، تطعمه وتتحدث معه، تفرح يوم نجاحه وتبكي عندما تراه مريضًا، تحاول أن تعالجه بالطرق البلدية مرة تضع على صدره جريدة بها القليل من السبرتو وتلفه جيدًا بالبطاطين، عندما يصاب صدره بالبرد، وتارةً أخرى، تغلي له خليط الأعشاب عندما تزوره آلام المعدة. مر شريط حياته أمامه كفيلم أمريكي سريع. كانت الجدة نعيمة تحصل منه على نصيب الأسد، يوم نجاحه، يوم عيد مولده الذي كانت تعد له العدة، تلك النقود والحلوى التي كانت تعطيها له، لا ينسى أبدًا تلك الزيارات الصيفية لأشقاءها في بلدتهم، كيف كان دومًا نجمًا مدللًا، كانوا يضحكون دومًا قائلين، هذا الطفل قد صار كحقيبتك لا يُفارقك أبدًا فكانت تضحك كثيرًا قائلة، لقد صار أكثر من روحي، تضمه بيديها وتنتقل من محطة القطار إلى منزل العائلة،

بتلك العربة الخشبية المُلونة، التي يجرها الحصان، يتذكر كم كان ظهره البني قويًّا ولامعًا في ضؤ الشمس، وكأنه خارجًا لتوه من أحد كتب الأساطير. النسيم بارد ورائحة زهور البرتقال تملأ الجو فتزيد من روعة الطريق، بينما يحيى الطفل يقفز في سعادة. وتتوالى الأحداث أسرع. يكبر يحيى بينما هي تضمحل شيئًا فشيء. لم يكنْ يحتمل تلك الفكرة، جزءًا منه كان يموت كل يوم مع انزواء تلك السيدة التي كانت قوية كشمس أغسطس، لا يقف أمامها شيء. لم يعرف أنه كان ضعيفًا إلى هذا الحد، وزاد ضعفًا بعد اِنزواء أحلامه واحدًا تلو الآخر. بكي وهو جالسٌ على الأريكة لا يتحرك منه شيء سوى دموعه، كانت لا تزال جالسة أمامه تلهو مع الطفل، حاول جذب اِنتباهها، صرخ في وجهها فانتفضت واقفةً أمامه، لاحظ أنها أضخم وأطول كثيراً من ذي قبل، فانكمش في أريكته مذعورًا، لكنها قالت له بعنف وهي تجذبه من ملابسه بقوة:

- ماذا تريد، ألا ترى حفيدي يذاكر دروسه، اتركه وشأنه. بكى يحيى كثيراً وهو يحاول تقبيل يدها قائلًا:

- أنا حفيدك يا ستي ألا تتذكرينني؟! لم تكنْ تنظر إليه بل كانت تتابع الصغير وهو يكتب في كراسته البيضاء وهو منكبٌ على الطبلية الخضراء البيسطة، لكنها اِلتفتت له قائلة:

- هلا ظننت أنني لا أعرفك، إنني أعرفك جيدًا لكن حفيدي هذا، وليس أنت. بكى يحيى قائلًا:

- أنا، هو!!. اِبتسمت في ألمٍ، ثمَّ قالت:

- للأسف يابني، لم تعد هو!!. ثمَّ قبلت رأس الصغير قائلة:

- يحيى البريء الطيب يحب ولا يكره، يتعامل مع الحياة ببساطة. بكى يحيى فاحتضنته بينما تحول الطفل الجالس على الطبلية كتمثالٍ من صلصال، فوق

رأسه مئات القصص والمجلات الملونة، وقصبة الصيد الخاصة به، دراجته وكتبه، وضحكاته البريئة. أشارت إلى الأشياء التي ظهرت بشكل مخيف فوق رأس يحيى الكبير، قصص مفزعة تجري كأفلام رخيصة ماجنة، بار الطاوس، حمادة الطلياني، السهرات الماجنة مع الغواني، عشرات الأعمال المشبوهة، ثمَّ ذلك الحادث المفزع حاول الدفاع عن نفسه قائلًا:

- لقد آلمتني الحياة وأرهقتني، أخذت مني كل الأشياء الجميلة، بما فيهم أنت فرفضت العيش بداخلها، اِبتسمت الجدة بحنو وهي تشير إلى قصص الطفل المعلقة فوق رأسه قائلة:

هل تتذكر تلك القصص الملونة؟. تطلع إلى تلك الصور الجميلة فوق رأس الطفل، وحاول استرجاع ما فيها.

قصة الطفل الذي زرع البازلاء بعدما أخذ باقي نقوده بازلاء من التاجر وغضبت منه أمه فألقاها في الأرض وأخذ يسقيها كل يوم، فأكلت القرية كلها من البازلاء وصار غنيًا.

والشجرة العتيقة التي هجرها الجميع، ومرت عليها العواصف والهوام تحاول أن تفتك بها، لكنها لم تستسلم وظلت تلقي بالثمار، حتَّى عاد الجميع وأحبوها. وذلك الشاب الذي رد الخاتم للملك فزوجه الملك بابنته. وقصة الأب الذي جمع أولاده الثلاثة وخيرهم بين الأرض والذهب والزواج من الفتاة الجميلة، ومن اختار الأرض فاز بكل شيء. تنهد يحيى في سعادة، لم تكنْ هناك أجمل من تلك اللحظات. رفعت يدها إلى ذقنه ونظرت في عينيه قائلة:

ما فائدة أن نقرأ تلك القصص في الصغر؟ نظر لها ولم يعقب لكنا قالت له بهدوء كما كانت تعلمه صغيراً

- حتى نتعلم منها في الكبر. دافع عن نفسه قائلًا:

- هذا ليس عدلاً، فلا يُمكن المقارنة بين طفل صغير، نقي السريرة، قطعة من العجين النقي الذي لم تُشكله الحياة بعد، برجل ثلاثيني، مر بكل تلك التجارب المؤلمة والظروف الصعبة. اِبتسمت الجدة وأغمضت عينيها في ألم قائلة:

- الظروف الصعبة، الضغوط والمُشكلات، تلك هي حجتك الدائمة، للهروب من المُحاسبة، شماعتك الأثيرة التي ترمي عليها كُل مُشكلاتك، ظهرت أمامه في صورة سيدة جميلة تبدو على على أعتاب الستين مريضة، ثمَّ سيدة أخرى تحمل على كتفها طفلًا مريضًا بالسرطان، وتسير به في الشوارع دون أن تشعر بالتعب، شاب يجري للحاق بالأتوبيس، حتَّى يتمكن من بيع بعض المنتجات، فتاة تعمل في المصنع ليلًا، وتعمل في المدرسة صباحًا، حتَّى تتمكن من توفير بعض مستلزمات زفافها، كل هؤلاء عركتهم الظروف وتحنطهم المشكلات، تأملهم يحيى جيدًا فلقد كان يعرفهم، يسكنون منطقته، يراهم صباحًا ومساءً وهم في دوامة لا تنتهي من الجري خلف لقمة العيش، والكفاح في الحياة. لم يتمكن من الإجابة هذه المرة فأطرق صامتًا، بينما قالت له وهي تشير إلى الطفل الذي عاد وتحرك، وهو يرسم فوق الطبلية الخضراء الصغيرة قائلة:

- هل تذكرت وعدك لي، أم أنك نسيته. هز رأسه في خجل، لقد نسي ذلك الوعد تمامًا، إنه لم يعد يتذكر أي شيء حتَّى يتذكر ذلك الوعد. شعرت بحيرته فأشارت للطفل البريء الذي يقلب في صفحات المجلات المصورة، ثمَّ قال لجدته في سعادة وهو يشير إلى الكتب الكثيرة قائلًا:

- غدًا عندما أكبر سأكتب الكثير من القصص التي تنفع الناس، وتنشر الخير، وسأجعلك بطلة هذه القصص. ضحكت الجدة قائلة:

- بطلة مرة واحدة يا يحيى، هذا كثير عليّ، طيب كيف ستجعلني بطلة وأنا

اِمرأة عجوز، لست جميلة كسندريلا، أو بيضاء الثلج، أو الأميرة صاحبة الأقزام، أحتضنها في براءة قائلة. أنا بقلمي سأجعلك تبدين أصغر من سنك الحقيقي، ثمَّ أنت أجمل من كل هؤلاء يا جدتي، اِنهمرت دموع الجدة بينما توقفت صورة الطفل مرة أخرى وهي تقول ليحيى:

- هلا تذكرت الآن يا يحيى؟

بكى يحيى بكاءً مريرًا وهو يقبل يديها قائلًا، نعم أعدك بذلك. إن قدر لي الله الخروج من هنا، فأنني سوف أصنع كل تلك الأشياء المُدهشة مرة أخرى، ربتت على صدره في حنان قائلة:

- كُل شيء مُقدر ومكتوب يا ولدي، فلا تقنط من رحمة الله، فقط، أطرق الأبواب العنيدة مثل الطفل يحيى زمان عنيد لا تكسره العثرات، يحاول ولا ييأس أبدًا حتى يصل إلى بغيته، اذهب وعد ناجحًا وسأنتظرك، أشارت الى إصيص أصفر مبهج، منحوتٌ عليه زهور حمراء لها أوراق خضراء وارفة، نمت فيه وردة صغيرة حمراء، تأمله يحيى في اِنبهار لاحظت الجدة إعجابه به، فقالت له:

- سأقدمه لك يوم نجاحك. قال لها يحيى في تردد:

- حاضر، سأحاول، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ؟. أمسكت يديه في حنان وهي تشير إلى باب مُغلق، بدا ضخمًا وعتيقًا وكأنه أحد أبواب قصر مملوكي، ثمَّ قالت:

- أبدأ من هنا، اطرق هذا الباب واخرج، فنحن نستعد اليوم لحدثٍ هام. اِتركني الآن مع صغيري واذهب إلى هناك. ظل ممدًا قليلًا على الأريكة بينما تحولت الجدة والحفيد إلى تمثالين من طين حولهما كل القصص الملونة، وكل الأشياء والناس الذين عرفهم في طفولته، براد الشاي العتيق، كنكة القهوة النُحاسية، ماكينة الخياطة، وابر التريكو، الدراجة القديمة، وحقيبة المدرسة، الراديو الخشبي القديم، وعم عبد الوهاب البوسطجي وخطاباته الحالمة التي تقطع الأقطار شرقًا

وغربًا. كل الأشياء التي اِستخدمها وهو صغير، وللأسف تلك الأشياء القذرة التي اِستخدمها وهو كبير!!، كُلها كانت حاضرة هُناك. حاول الخروج من تلك الغرفة التي ظلت تضيق به حتَّى ظن أنه يختنق. حاول فتح الباب الخشبي العتيق عدة مرات. لكنه لم يفتح لكن بعد عدة طرقات. فتح الباب ووجد نفسه أمام روح الفؤاد وهي ترتدي فُستانًا أبيضًا، وقبعة بيضاء من قماش الدانتيل وكأنه فستان زفاف، وهي تبتسم له، حاول أن يحادثها ليسألها أين ذهبت لكنها، مدت يدها وجذبته كعادتها، ليجد نفسه هابطًا عبر السلم الخشبي مرة أخرى إلى البهو الكبير بمنزل عائلة السيد زين.

(32)

الحفل

يبدو أن الحفل الكبير على وشك البداية، حيث اِمتلأ البهو بالمدعوين، اِرتدت النساء ملابس عُرسٍ بيضاء، أما الرجال، فارتدوا البذلات الإسموكنج والردينجوت. جلسوا صفوفًا مُتقابلة في هدوء، وجلست أسرة السيد زين تحت الصورة العائلية الكبيرة التي توسطت البهو بنفس موضعهم في الصورة الكبيرة. السيد زين يتوسط الصورة واقفًا، بشاربه العريض وملابسه الأنيقة وفوق رأسه قبعة كلاسيكية، وبجواره وقف حسن بنظراته النارية وهو يتطلع إلى الجميع، وأمامهم، جلست السيدة دُرية مُشرقة الوجه على كرسيها المُذهب، وبجوارها وقفت روح الفؤاد مُبتسمة، لاحظ يحيى أنهم قد تركوا مكان الفتاة الغائبة شاغرًا، يبدو أن موعد وصولها قد اِقترب، الكُل يتحرك في خفة والخدم كعادتهم يضعون أطباقًا بيضاء على تلك المائدة الطويلة المُمتدة، لم ير يحيى أي نوع من الطعام إلا أنهم جميعًا كانوا جالسين متقابلين حول المائدة يتحدثون إلى بعضهم بصوت خافت، جلس يحيى معهم صار الآن يعرفهم أكثر، فلقد اِلتقى بهم جميعًا في تلك الرحلة العجيبة، المقدس ملاك صديق أبو دراع، الطفل كرم الذي كان يقاتل الوحوش جلس على كرسيه قويا وبرزت عضلاته، كانت ملابسه جميلة وجسده سليما على الرغم من وجهه وذراعه الممتلئ بتلك الخدوش والندبات من أثر صراعه الذي لا يتوقف

مع الوحوش لكنه كان هادئًا صامدًا، رأى عم أخيل الرجل العجوز الذي كان يوزع اللحم والفول النابت على فقراء السيدة زينب. حتَّى الجدة نعيمة وحفيدها الصغير المُلتصق بها دومًا، كانا جالسين في هدوء، يتحدثان في لطف. الجميع هنا يجلسون بجوار بعضهم البعض، ويتطلعون بشغف إلى الساعة الخشبية الكبيرة وهي تعود إلى الخلف بسرعة شديدة، ثمَّ توقفت عقاربها عند وقتٍ ما، ودقت عدة دقات مزعجة، جعلت الجميع يصمتون وهم ناكسي رؤسهم. حتَّى يحيى، لم يعد يقوى على الحركة سوى بتحريك عينيه فقط. لكن الجلبة اِرتفعت بشكلٍ مخيف بالخارج، مئات الأقدام التي كانت تسير فوق رؤسهم لقد شعر يحيى بهم، تحول الجميع إلى ما يشبه التماثيل الشمعية ما عاد عائلة السيد زين التي كانت في حالة تأهب، سمع صوت معاول بالخارج، وكأنهم يزيحون التراب بالأدوات، كانت الهمهمات ترتفع، لدرجة أنه ميز صوت أشقاءه وبعض أفراد أسرته كانوا ينادون، أو يبكون، ربما هو لا يدري، لكنه ظل جالسًا في خوف، أنه يترقب الحدث القادم. اِستمر ذلك الضجيج مدة لا يعلمها فالزمن هنا، لا يمكن قياسه. دق جرس المنزل البدائي الكبير، فهب الجميع من كراسيهم واصطفوا صفين في اِحترام، على يمين ويسار الباب. أشار السيد زين إلى روح الفؤاد، فهرولت نحو الباب الخشبي الكبير، وجذبته بيدها القوية، لينفتح على مصراعيه، وقفت روح الفؤاد مُطأطأة الرأس بينما اِنحنى الجمع اِنحناءة تحية للوافدة القادمة وعيونهم مثبتة على الباب ثمَّ سمعوا وقع أقدام خفيفة على البلاط الرخامي الفاخر الذي مدت أمامه سجادة حمراء أنيقة، وتأملوها وهي تدخل، فتاة لطيفة لم تكنْ تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها تسير بهدوء على السجادة الحمراء، كانت ترتدي فستانًا من الساتان الأبيض الجميل وقبعة جميلة من نفس النوع يشبه كثيرًا ذلك الذي ترتديه روح الفؤاد، التي اِقتربت منها واحتضنتها بشدة قائلة في مرح:

- كيف حالك أيتها الشقية لقد اِفتقدتك كثيرًا، ضحكت الطفلة في مرح وهي تقفز فوقها في سعادة قائلة:

- أنت أيضًا أوحشتينا كثيرًا، هل ستمكثين معنا؟ ضحكت الفتاة قائلة:

- نعم لن أفارقكم أبدًا. كست السعادة وجوههم، وهم يضمونها بشوقٍ كبير، وبنظام أعد مسبقًا، وكأنه اِستقبال بروتوكولى، فلقد اِحتضنها السيد زين أولًا وهو يبكي، ثمَّ تبعته درية هانم التى اِحتضنتها كثيرًا قائلة:

- حمدًا لله على السلامة يا آمال، لقد كان سفرًا طويلًا يا بنيتي، اِبتسمت الشابة الجميلة في حنان والدموع تطفر من عينيها قائلة:

- لقد كان سفرًا طويلًا وشاقًا يا أمي، لكن حمدًا لله. ردت أمها قائلة في نزق:

- هذا لا يكفيني، أحكي لي ماذا حدث؟. اِبتسمت الشابة في هدوء قائلة:

- إن شاء الله يا أمي ولكن ليس الآن، عندنا الكثير من الوقت كي نتحدث، قال لها شقيقها حسن:

- تبدين جميلة كما أنتِ، وكأنك لم تتركينا قط. لكنك على الرغم من ذلك، قد مررت بتجربة تستحق الحكي. قالت له آمال:

- الرحلة طويلة وشاقة، تحمل الكثير من المنغصات، ولكننى لا أنكر أنها حملت لى الكثير من المفاجآت السارة، واللحظات الحرجة، لكننى قمت فيها بأشياء طيبة ،وقاتلت فيها قدر اِستطاعتى، بالتأكيد لدينا الآن متسع من الوقت لنحكي عنها. كان يحيى صامتًا بين جموع الضيوف يتأمل ذلك الاستقبال الحافل والحوار الغريب، وينظر إلى صورة عائلة السيد زين الكبير:

- إذن لقد عادت اِبنتهم المُسافرة، ها هي، لقد اِكتملت الآن صورة العائلة؟!

إنها حقًا أسرة غريبة!، عادوا وجلسوا جميعًا إلى المائدة، اِلتفت السيد زين إلى يحيى قائلًا:

- والآن أُعرفك يا بني بابنتنا آمال، العائدة من رحلة طويلة. نظر لها يحيى مرحبًا، بينما نظرت هي له ولم تُعقب، لكن السيد زين قال لها بطريقة مسرحية، لم يرتح لها يحيى:

- هذه هو السيد يحيى لقد وجدناه مصابًا في حقلنا، ولا أدرى إذا كان قد تعرض لحادث أم ضل الطريق، لكن الفتاة التي كانت تتفحصه بطريقة مخيفة أزعجته ،ردت وهي تنظر في عينيه بعمقٍ:

- بل ضل الطريق!، دُهش يحيى من هجوم الفتاة الحاد عليه، دون أن تعرفه، لكنه آثر الصمت، تمنى أن يخرج من هذا المكان سريعًا، فلقد تملك الرعب منه وبلغ منه القلق مبلغه. دعى السيد زين الحضور، للمائدة وصفق بيديه ليهبط الخدم وهم يحملون الطعام ما هذا الجنون؟، فالطعام ليس إلَّا سائلًا أبيض اللون، يُشبه اللبن!، لكنه يختلف في اللون عندما يوضع في طبق كل شخص، فلقد كان شديد البياض مع الطفلة روح، ومال إلى الاحمرار قليلًا مع السيد زين الكبير، بينما كان داكنًا قليلًا مع حسن، وكان نقيًّا مع درية هانم، شهقت الأسرة عندما وضع الخادم السائل الأبيض في طبق يحيى، فلقد تحول إلى اللون الأسود!. شهق الجميع فزعًا وهم يحملقون في طبق يحيى، لكن الوافدة الجديدة لم تهتم، ونهضت إلى البيانو العتيق، تتحسس أصابعه العاجية في حب وكأنها تحتضن صديقًا اِشتاقت إليه، بعد رحلة مُعاناة طويلة، أشار لها السيد زين فجلست على الكرسي بخفة فراشة، ووضعت أناملها الرقيقة فوق أصابع البيانو، وبدأت العزف. صمتت الغرفة تمامًا، وعادت الأسرة لحالة السكون التام، فكانوا كتماثيل لا يتحركون، ولا يتنفسون! بينما تركزت عينا يحيى على الأنامل التى تعزف، إنه يعرفها جيدًا، لقد رآها مرارًا

وتكرارًا، تعزف ذلك اللحن في مكانٍ وزمانٍ ما، لكن أين ومتى؟ هو لا يذكر شيئًا واحدًا فقط، هو موضع أصابعها البشرية فوق الأصابع العاجية البيضاء والسوداء، أنهت الفتاة عزفها الرائع، بينما تحولت أسرة السيد الزين إلى ما يُشبه العرائس الشمعية. نهضت الفتاة في اِتجاه باب المنزل لتفتحه، ثمَّ التفتت إلى يحيى قائلة:

- والآن يمكنك الذهاب، فقط اِرحل من هنا. اِتجه يحيى نحو الباب رغمًا عنه وكأنه منوم، لكنه وقف أمامها لثوان قائلًا:

- أريد أن أمكث قليلًا، واستمع إلى ذلك اللحن الجميل مرة أخرى من تلك التحفة الرائعة، نظرت له الفتاة بعيون دامعة قائلة:

- أعرف شخصًا كان يريد أن يبيع تلك التحفة الرائعة، بجنيهاتٍ معدودة، لينفق على فتاة ليل بائسة وليشترى بها شيئًا يغيب عقله! زادت حيرته فقال لها:

- من أنتِ بالله عليك؟، فأنا أشعر أننى أعرفك جيدًا لكن عقلي لا يتذكر شيء؟! لم ترد عليه، ولكنها ربتت على وجهه بحنان قائلة:

- عدني أن تكون شخصًا أفضل، فقط أتبع شغفك، ولا تتحول إلى مسخ لمجرد إرضاء من حولك، أرجوك كن فعلًا ولا تكن أبدًا رد فعل، عدنى بذلك، وأقسم عليه.

نظر في عينيها، شعر أنهما تخترقانه، وتعريان روحه المُنهكة، وجد نفسه يعدها:

-أعدك بذلك. لكن من تكونين؟! كان وجهها جامدًا وهي تدفعه بقوة خارج المنزل قائلة:

- ستعرف كُل شيء لاحقًا، فقط اِذهب من هنا! تلك هي فرصتك الأخيرة:

- لكنني لا أعرف طريق العودة. قالت له في عجل وهي تدفعه إلى الخارج:

- ضع قدمك خارج المنزل وستصل إلى الطريق الذي كنت عليه!، نظر لها مودعًا حاول أن يمكث قليلًا. إلَّا أنها دفعته بقوة رهيبة خارج المنزل، وأغلقت

الباب. رأى الكاميرا المُثبتة في رأسه تطير في الهواء بسرعة خرافية، وترتفع إلى السحب، حتَّى سرت البرودة في جسده، طارت الكاميرا طويلًا، ثمَّ عادت وأخذت تسقط وتسقط من حالق بسرعةٍ خرافية. رأى يحيى موقع الحادث والسيارات المحترقة وسمع صوت سيارات الإسعاف تجرى بجنون، لمح تلك اللافتة التي تشير إلى اِسم القرية، (سندوب الكبرى)، وتحتها رقد شابٌ تمَّ تغطيته بغطاء سيارة!، إنه يعرف ذلك الجسد جيدًا، يعرف ذلك البنطال الجينز والحذاء الجديد، اللذان اشتراهما من أحد محلات وسط البلد. اِستمرت الكاميرا السريعة تخترق الهواء حتَّى وصلت لذلك الجسد المسجى، واخترقته، أصدمت به بشدة فأحدثت انفجارًا رهيبًا بداخله، شعر أن رئته تكاد تنفجر، فسحب نفسًا قويًا من الهواء، لكن ذلك الغطاء المترب منعه من التنفس، فانتفض جسده وهو يسعل سعالًا شديدًا، سمع بعدها صراخًا وتكبيراً من بعض الرجال وهم يقولون:

-لا إله إلَّا الله، لقد عاد الشاب للحركة، فلننقله سريعًا إلى سيارة الإسعاف.

(33)

اللعبة

جلس يحيى في السيارة الحمراء، ماركة نصر 127 وهي تمر عبر ميدان رمسيس. تأمل الشوارع بشغفٍ، أتوبيس النقل العام المكتظ عن آخره بالعائدين من يوم عمل شاق، لأول مرة ينظر إلى الناس بتلك العين الجديدة. شعر أنه منهم، أراد أن يذهب ليقبل رأس ذلك الأب الذي كان يركب دراجة بخارية ماركة فيزبا ويحمل خلفه زوجته الطيبة تجلس على جانب واحد وتحمل طفلًا رضيعًا بينما جلست أمامه طفلة لم تتجاوز الثالثة وجلس طفله الأكبر ذو الثمانية أعوام على الأكثر ملتصقًا بالأُم من الخلف، خمسة أفراد يركبون الفيزبا الإيطالية الخفيفة، مشهد قد يعجز عن تفسيره مخترع الفيزبا نفسه. أراد أن ينحني تقديرًا لصلابة ذلك المصري الأصيل، الذي قرر أن يعيش رغم كل العقبات والأزمات الطاحنة التي تمر به، قرر أن يعيش رغم أنف الجميع. تابع بعينيه تلك السيدة الريفية التي تحمل قفصًا من الفاكهة وهي تعبر الطريق المتجه إلى محطة القطار وبالقرب منها وقف مجموعة من الجنود يتضاحكون وهم يتناولون السندويتشات بالقرب من مطعم على كيفك. اِبتسم يحيى في سلام عندما شاهد إحدى سيارات توزيع الحلويات الشعبية والمقرمشات الرخيصة! تذكر كعكة واحدة بالسكر تغير حياتك، لقد كادت تلك الكعكة أن تقوده إلى الهاوية، نظر يحيى إلى شقيقته بسمة بإشفاق، لقد

تحملت كثيراً في العامين الماضيين شعر أن الحزن قد أضاف إلى عمرها الغض عدة أعوام إضافية. توقفت السيارة أمام المنزل، ونزل مستندًا على عكازة معدنية، رافعًا ساقه اليسرى التي تغطيها الضمادات، أكمل صعود السلم بمعاناة بسمة وبعض شباب الحي الذين اقتربوا منهم عارضين المساعدة ثمَّ جلس متهالكًا على أحد كراسي الصالون. جال بعينيه في كل أنحاء المنزل وكأنه يتعرف على المكان من جديد، تلك الصور الكثيرة المعلقة على الحوائط والتي تحكي حياة أسرة بأكملها، رحل منهم من رحل وبقى من بقى. أغلقت بسمة الباب بعدما أدخلت الحقيبة الكبيرة التي حملها الشباب ووضعوها في الصالة الفسيحة، تركته صامتًا يتأمل المنزل بينما جلست هي تخرج أغراضه وتضعها في الغرفة الكبيرة، كان يسترجع كل شيء مر به في الرحلة العجيبة، لم يعد يتذكر أي شيء قبلها لكنه يجزم إنه قد ولد بعدها. آخر جملة تطن في أذنه بلا توقف، تلك التي سمعها من الفتاة العائدة إلى أهلها وهي تقوده إلى باب المنزل.

- فقط اِتبع شغفك، ولا تتحول إلى مسخ لمجرد إرضاء من حولك، أرجوك كن فعلًا ولا تكن أبدًا رد فعل..... لا يدري لم تذكر تلك الكلمات بالتحديد. أخرجته بسمة من شروده قائلة:

- حمدًا لله على سلامتك، نورت منزلك. رد عليها بصوت هامس وهو ينظر إلى صورة والدته المعلقة في الصالة، وهي تحتضنهم في سعادة:

- متى حدث ذلك؟. أجابت وهي تمسح دموعها:

- لقد تدهورت حالتها بعدما اِتصلت بك ونقلتها بعربة إسعاف إلى المستشفى. وفي اليوم التالي كان قضاء الله قد نفذ، كان يبحث بطريقة تلقائية في جيبه. وهو يسألها في توتر:

- أين علبة سجائري؟... هل حضر ماجد الجنازة؟ ردت بسرعة وهي تتنهد في ألم:

- بالطبع حضر مسرعًا هو ومجموعة من زملاؤه، أنهى كل الإجراءات سريعًا ثمَّ بقى عدة أيام ورحل مرةً أخرى.

-هل تريد أن تذهب إلى غرفتك لتنام:

لكنه رد عليها في اِنكسار وهو يتأمل صورتها قائلًا:

-لا، بل سأجلس هنا قليلًا. وضعت أمامه كيسًا بلاستيكيًّا أبيض اللون متسخ قليلًا. كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا والصمت يخيم على المكان أومأت برأسها بينما دلف هو في هدوء إلى غرفتها، تأمل سريرها المرتب بعناية وفوقه مصحف. جلس على طرفه فضربته رائحة المسك المُنبعثة من دولاب ملابسها وضاعفت من حنينه. جال بعينيه بهدوء في الغرفة، لمح ذلك النول الخشبي الكبير المختفي خلف الدولاب، أخرجه في حذر وهو يسعل بشدة حيث هاجمته الأتربة التي كانت تجثم فوقه منذ زمن، تأمله فيحزن وهو يهمس:

-الله... هذه السجادة سوف تكون رائعة، رحمك الله يا عم آدم كم أنت مبدع. تحسس ملمسها الناعم، وتذكر كلماته.

- صل تلك الخيوط تصل، أكملها يا بني فلقد كانت رسالتي لك. كانت تنقصها تكملة الآية ((فَهُوَ يَشْفِينِ)). جذب النول ووضعه أمامه عازمًا على أن يكمل السجادة في أقرب وقت فسقطت من خلف اللوحة سبحة والده الزرقاء فقبلها وبكى، وبدأ يمد أنامله ويحرك حباتها واحدة تلو الأخرى وهو يسبح ويستغفر في اِنتشاء. فتح دولاب والدته وأخرج درج الأوراق جذبته تلك الصورة القديمة، تناولها بيدٍ مرتعشة ودقات قلبه تعلو، حتَّى سمعها وكأنها تدق في أذنه، قال لنفسه في دهشةٍ:

- ما هذا؟ إنها تلك الصورة التي رآها على الحائط، صورة عائلة السيد زين كما رآها تمامًا، إنه يعرف أبطال الصورة جيدًا فهذا حسن، وهذه درية هانم، وهذا هو السيد زين وهذه هي روح الفؤاد رفيقة رحلته، هذه هي آمال الفتاة العائدة من الرحلة الطويلة، والتي أقاموا لها اِحتفالًا عظيمًا يليق بها، صوت دوى في رأسه:

- يحيى طفل عنيد لا تكسره العثرات، يحاول ولا ييأس أبدًا حتَّى يصل إلى بغيته، ولذلك أنا أحبه كثيرًا، تساءل في نفسه.

- أين يحيى الطفل، وأين ذهب ذلك الإصرار، والقوة في مواجهة الضغوط، لقد كان عنيدًا بالفعل عندما كان صغيرًا، يتوقع له الجميع بمستقبل باهر، لكن ما حدث، خرج عن كل التوقعات، ولكن للأسوأ. اِرتعشت يده وهو يتذكر كل شيء دار بينهما في الأرض صفر. دمعت عيناه وهو يتأمل اِبتسامتها الهادئة، وعيناها اللامعة الواثقة في مستقبل باهر لحفيدها، القارئ بنهم لكن للأسف، لقد خذلها حفيدها، وتركها تموت حزينة على ما آل إليه حاله. لم يصبح الكاتب الذي كان يتمنى،بل أنه لم يصبح أي شيء من الأساس. تذكر آخر كلمة قالتها له:

- اذهب وعد ناجحًا اجعلني فخورةٌ بك وتعالى لتزورني، لاحظ تلك اللعبة التي كانت تحتفظ بها في الدولاب أول لعبة حصل عليها في عام ميلاده الأول، لا زالت مبهجة كما هي، لعبة الملاهي الدوارة التي تحتوي على الكثير من الأحصنة والعربات تظللهم مظلة ملونة بألوان الطيف السبعة، مد يده ليمسكها، لكنه تراجع ذعرًا عندما خالها تدور وهي تطلق موسيقى قوية:

تذكر يحيى تلك الأغنية الغريبة التي كانت تدور مع دوران اللعبة.

ذلك المنزل الذي فوق التل، منزل عائلة السيد زين.

جئنا لنلعب سويًّا فهيا بنا نقتحم المروج ونحارب الأشرار.

جلس مذعورًا على سريرها يتأمل تلك اللعبة وهو ينتفض، لكن الأسوأ جاء

بعدما سمع تلك الطرقات القادمة من داخل الدولاب العتيق دفعه الفضول مرة أخرى لينظر خلف اللعبة حيث، ماهذا!! هناك باب سحري داخل الدولاب، لم يستغرق الوقت طويلًا حتَّى دارت اللعبة مرة أخرى وهي تغني بصوت مرتفع نفس الأغنية مرة أخرى.

ذلك المنزل الذي فوق التل، منزل عائلة السيد زين.

جئنا لنلعب سويًّا فهيا بنا نقتحم المروج ونحارب الأشرار.

إنه لا يتخيل هذه المرة هي حقيقة واضحة، كانت الطرقات تزداد وهم ينادون عليه بقوة:

افتح يا يحيى... أغمض يحيى عينيه في ذعر وهز رأسه قائلًا:

- اِهدأ يا يحيى، ذلك غير حقيقي إنه صوتك الداخلي، فلا تتحرك. لكن الصوت جاءه أقوى هذه المرة مجيبًا.

- تخشى المواجهة طوال حياتك، والآن حانت المواجهة، يجب عليك أن تقهر خوفك من كل شيء حتَّى من الأشباح، لقد رأيتهم هناك جميعًا في الأرض صفر، لا يهابون شيئًا، فانهض هيا وتعالى إلى هنا فهم جميعًا يريدون تحيتك. نهض هذه المرة دون تردد واقترب من الباب السحري داخل الدولاب والطرقات تزيد. مد يده على المزلاج الصدئ، ودفعه إلى الأسفل، ودق قلبه بشدة عندما فُتح الباب عن آخره. على المروج الواسعة ليجد نفسه داخل منزل السيد زين وأشخاص كثيرون ينظرون إليه بابتسامة ويمدون أيديهم إليه بالسلام، يعرفهم جميعًا لقد كانوا جميعًا هناك يبتسمون له، السيد زين يرتدي ملابسه الأنيقة ومعه أسرته تجلس في وقار، جدته وحفيدها الصغير، الطفلة روح الفؤاد وهي تجلس على أرجوحتها. كانت المشاهد تتوالى والأحداث تمر سريعًا، تلك الممرات اللانهائية، التي يتحركون

فيها سقط أرضًا وهو يصرخ، لكن السيد زين اقترب منه قائلًا: لا تفزع يا صغيري فنحن هنا معك، استمر في ما تفعل ولا تسقط مرة أخرى.

حاول الهروب من الغرفة وهو يصرخ مناديًا على شقيقته فاستند على ساقه المكسورة لتسقط منه العلبة البيضاء التي أعطتها له بسمة وتنفتح أرضًا بجواره، ليشاهد يحيى، السوار الأخضر والحمامة العاجية، والشال الأخضر والخاتم المكتوب عليه فإني قريب. حاول يحيى النهوض متحاملًا على ساقه المكسورة لكنه لم يتمكن من ذلك، فلقد كانت الغرفة باردة بشكل مخيف تجمدت معها أطرافه ثمَّ شعر أنه عاجز عن التنفس، وبدت الإضاءة تختفي تدريجيًّا حتى أظلمت الدنيا مرة أخرى، بينما الأغنية تنشد من جديد:

ذلك المنزل الذي فوق التل، منزل عائلة السيد زين.

جئنا لنلعب سويًّا فهيا بنا نقتحم المروج ونحارب الأشرار.

(34)

سوف أغضب

ينام يحيى كثيراً منذ عودته من الأرض صفر، يشعر أن صلته بالناس صارت أضعف من ذي قبل وأن ارتباطه بأهل الارض صفر قد أصبح يقينًا لا يمكنه الفكاك منه، إنه يراهم في يقظته ومنامه يستمع إلى النصائح التي قدموها إليه ويتجنب ما يجعل شكله مشينًا بينهم. لقد أصبح يحيى يحبهم أكثر من أهله لا يعرف كم عدد الساعات التي ينامها!! فبعد الحادث، اِختفى الخط الفاصل بين النوم واليقظة، صار معدومًا لديه وكأنه اِختفي من مركز الإدراك في عقله. أيقظه دوي صافرات سيارات كبيرة اِستنتج إنها لسيارات رسمية ربما الإسعاف أو الشرطة! تبعها جلبة شديدة في الشارع من الناس. ميز من بين الأصوات صوت بسمة وهي تنادي عليهم من شرفة المنزل المجاورة لغرفته.

- نعم الحريق هناك في المنزل الكائن في الحارة الترابية. جلس يحيى قليلًا في سريره يستوعب ما يحدث ثمَّ اِنتفض واقفًا وجرى إلى شرفة المنزل. تابع شقيقته وهي توجه رجال الإطفاء بينما هم يحاولون الدخول إلى الحارة الترابيه لكنهم فشلوا عدة مرات. تابع يحيى محاولاتهم اليائسة في إطفاء الحريق. كان ينظر تجاه المنزل ويتحدث بصوت غير واضح، حتَّى أن بسمة شعرت بالخف منه وهي تسأله.

- ماذا تقول يا يحيى. نظر باهتمام تجاه المنزل نصف المهدم الذي تتوسطه الشجرة الضخمة وقال لها وهو يشير إلى المنزل بيدٍ مرتعشة ويردد:

- ذلك الحريق لن يُخمد... نظرت له بسمة قائلة في ذهول:

- كيف عرفت ذلك؟ رد عليها قائلًا في هدوء:

- عرفت ماذا؟

- إن هذا الحريق لن يخمد لقد كنت نائمًا طوال اليوم ولم ترَ شيئًا. ومنذ الصباح والنيران تشتعل في المنزل ثمَّ تخمد، أصيب عدد من الأهالي والجنود، ولا شيء يحدث النار تعود من جديد. نظر إليها نظرة جنون، جعلتها تتراجع عدة خطوات وهي ترتعد.

- إن مريم غاضبة، غاضبة جدًا... يجب إيقافها الآن وإلَّا احترقت المنطقة بأسرها. تركته بسمة ودخلت وهي تقول في خوفٍ:

- أنا سأرحل الآن عندي نوباتجية ليلية في المستشفى، لقد أعددت لك العام في المطبخ، تناول الطعام وأرجوك لا توقع نفسك في المشاكل. هزَّ رأسه في يأس وهو يشعل سيجارته الثالثة. لقد انطلق أَذَان المغرب من مسجد السيدة زينب، وبدأ الظلام يزحف على المنطقة. سمع يحيى الضابط الكبير وهو يقول لرجاله:

- هذا ليس بحل، أريد أحادً يدخل إلى المنزل، ليكشف مصدر الحريق ونوعه ثمَّ يخبرنا لنخمده، إنها المرة الرابعة الذي يأتيني فيه بلاغ حول هذا المنزل الغريب. اِحمر وجه الضابط قليلًا وبدا عليه التوتر، عندما سمع الهمهمات السارية بين الناس بأن ما يفعله غير مجد، وأن هذا المنزل مسكون، قال له رجب دغموش صاحب المقهى:

- ياباشا قلت لك أن ذلك لن يجدي، الأحسن نحضر شيخ. تجاهل الضابط

نظرات الريبة وتحذيرات رجب وقال في شجاعة وهو ينظر لشرطي ضخم الجثة كث الشارب على وجهه إمارات الغلظة متحدثًا للقيادة في جهاز اللاسلكي.

- يجب أن أعرف مصدر النيران، الرافعة ستسقطنا أنا والصول صقر داخل المنزل، وسنفتحه من الداخل، زادت الهمهمات بين الرجال، واستعد الضابط والصول بملابسهم وخوذاتهم الثقيلة، عندما عادت النيران تندلع خلف السور وتحدث صوت فحيحٍ مخيف، جاءه رد من جهاز اللاسلكي:

- عليك بالحذر يا سيادة المقم ممدوح، فالنيران قد تشتد مع ساعات الليل. رد المقدم ممدوح في شجاعة:

- إن شاء الله سوف نخمدها قبل حلول المساء. كان يحيى يتابع الحريق من شرفة منزله وعينه مثبتة على الشجرة الكبيرة التي تتوسط المنزل، تابع بقلق الضابط الشجاع ومعه مساعده والرافعة تعبر بهم السور وتسقطهم بحذر في منطقة فارغة بعيدة عن محيط النيران المندلعة. خيم الظلام قليلًا على المنزل، والنيران حجبت الرؤية. سار المقدم ممدوح بحذر وخلفه الصول صقر، لكنهما بعد دقيقة لم يجدا أثرًا للنيران.

- فأوراق الشجر كما هي، والشجرة بدت راسخة تتفرع منها عشرات الأفرع التي حطمت بعض الجدران. تلاحقت انفاس صقر وهو يقول للضابط:

- بسم الله الرحمن الرحيم، النيران تندلع منذ خمسة عشرة ساعة ولا أثر لأي حريق كيف هذا . قال المقدم ممدوح في قلق:

- لا أدري والله يا صول صقر، تعالى نسير قليلًا يمكن نعرف مصدر النار أو الدخان، سار قليلًا في الفناء الخلفي، أوقفتهم كرة أطفال ملونة سقطت أمامهم مباشرة، كان الصول صقر أول من لمحها تتهادى في الحديقة، بينما المقدم ممدوح مشغولًا في نقل التعليمات إلى القيادة:

- الغريب يا فندم إننا لم نعثر على مصدر للحريق و.... توقف المقدم ممدوح عن متابعة كلامه وكاد جهاز اللاسلكي يسقط من يده عندما رأى هو والصول صقر تلك الطفلة الصغيرة وهي ترتدي ملابس بيضاء وتقف في شباك الغرفة البحيرة في الدور الثاني وهي تبتسم لهم بعيونها الحمراء ووجها الشاحب تمامًا وبكفها الذي بدا أغصان شجرة وهي تشير لهم على الكرة التي ظلت تتهادى في الحديقة وكان أحدًا يحركها. صرخ صقر في ذعر:

- أعوذ باالله من الشيطان الرجيم... ماهذا يا فندم. تهدج صوت المقدم ممدوح وهو يقول:

- يظهر أن أهالي الحي كانوا على حق. حسنًا سنحاول أن نحضر متخصصًا في مثل هذه الأشياء... لم يكمل المقدم ممدوح كلماته المتقطعة في جهاز اللاسلكي، حتَّى اقتربت الكرة الملونة من أحد الشجيرات القصيرة وانفجرت كالقنبلة واشتعلت بها النيران مرة أخرى. نادى المقدم ممدوح على القوة قائلًا:

- اطلب عملية سحب لنا حيث يشتعل المنزل مرة أخرى نتيجة لقوى غريبة، وليس له سبب علمي من الناحية المادية. اِشتعلت النيران مرة أخرى، واستمرت قوات الإطفاء بضخ الماء في الغرفة البحرية بينما، المقدم ممدوح وصقر يخرجون من الحريق في حالة سيئة.

(35)

وجهًا لوجه

في نفس اليوم، منزل العفريتة، الحارة الترابية. الساعة الثانية صباحًا.

تأكد يحيى أن الشارع قد هدأ تمامًا بعد ذلك اليوم المرعب من إطفاء الحرائق، وبعدما سمعوا وصف الصول صقر عن الأهوال التي وجدوها بالداخل، قررت الشرطة انتداب أحد المتخصصين من المشايخ في حالات المنازل التي تحترق ذاتيًّا بسبب الجن!!. نزل يحيى من المنزل بحذر. ارتدى يحيى ملابس سوداء وغطى رأسه بغطاء رأس حتَّى يتخفى بشكل جيد داخل الحارة المظلمة. كان هادئًا ومرتاحًا على الرغم من تلك المهمة الثقيلة التي هو مقبل عليها، يدرك يحيى مدى التحول المخيف الذي آلت له شخصيته، لكنه ممتنٌ له تمامًا، فرحلته إلى الأرض صفر علمته مواجهة مشكلاته، مهما كانت تبعاتها. فمن واجه الموت يمكنه مواجهة أي شيء. مد يده وأخرج مقلاعًا، وضع به قطعة حجر كبيرة، وقذفها تجاه المصباح المعلق في عامود الإنارة الذي يتوسط الحارة الترابية ليصيبه، فينفجر المصباح، وتظلم الحارة الترابية. لم يجرؤ أحد من السكان أن يعرف سبب اِنفجار المصباح لكنه سمع أحد الجيران في أول الحارة وهو يبتهل إلى الله أن تمر تلك الليلة السوداء على خير. تلفت يحيى حوله ثمَّ مد يده إلى أصيص الفخار الكبير الموجود أمام البوابة الحديدية، لبس قفازًا شفافًا ومد يده داخل الطين الذي صار

لزجًا من فرط إغراقه بمياه الإطفاء طوال اليوم. ارتطمت يده بالمفتاح الذي غرزته روحية بعناية داخل الأصيص الكبير. سحبه ونظفه بقطعة من القماش، ثم دسه داخل الكالون المعدني الكبير، أداره فصدرت منه ثلاثة تكات قوية تبعه انفراج البوابة المعدنية. أضاء كشاف هاتفه المحمول ومسح به البوابة سريعًا، ليجد عنوانًا مقتضبًا مكتوبًا بشكل خفي على البوابة "مركز الإخلاص 14- ش الثورة". فهم يحيى أن ذلك العنوان هو عنوان المركز الذي تعالج فيه روحية، كما قالت له مريم. اغلق الباب خلفه بسرعة، لم يتأثر كثيراً بحركة الهوام وحشرات الليل التي اختفت في حجورها تراقبه بعيونها الصغيرة وهو يتحرك بخفة داخل المنزل. لا يذكر يحيى كم مرة دخل فيها إلى هذا المنزل، منذ أن كان صغيراً، يتذكر خوفه في كل مرة دخل فيها مع صباح، لكنه لم يعد خائفًا الآن وكانه في زيارة إلى صديق حميم!!. عبر القاعة البحرية، التي كانت تشتعل في الصباح. لم يندهش بأن النيران لم تأت على شيء، وأنا كل شيءٍ كما هو. كان الهدوء يخيم على المكان ولا تسمع فيه سوى صوت حشرات الليل، وصياح ألبوم، الذي استوطن الشجرة الكبيرة. بحث يحيى عنها بعينيه، لم تكن قد ظهرت بعد، لكنه رأي ذلك الزير الفخاري الكبير الذي يقبع في أحد أركان الحديقة وفوق غطاءه كوب نحاسي طويل اقترب منه بهدوء كأنه رآه قبل ذلك كثيراً. سمى الله ورفع غطاءه، ثمَّ دس الكوب النحاسي بداخله، ورش جذور الشجرة بالمياه، بدت العملية منظمة جدًا وكأنه تعلمها منها. بعد عدة دقائق، وجدها تقف خلفه، بنفس هيئتها التي رآها في الأرض صفر. ابتسمت له واحتضنته قائلة في ود:

- للمرة الثانية لم تخلف وعدك معي يا يحيى، أنت صديقي وأنا أشكرك.

ابتسم يحيى لها في ود وكأنه يعرفها منذ زمن. فقال لها:

- كيف حالك يا مريم... هل تلعبين مع الأطفال في الجزيرة الآن أم أنت حبيسة الشجرة ردت عليه في حزن:

- سأبقى كما قلت لك حبيسة تلك الشجرة حتَّى يفصل الله في الحقوق، لكنني ألهو معهم مرة في العام، وكلما وجدت شخصًا قويًّا مثلك يخرجني من سجن تلك الشجرة اللعينة. قالت له هل تريد اللعب بالكرة. لاحظ تلك الكرة الملونة التي انفجرت أمام الصول صقر وكادت أن تحرق وجهه، فازدرد لعابه خوفًا إلَّا أنه عاملها كطفلة في السابعة، وأخذ يلقف منها الكرة، ثم ركبت الأرجوحة المعلقة في الشجرة العالية، وأشارت له بالركوب بجوارها، تذكر أرجوحة روح الفؤاد القوية المرتفعة جدًا، عندما ارتفعت به مريم إلى ارتفاعات شاهقة. شاهد قبة المسجد الكبير وغرفته وسريره، شاهد بيوت الجيران والطرق والشوارع. شرب معها العسل اللذيذ وأكل البندق، جلس معها طوال الليل وعرف منها حكايتها التي اِقشعر لها بدنه. اقترب الصباح من الظهور في الأفق. فقرر أن يودعها ويرحل لكنها قال لها:

- لي عندك رجاء، ردت علي قائلة في ودٍ:

- منذ عشرات الأعوام لم أر شخصًا مثلك يا يحيى، شخص شجاع وقوي يحترم وعوده، مُرني وأنا سوف أنفذ، قال لها يحيى في جديةٍ:

-الرجاء كُفي الحرائق عن المنطقة، فالناس ليس لها ذنب، وأعدك أنني سوف أنفذ. قالت له في حزم

-حسنًا... لكنها لم تأت حتَّى الآن سوف أعطيها مهلة حتى نهاية الشهر، فإذا لم تعد، فلن أضمن أي شيء، فقط اذهب وقل لها، أن مصيرنا قد صار واحدًا وأننا سوف نموت سويًّا، كما عشنا سويًّا، أعلم أنه ليس لنا ذنبنا لكنه قدرنا وعلينا تحمله في شجاعة. عدني بذلك، ثم أشارت إلى العنوان المكتوب على البوابة.

- لقد عرفت العنوان الآن، هز يحيى رأسه بإيجاب فقالت له في حزم:

- إذًا أرجوك اذهب وأبلغها هذا الكلام.

(36)

الطيف

جلس الأستاذ عيسى ياسين المحامي على الكرسي المقابل لروحية، تأمل ذلك الشاب الطويل الذي كان يسير بقدم مصابة ويستند على عكاز معدني وهو يرتدي كابًا أسودًا وملابس عصرية ويخرج من عندها. كانت غرفة الزيارة في المصحة العقلية الخاصة تبدو أنيقة بأثاثها الفاخر، وأرضيتها الرخامية البيضاء وطاقم التمريض الأجنبي. بدت روحية أكثر جمالًا وأناقة، بتلك البيجامة الحريرية الوردية، التي ارتدتها، مع شعرها الناعم المعقوس خلف رأسها. لاحظ عيسى أنها بدت مهمومة فسألها في فضول قائلًا:

- من هذا الشاب يا روحية، يبدو أن زيارته قد أصابتك بالكثير من الحزن.

ردت عليه في هدوء:

- إنه يحيى ابن جارتي نادية، لقد جاء ليقول لي كلامًا أنا أعرفه جيدًا، لكن أحدًا لم ولن يصدقني مد عيسى يده بإصبع موز، وحاول وضعه في فمها في حنان، لكنها كانت شاردة ورفضت تناول أي شيء، حاول ترغيبها بكلمات بدائية، مثل كوني شاطرة، أو هم يا جمل، كان صبورًا إلى حدٍ جذب انتباه أعضاء طاقم التمريض الذين اندهشوا من صبر ذلك الرجل المُحب، أنه يأتي كُل يوم ليفعل ذلك، يجلس

ومعه بعض الفاكهة بالساعات حتى يأذنوا له بالزيارة ثم يجلس ليطعمها، قال لها بدلال:

- أرجوكِ يا روحية، يجب أن تتناولي شيئًا، كانت تتأمل الحديقة الجميلة بالخارج ولا تنظر له تقريبًا، سمعت صوت الطائرة المُرتفعة في السماء، تأملتها كثيراً حتى غابت عن الأنظار. بقي صامتًا يُتابعها ويده لا تزل مُعلقة في الهواء بأصبع الموز، حتى التفتت وقالت له:

- صباح سافرت، ابتسم في حنان قائلًا:

- نعم هي مسافرة من مدة، فقط تمنى لها التوفيق، أنت تعلمين. ابتسمت في وهن قائلة:

- النقود، مرة أخرى النقود، هي لم تصنع لي شيئًا يا عيسى؟!

- لكنها ظنت أنها سوف تسعدك بوضعك هنا، ابتسمت قائلة:

- تعلم أنني لا أريد شيئًا، أنت أكثر شخص تعرف، أن كل ذلك لا يعنيني، كل ذلك لا يساوي نظرة من عين حسام اِبني. بكت كثيراً كانت تبدو في قمة تركيزها هذا اليوم لدرجة أن ياسين شعر أنها تشفى. سألته بسرعة:

- هل بحثت عنه كما وعدتني، ابتسم في حنان قائلًا:

- لن أخبرك حتى تتناولي قطعة الموز هذه، لقد أخبروني هنا أنك ترفضين الأكل، أرجوكِ افعلي شيئًا واحدًا من أجلي في حياتك، قالها بحدة فنظرت له باحترام ثم وضعت قطعة الموز في فمها، فقال لها:

- إنه مع والده في لندن، ويدرس الجراحة، حاولت الوصول إليه إلا أن والده يفرض عليه سياجًا من السرية، حيث يستغل نفوذه القوي كعضو مجلس نواب في الوصول إليه لكنني سأحاول مرة أخرى ولن أيأس، تلفتت له برقة قائلة:

- نفسي أسألك سؤالًا واحدًا يا عيسى، ضحك عيسى قائلًا؟

-على الرغم من معرفتي به، لكن تفضلي؟

- لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا تحملت كل هذا الجنون لمدة عشرين عامًا؟ الكل هرب حتى زوجي وابني وبقيت أنت وصباح، لكن حتى هي ضجرت مني ومن ابنها ورحلت. لماذا يا عيسى، لقد عذبتك كثيراً في حياتك ولم أقدم لك شيئًا، أنت لم تتزوج حتى الآن، على الرغم من اسمك وشهرتك، هل أنت قديس أم مجنون أم ماذا؟ كان عيسى يمسح زجاج نظراته التي بللتها دموع كثيفة بمنديل قماشي كلاسيكي، ثمَّ أمسك يدها في رومانسية جعلت الممرضة النرويجية الحسناء تتنهد، وهي تشاهد ما يحدث. إنها لم ترَ مثل هذا من قبل. مد عيسى يده إلى المجلة الأمريكية التي كانت أمامه وأخذ يقلب فيها حتى رأى فتاة جميلة تضع وشمًا على ذراعها فقال لها في هدوء وهو يشير إلى الوشم قائلًا:

- هل تعرفين ما هذا؟ نظرت قليلًا له ثم قالت:

- آه لقد رأيته مرة في التلفاز، يسمونه وشم.... صح. ابتسم عيسى برقة قائلًا:

- آه وشم، أوتاتو، كما يقول شباب هذه الأيام ،عاد وسألها:

- هل تعرفين أكثر ما يُميز الوشم؟ تمهلت قليلًا ثم هزت رأسها نافية في براءة لكن عيسى رد عليها بثباتٍ قائلًا:

- أعظم صفات الوشم أنه يلتصق بالجسد، لا يخرج أبداً منه سوى بالدم، أو يموت مع الإنسان، ثم وضع يدها على قلبه هامسًا لها:

- هل تذكرين خريف ثلاثة وثمانين، عندما رأيتك أول مرة بالكلية. ابتسمت وهي تفتح حدقتيها كالأطفال وأومأت برأسها، فقال لها:

- منذ ذلك اليوم، شعرت أن ذلك الوشم قد رُسم على قلبي وروحي، صار

وشمًا أبديًّا، لا يُمكن إزالته سوى بالموت يا ريحانة، ابتسمت وهي تغمض عينيها في أسى قائلة:

- ياه يا عيسى، هل لا زلت تذكر ذلك الاسم الجميل، أنا نسيته، الآن يطلقون عليّ روحية المجنونة، أو العفريتة. نظر بغضبٍ قائلًا:

- قطع ألسنتهم، لا أحد يعرفك مثلي، أنتِ ريحانة الدار، ست الكل. الطبيب قال لي أنك سوف تتحسنين، سأنتظر عودة صباح ونتزوج. ضحكت روحية قائلة:

- نتزوج، ابتعد عني ياصديقي، ألَّا تصدق أنني لعنة؟!، لقد طالت لعنتي كل شيء، زوجي وابني، زملائي في العمل، حتى صباح ابنة عمي، فأرجوك ابتعد عني، وإن كنت تحبني صحيح فإني أرجو منك رجاء. تنهد عيسى في ألم قائلًا:

- بالطبع، تفضلي. قالت له هامسة:

احتفظ بكل شيء عندك ونفذ في الوقت المناسب كما اتفقنا، هز رأسه موافقًا:

- بالطبع سأفعل. لكنها جذبته مرة أخرى من بذلته قائلة:

- كما أرجوك أن تخرجني من هنا، قطب عيسى حاجبيه في دهشة قائلًا:

- لماذا؟ أرى أن كُل شيء مثالي ومدهش هنا، كما أنك تتحسنين جدًا صدقيني، نظرت له هامسة بعصبية وعلامات الجنون تزورها من جديد:

- صدقني أنت، إن كل شيء يسوء، هل تعلم لماذا جاء هذا الشاب؟ هز رأسه نافيًا فقالت له وهي تتلفت في حذر.

- لقد جاء ليحذرني من مريم، لقد أرسلت معه رسالة لي. بأنها هناك وحيدة. إنها حزينة وغاضبة لا أحد يلعب معها، لا أحد سوف يتحمل بركان الغضب إذا انفجر من عندها. انكمش عيسى في كرسيه، على الرغم من أنه قد سمع ذلك من ذي قبل، إلا أن لهجتها هذه المرة كانت جادة ومُخيفة، فسألها في شك:

- ولماذا هذا الشاب بالتحديد، قد يكون نصابًا، أو يبحث عن استغلال أية فرصة تسنح له قالت له بسرعة:

- هذا الشاب عاد من الموت. سقط القلم من يد عيسى إلا أنه صمت قليلًا ثم قال:

- أجل تذكرته، إنه صورته تملأ الجرائد. بدا لعيسى أن روحية لم تسمعه لكنها كررت رجاءها قائلة في توسل:

أرجوك ياعيسى، أخرجني من هنا سوف تعرف كل شيء فيما بعد. هز كتفه في يأس:

- تعرفين إنه لا يمكنك الخروج، ألا بإذن كتابي من قريبتك صباح، أنت تفهمين القانون جيدًا لكنني سوف أحاول. ضغطت على يده مرة أخرى.

- غدًا ياعيسى، غدًا يا عيسى. مريم سوف تشعل الدنيا إن تأخرت عليها أكثر من ذلك.

(37)

كانوا جميعًا هنا

- يعاني يحيى من ضلالات وهلاوس قد تصل به إلى حالة من حالات الفُصام، فيجب التعامل معه بحرص. شكرت بسمة الطبيب وأغلقت الباب خلفها في حيرة، بينما جلس يحيى خارج الغرفة متوترًا. قال لها مُدافعًا عن نفسه:

- لست مجنونًا يا بسمة حتى تحضريني إلى هنا. ردت بسمة قائلة في حدة:

- لم أقل انك مجنون، لكن ماتراه غير حقيقي. زم يحيى شفتيه وصرخ كالأطفال قائلًا:

- لا... إن كل ما رأيته حقيقة، وما حلمت به حقيقة، وإلا بماذا تفسرين تلك الأشياء التي وجدوها معي، الشال الأخضر والحمامة العاجية والخاتم والمسبحة. مطت بسمة شفتيها في حيرة وهي تفكر قائلة:

- اهدأ يا يحيى، ما تشعر به هو شيء طبيعي لمن مر بتجربة فريدة مثل تجربتك، قال لها في توتر:

- الغيبوبة تحدث للكثير من الناس و... قاطعته بسمة في حدة:

- لم تكنْ في غيبوبة يا يحيى كما تظن، بل عدت من الموت كما قال الأطباء!. وكل من مر بتلك التجربة، يرى أشخاصًا ويتحدث معهم ولكن؟ رد عليها يحيى في ضجر:

- ولكنني عدت ومعي أشياء، عدت برسائل وأمانة لا بد أن أوفيها، ولذلك اعتبرتوني مجنونًا أنت وذلك الطبيب المخرف. بكت بسمة وهي تنظر قائلة:

- لقد تعبت يا يحيى. لقد تحملت مرض والدتك، وتحملت أفعالك الطائشة، ثم تجربة الحادث المرعبة، وها أنت الآن تحدثني عن رسائل غامضة وعالم خفي. أرجوك يا يحيى حتى لا تصل بحالتك إلى مشاكل نفسية خطيرة، أرجو منك أن تساعدني، وتنتظم في العلاج. لم يبد على يحيى الاقتناع بأي كلمة، بل كان ثابتًا وهو ينظر في عينها، ثم قال:

- حسنًا سأساعدك يا بسمة سأصبح كائنًا مُطيعًا كقطك الكسول، كما أمر ذلك الطبيب الغبي، ولكن لي طلب واحد، أرجوكِ ساعديني هذه المرة، ثم سأمتثل لكل شيء. تنهدت ثم قالت:

- ماذا تريد يا يحيى؟

- أريد أن أسافر إلى هناك. نظرت له في حيرة قائلة:

- تاني يايحيى! لا فائدة، لقد حذرتك، وها أنت الآن تقودني إلى رحلة جنون أخرى. لكنه ألح عليها كطفلٍ صغير، يحاول إقناع أمه بزيارة الملاهي فوافقت على مضض، لتجد نفسها بعد ساعة تسير بسيارتها على الطريق الزراعي ويحيى يجلس مرتعدًا والألم يعصف بساقه. لكنه لم يكن يعبأ بذلك، بل كانت هناك عشرات الأسئلة التي تعبث برأسه. زفرت بسمة قائلة في غضب:

- صار لنا مدة نسير، شعر بغضبها فقال لها محاولًا تهدئتها:

- هذه هي المرة الأخيرة التي سوف أرهقك فيها لكنني أريد أن أرى المنزل، فتلك العائلة التي كانت بالغرفة، هي تلك االعائلة التي مكثت معها في الأرض صفر، إنها هي، عائلة السيد زين. داست مكابح سيارتها بعنف وزحفت على الطريق الترابي حتى توقفت. لم تتمالك نفسها وأجهشت من البكاء قائلة:

- ماذا قلت؟ قال لها مكررًا الأمر ببساطة.

- عائلة السيد زين. قالت له في عصبية:

- أنا لا أعرف ماذا تريد بالضبط لكنني سأسير معك إلى النهاية لعلك ترتاح.

صمتت وعادت لقيادة السيارة التي ابتعدت ساعة أخرى عن القاهرة. حتى وصلت إلى نطاق مُحافظة الغربية، بينما ظل يحيى محملقًا في الطريق، إلى أن رأى لافتة (قرية سندوب الكبرى)، أمرها بالوقوف تحت اللافتة، قائلًا بلهفة:

- هُنا يا بسمة توقفى هنا، سألته في توتر:

- هل تم الحادث هنا؟ أومأ في حزنٍ قائلًا:

- نعم، لقد كنت نائمًا تحت تلك اللافتة بالضبط. تابع يحيى بعينيه ذلك الممر الترابى بين الحقول، الذي يصعد إلى الربوة العالية:

- أريد أن أسير في هذا الطريق، قطبت بسمة حاجبيها لكنها أطاعته دون كلمة، سارت السيارة عدة كيلومترات، حتى ارتفعت إلى الربوة العالية، التي عليها ذلك المنزل الغريب المُرابض كأبي الهول. خفق قلب يحيى بينما انسابت دموع بسمة وهو يقول:

- أنا لست مجنوناًا ولا مخرفًا، هذا هو المنزل. توقفت السيارة فخرج منها مُسرعًا، بينما بقيت بسمة لفترة وكأنها لا تقوى على الحركة، لم يلتفت لها يحيى بل سار، مُتحاملًا على ساقه المُحطمة، وكأنه يعرف طريقه جيدًا، كل شيء كما هو، ذلك السور الأخضر القديم، أرجوحة روح الفؤاد، حتى البواب الأسمر، عم عثمان، ها هو جالس كما هو! اقترب منه قائلًا:

- كيف حالك يا عم عثمان؟، قطب الرجل حاجبيه قائلًا:

- عم عثمان؟!،كيف عرفت عم عثمان؟، كانت بسمة ترقب الموقف في توتر بينما قال له يحيى:

- لقد جئت إلى هذا المنزل منذ فترة صغيرة مع السيد زين وعائلته، وسلمت عليك، قبل أن أدخل إلى المنزل. ضرب الحارس كفًا بكف، وهو يكاد يجن من الجملة التي قالها يحيى للتو:

- منزل؟!، فترة صغيرة، حضرت مع السيد زين؟!، عم عثمان!، أنت بالتأكيد شخص مجنون أو مُخدر!، ولولا حرمة هذا المكان وحالتك الصحية، لحطمت وجهك، احتد يحيى على الرجل الأسمر بعدما اتهمه بالجنون وكاد يشتبك معه، لكنهما سمعا صوتًا نسائيًا قادمًا من الخلف قائلًا:

- اتركه يا عم جبر؟! نظر الحارس إلى الفتاة قائلًا:

- الدكتورة بسمة؟! أهلًا وسهلًا، هذا الشخص المجنون حاول... قاطعته بسمة:

- هناك سوء تفاهم يا عم جبر، إنه شقيقي يحيى!!، دار يحيى حول نفسه في جنون وهو يصرخ:

- بسمة... هل تعرفين ذلك الشخص؟، صمتت بسمة وجذبته من يده حيث الباب الكبير الذي دخله من قبل، أوقفته أمام البوابة، وقالت له:

- اقرأ وستفهم كل شيء، بدأ في القراءة، والعرق يتصبب منه، شعر أن ساقه الباقية لا تقوى على حمله فجثى على ركبتيه.

(إنا لله وإنا إليه راجعون - مدفن عائلات آل زين). قال لبسمة وهو يلهث من فرط القلق:

- ولكن كيف؟!، لقد رأيت كل شيء، السيد زين وأسرته، رأيت عم عثمان البواب، وروح الفؤاد، رأيت حفل استقبال آمال، وتلك الكلمات التى قالتها لي حتى السيارة السيتروين رأيتها! فما معنى هذا؟ ردت عليه بحزن:

- مادمت جئت إلى هنا، تعالى واقرأ الفاتحة لأمك. وقف ذاهلًا أمام القبر وهو يقرأ اسمها مكتوبًا فوق الشاهد.

المرحومة آمال محمد زين، بقى شاردًا فلكزته في ذراعه قائلة:

- وهذا هو قبر جدتك نعيمة زين، كان القبر غريبًا، فوقه نحتًا، يشبه الكتاب المفتوح به الكثير من السطور غير المفهومة. وقف يتأمله مرتعدًا وهو يتذكر كلماتها هناك. في الأرض صفر.

- عد إليّ بكتابك الذي وعدتني به، ولسوف تحصل مني على هدية. كان المكان غريبًا وأسطوريًّا يبدو كحديقة منزل واسعة، بها سيف حسن الذي ظل معلقًا في جرابه والذي كان يقاتل به التنانين، وأرجوحة روح الفؤاد التي كانت على تبة مرتفعة، حتى بقايا الستروين السوداء كانت معلقة على مسافات بعيدة من كل قبر. كان يتأمل الأشياء في ذهول، تلك النحوت والأشياء الغريبة، إذن فهو ليس واهمًا كما يعتقدون. إذن فالأرض صفر، حقيقة قاطعة لا نقاش فيها. نظر إلى بسمة التي جلست على أحد الكراسي تقرأ القرآن، بدت تحمل حكمة ووقارًا يفوقان عدد سنوات عمرها. نظرت له بعدما وجدته يخفي وجهه بين يديه ويبكي بكاءً مريرًا، فأغلقت كتابها واقتربت منه بلطفٍ وهي تقول:

- إن عم عثمان هو جد عم جبر حارس المقبرة!! لقد حضرت مراسم دفن أمك يا يحيى! ولكنك كنت على الجانب الآخر، كنت في عداد الأموات!، ولذلك رأيت جدك، السيد زين وأسرته الذين فارقوا الحياة جميعًا إثر حادث أليم منذ أكثر من أربعين عامًا، رد يحيى مسرعًا باندهاش.

- ولكن كيف؟، جدي هو الحاج علي المنصوري وجدتي هي السيدة نعيمة. نظرت له في دهشة:

- كنت بعيدًا لدرجة أنك لم تسألها مرة واحدة عن تاريخها، جدتك نعيمة ليست والدة أمك بل هي عمتها؟! لم تكن تنجب ولذلك فقد كفلتها بعد الحادث الأليم هي وزوجها علي المنصوري، واعتبروها ابنتهم وهي ابنة الخامسة عشرة

ولقبوها بنادية. اسم جديد تيمنًا بحياتها الجديدة معهم، وبعد مرور الوقت نسى الجميع قصة السيد زين وأسرته وصارت نادية ابنتهم، لقد كانت صغيرة وبائسة عندما فقدت أسرتها جميعًا في حادث... قاطعها يحيى وهو يشير إلى بقايا السيارة السوداء الموجودة عند المقبرة.

- لقد تذكرت الآن، لقد حكت لي جدتي عن تلك الأسرة السعيدة التي كانت تتنزه في سيارة سيتروين سوداء موديل الخمسينات، وفقدت الأسرة حياتها جميعًا في حادث مروع في ذلك اليوم، ولم يبق منهم سوى فتاة في الخامسة عشرة من العمر، إنها كانت تحكي قصة آمال أمي المسكينة التي عانت مرارة اليتم مبكرة. تأمل القصر مرة أخرى وهو يغالب دموعه قائلًا:

- الآن فهمت، لقد كانوا ينتظرونها جميعًا، ولقد عادت إليهم كما هي ابنة الخامسة عشرة، لقد أقاموا لها احتفالًا رهيبًا و.... قص عليها كل ما حدث وهو يرتعد وكأنه مريض يهذي في طور الحُمى، فانكمشت بسمة من الخوف وهي تسمع حكايته ثم قالت وهي تركب سيارتها:

- لقد سمعت وصايا أمك الأخيرة لك. لقد بدت قاسيةً عليك لكنها كانت تحبك أكثر من روحها، وماتت حزينة لفراقك، ونادت عليك كثيراً في غيبوبة المرض، حتى فاضت روحها إلى خالقها. أرادت دومًا أن تقول لك هذا الكلام في حياتها لكنك لم تعطها الفرصة، كنت تعيش لنفسك ولأهوائك فقط. كانت دموع يحيى تنساب في صمت وعيناه مثبتتان على الطريق، أخرجت بسمة مجموعة من الجرائد والتقارير الطبية، وقدمتها له وهي تقول: هذا ما قاله الأطباء، وقالته الصحف أثناء فترة غيابك في الأرض صفر كما أسميتها. اِقرأها جيدًا، لعلك تفهم ما تبقى من القصة.

(شاب يعود من الموت بعد حادث مروع على الطريق الزراعي، عاد من الموت بعد ست ساعات كاملة من وفاته، اكتشف إنه كان محور الأحداث في الفترة التي

غاب فيها أو سافر فيها إلى الأرض صفر كما يُحب أن يقول لاحظ صورته وهو نائم بالمستشفى وحوله الكثير من الأسلاك. وأكمل القراءة

يحيى الشاب المعجزة الذي عاد من الموت بعد ساعاتٍ طويلة، قصة شاب عاد من الموت، ظل نائمًا على الطريق عدة ساعات قبل أن يكتشفه الأهالي ميتًا ثم يعود إلى الحياة.

(38)

تلك الأشياء

نام يحيى في سريره واضعًا بجواره تلك الأشياء التي كان يحتفظ بها معه وهو في الأرض صفر. تساءل كيف جاءت إلى هنا؟. فجاءه الرد سريعًا من بسمة التي قالت:

- لقد وجدوا تلك الأشياء في جيبك أثناء الحادث، وأعطوني إياها مع متعلقاتك الشخصية، فاحتفظت بهم في تلك العلبة، هم بسؤالها إلا إنه سمع صوت جرس الباب تبعه صوتًا جهوريًّا يسلم على بسمة ويسأل عن صحته. عرفه يحيى فارتسمت ابتسامة على وجهه. دخل سائرًا ببطٍ وكتفه الأيمن مائل قليلًا حيث تم تثبيت تلك الذراع الصناعية بها. ضحك في سعادة عندما رأى وجه يحيى ثم قال:

- عمر الشقي بقى، كتب لك عمر جديد يا بطل، مال على سريره واحتضنه برفق، ووضع علبة الشيكولاتة على المنضدة القريبة منه. ثم تنهد بقوة قائلًا:

- كدة يا يحيى، كنت هاتضيع يا جدع، قطب يحيى حاجبيه. قائلًا:

- تعرف يا عم جرجس، لقد كانت رحلة عظيمة، رحلة لا يمكن محوها من ذاكرتي ماحييت. صمت جرجس وهو يرتشف عدة رشفات من فنجان القهوة الذي أعدته بسمة قائلا: وهو يُشير إلى الضمادات التي تغطى يديه وساقه قائلًا:

- لقد كان هذا الحادث، أليم بالفعل، لكنك يجب أن تشكر الله عليه فلقد نجاك من مصير أصدقائك:

كان يحيى يتابع كلمات جرجس بهدوء، خبرة الأرض صفر علمته عدم التسرع تجاه كل الأمور التي يراها، فالمعتقدات والموازين قد تنقلب في لحظة، انتظر حتى التقط الأستاذ جرجس نفسًا طويلًا من سيجارته، تبعه برشفة أخرى من الفنجان، ثم مال عليه هامساً لكي لا تسمعه شقيقته.

- أنا هنا للاطمئنان عليك ولا داعي للعتاب الآن فهذا له وقته، لكنني للأسف عرفت كل شيء من الطلياني، لقد كان مذعورًا جدًا بسبب أن يفتضح أمرك بعد الحادث، وأن تكتشف الشرطة تلك المخدر ات اللعينة... سأله يحيى في توتر.

- وهل اكتشفتها. قال له بهدوء وهو يشد على يده:

- اطمئن فلقد أقفل محضر الحادث، بعدما اشتعلت سيارتك الحمراء العتيقة، ولم يتهمك أحد بشيء. أشعل يحيى سيجارته قائلًا في دهشة:

- كيف هذا؟، رائحة الكوكايين المشتعل كانت ستلفت الانتباه. ابتسم جرجس قائلًا:

- لحسن حظك فقط، لم يجد المعمل الجنائي أية آثار للكوكايين، فقط سكر أبيض ولا شيء آخر.

- ولكن كيف؟!! ابتسم جرجس قائلًا:

- لو عرفت مصير أصدقائك لعرفت كيف حدث ذلك؟. رد يحيى قائلًا في ود:

- للأسف لقد عرفت مصيرهم، دعك منهم الآن وأخبرني، هل حسمت أمرك. أم لا زلت مترددًا في السفر؟ ابتسم جرجس مقار في وهن وهو يسحب آخر نفس من سيجارته المحلية، قائلًا في مرارة:

- للأسف يا بني أنا جبان، لا أقوى على مغادرة تلك الأرض التي رويت بدمي على الرغم من كل ما لاقيته من أهوال فالضغط قد أصبح أقوى مني، كلهم يضغطون عليّ للذهاب إلى هناك، ماتيلدا زوجتي سوف تسافر ولذلك هجرتها وسكنت هنا بجواركم، وها أنا صرت وحيدًا. همّ يحيى أن يتكلم لكن جرجس نهض مُسرعًا وهو يقول، عندي موعد مع الرجال في المقهى، سوف أزورك غدًا. حاول يحيى النهوض من السرير إلا أن بسمة كانت تقف له محذرة، فامتثل وعاد، بينما أطلق جرجس ضحكة ماجنة عن سيطرة النساء قائلًا، أختك هذه جبارة تشبه تلك الحيزبون التي عندي. ضحك يحيى كثيراً من تعليق جرجس بينما قطبت بسمة حاجبيها في دلال قائلة:

- كده يا عم جرجس، أنا حيزبون، سامحك الله، ضحك جرجس وهو يُربت على كتفها قائلة:

- أمزح معك يا بسمة، أنتِ ابنتي الحبيبة، أنا الذي حملتك يوم ولادتك إلى مكتب الصحة مع والدك رحمه الله، وسجلنا اسمك. تطلع جرجس إلى صورة الأب والأم في حزن قائلًا:

- رحم الله والديكم لقد كانا من أطيب الناس. كتم دمعته التي كادت تفر من عينيه، وخرج مسرعًا من باب الشقة وأغلق الباب خلفه. ساد الصمت لعدة دقائق كانت دموع بسمة تغلبها بينما كان يحيى يتظاهر بالنوم مغلقًا عينيه في ألم. لكن جرس الباب أخرجهما من حالة الحزن، فهرولت بسمة وهي تطلب من يدق الباب بأن ينتظر. ولدهشتهاوجدتها تنظر لها في حزن وهي ترتدي ملابس الحداد، سيدة ستينية، جميلة بيضاء صغيرة الجسد، رمادية الشعر ملونة العينين، بدت أوروبية الملامح، لم تعرفها بسمة في البداية لكنها قالت لها:

- ربنا يعزيكم يا بنتي، أنا عمتك ماتيلدا زوجة عمك جرجس مقار، تهللت

أسارير بسمة كثيراً واحتضنتها في ود بينما جلست السيدة حزينة في صالون المنزل. ظلت تتأمل محتوياته وبراويز الصور المعلقة على الجدران، لم يفتها تلك الصورة المرحة التي كانت تجمع جرجس زوجها وآدم الطيب وملاك أسطفانوس، تلك الصورة التي يصر جرجس على وضعها في منتصف غرفة الاستقبال، وهم بالملابس العسكرية وعلى وجووههم ابتسامة نصر. سمعت صوت جرجس وهو يقول لها:

- لقد التقطها مصور من وكالة رويتيرز، بعد العبور بساعة واحدة فقط، وتصدرت تلك الصورة كل الصحف العالمية لفترة طويلة، بالفعل كان صادقًا فلقد حصل على العديد من المجلات والصحف الأجنبية التي تؤيد كلامه. انتبهت على صوت العكازة المعدنية بالأرض، ورأت يحيى قادمًا عليها متهللًا وإن كان وجهه يحمل الآلاف من التساؤلات. يعلم أنها لا تحب تلك المنطقة ولا أهلها، ولا تحبه هو شخصيًا. ابتسم لها ابتسامة مقتضبة وهو يقول بترحاب مبرمج:

- أهلًا طنط ، نهضت وربتت على كتفه في ود وهي وتطلق عبارات التعازي، ممزوجة بشكر الله على عودته سالمًا، ثم جلست صامتة تراقب بسمة التي كانت تصب القهوة بمهارة. لاحظت أنها تتأملها في قلقٍ، تريد أن تقول شيئًا ليحيى فتركتهما وأغلقت الباب. فأخرجت علبة سجائرمن حقيبتها تناولت واحدة في توتر، بحثت عن قداحتها، فمد يحيى يده سريعًا في جيبه، وأخرج قداحته وأشعل بها السيجارة، كان مندهشًا، فهو لم يرها تُدخن فيما مضى!، تركها تطلق نفسًا عصبيًا لعلها تتشجع في الكلام. ظل يرقبها في صمت حتى قالت في توتر:

- أعلم أنني لست محبوبة منكم، كل منا له طريقته في الحياة، لكنني لست سيئة بهذا القدر يا يحيى. قال يحيى في خجل:

- أنا لم أقل هذا، لكنك كنت تبدين كرهك الواضح لنا. نظرت له في عتاب قائلة:

- كرهي لمن؟!

- كرهك لنا نحن سكان السيدة زينب والمناطق الشعبية، بما إنك ابنة الحسب والنسب، ابتسمت في هدوء وهي تخرج صورة قديمة بها فتاتان أمام تمثال رخامي جميل للسيدة العذراء، داخل مدرسة الجيزيوت قالت له بتهكم:

- هل تعرف من بالصورة، دقق جيدًا، تلك الصورة تخصني أنا وأمك... أمك كانت صديقتي؟! دهش يحيى وهو يحملق في الصورة. تأملها وهو يلمح ماتيلدا تجهش بالبكاء قائلة:

- أنا لست غريبة عنكم يا بني، فأبي كان تاجرًا للأقمشة في الحمزاوي. وأنا كنت أدرس مع والدتك رحمها الله في الجيزويت، ووالدتكم هي التي زوجتني لجرجس، من فرط حب والدك آدم له، هل فهمت كم أنا قريبة منكم يا يحيى؟

- لكن ماذا حدث؟، لماذا بدا الكره بينكم؟ قاطعته قائلة:

- هذا لا يهم، كانت في وقتها، منافسة حمقى بين فتاتين، كل منهما تريد أن تستأثر بزوجها وتفصله عن صديقه العزيز. مجرد صراع سخيف كان الغرض منه هو السيطرة ليس إلَّا، لكن بقى حبنا واحترامنا لبعضنا كما هو وازداد تواصلنا في السنوات الأخيرة لكننا لم نخبر أحدًا بذلك، لكنني لست هنا من أجل ذلك أنني في ورطة كبيرة يا بني. صمت يحيى بينما أكملت ماتيلدا:

- عمك جرجس في خطر وحالته تزداد سوءًا، قلبه صار ضعيفًا جدًا، والطبيب حذرنا من أي صدمات، لكن الآن حالته النفسية ساءت أنه يكلم أمواتًا ويحيى في الماضي، وصار يخرف كثيراً قال لها يحيى بغضبٍ:

- أنتِ السبب، أنت تثيرين غضبه تجبرينه على ترك موطنه، وأحبابه، لماذا؟!

- الله يعلم يا بني، لقد تعمدت أن أظهر بذلك الشكل حتى أنقذه، أنا أعرف زوجي، الممنوع عنده مرغوب، أنا قمت بدور الشريرة، الكارهة للأرض التي، تجبره

على السفر إلى أمريكا، حتى ينفر مني ويهرب إلى هنا، حيث إخوانه الذين يحبونه. لكن حبه لحفيدته ماجي غلب كل شيء، إنه يفكر في زيارتها هناك، أرجوك يا يحيى لو تحبه لا تجعله يفعل، نظر يحيى في عينيها بقوة قائلًا:

- ماذا يعني تاريخ الأول من سبتمبر بالنسبة لأسرتكم يا عمتي ماتيلدا، ارتعدت ماتيلدا وسقطت من يدها الصورة وهي تحملق فيه بفزع قائلة:

- ماذا يا يحيى؟، كيف عرفت الأول من سبتمبر هذا؟، لم يكنْ يحيى في حالته الطبيعية، لدرجة تيقنت معها ماتيلدا، أن ابن صديقتها قد أصابته لوثة من نوع خاص. لقد صار يكشف بعض الأشياء الخاصة.

انكمشت في فزع وهي تبكي عندما رأته. يحملق في السقف ويحكي وكأنه ينقل لها من فيلم مدبلج كان ما يقوله خالياً تماماً من المشاعر.

)... البجعة السوداء يوم الأول من سبتمبر- عام ألفان وخمسةعشر.Black swan(ملهى

تعرضت أسرتك لحادث إطلاق نار من جهة عصابة من الزنوج، داخل الملهى، أصيب على أثرها ابنك فادي في ظهره وهو يسير الآن على كرسي ذو عجلات، أما حفيدتك ماجي فهي الآن تنام في مهد خشبي جميل بصحبة رجل صالح، وتلهو مع الدلافين في الماء على الشاطئ الآخر، وفتح عينيه قائلًا في قوة:

لقد ماتت حفيدتك منذ هذا التاريخ!! أنتم تستأجرون فتاة تشبهها تمامًا لتحدثه عبر الإنترنت كل أسبوع، وتتغلبون على فرق الشبه بأنها تكبر، كما يمثل فادي عليه الصلف حتى لا يشعر بضعفه على الرغم إنه يعيش حياة سيئة هناك، لكنه لا يمكنه العودة الآن.

- كانت ماتيلدا، تبكي بصوت مرتفع جعل بسمة تدخل مسرعة لتحضنها باكية، لكنها ظلت تصرخ في وجهه قائلة:

- مُستحيل، كيف عرفت كل هذا؟. لا أحد في مصر كلها يعرف تلك القصة المؤلمة، فكيف عرفتها؟!. هز يحيى كتفه في عدم اكتراث وكأنه قد صار إنسانًا آليًّا ثم قال ببساطة:

- لقد رأيتها ولعبت معها، بل رأيت أشياءً أخرى كثيرة، كانت بسمة وماتيلدا تنكمشان معًا من الرعب، وهو يتحدث، حتَّى أنها صرخت فيه قائلة، لا أريد أن أسمع، خلاص لقد أرهقتني قال لها مبتسمًا:

- هل تحبين زوجك؟. جففت دموعها قائلة:

- بالطبع ما الذي دفعني لطلب المساعدة منك، أنني أحبه وأخشى عليه من الموت كمدًا، فهو يحب حفيدته بجنون. وسيموت إن علم بما حدث. رد عليها يحيى بطريقة ميكانيكية، إن الموت أمر إلهي لا مفر منه، لكننا سوف نقدم له هدية تمناها كثيرًا.... سنقدم له الخلود.

(39)

الوصية

تلك القدرة الرهيبة على الظهور والاختفاء، التي اكتسبتها من فرط وجودي وحيدة، مكنتني من الخروج من بوابة المستشفى النفسي، دون أن يراني هؤلاء الحمقى. لم أعد أرغب في المكوث هناك بين مُدمنين أثرياء، أو سيدات مررن بتجارب عاطفية فاشلة، أنا لا أنتمي إليهن وليس لي مكان بين الستائر النظيفة، والأرضيات البيضاء الزلقة مكاني هناك، بجوار صديقتي مريم. سامحيني يا مريم، فأنا لم أرغب في تركك وحيدة، وإنما صباح ابنة عمي. هي من أرغمتني على ذلك، ظنًّا منها بأن هذا سوف تريحني بهذا القرار، علمًا بأنني لا أرتاح إلا هناك، في منزلي القابع في الحارة الترابية، المُتفرعة من شارع السد في منطقة السيدة زينب، والتي أطلق عليها العامة والأطفال الأشقياء اسم حارة العفريتة، نسبةً إليّ!. أنا روحية العسال الموثقة بالشهر العقاري، وابنة محمد العسال تاجر الغلال الشهير بالبغالة، تحولت في ظرف عدة سنوات إلى العفريتة!. أعلم أنني أستحق ذلك يا مريم فأنا مُجرمة!!. توقفت السيارة الآن والرجل ينادي عليّ بصوته المتوتر، وهو يرمق هيئتي في فزع وكأنه يخاطب جثة خرجت لتوها من أحد القبور، كان يتعجلني بل يرجوني من النزول من السيارة قائلًا:

- شارع السد يا ست، وصلنا!. انطلقت السيارة مخلفة خيطًا ترابيًا ملأ الأفق،

بينما تهاديت بجسدي المُتهالك وعيوني الحمراء، عبر الشارع،لم اكترث كثيراً بنظرات الصبية والمارة وهم يفرون من أمامي، وبعضهم كان يطلق زفرات الكُره، في وجهي، لماذا يكرهونني؟. لا أعتقد منهم يعرف حكايتي!! يبدو أنه قانون الله العادل، فالحُب هبة الهية، اعترف بأنني لا أستحقها، فأنا موصومة الفى يوم الدين، أنا اللعنة ذاتها، هاهو الباب الحديدي الصدئ يقف شاهدًا على تلك الأهوال. الغروب هنا رائع ونسمات الهواء في الحديقة منعشة، هاهو المفتاح العتيق الذي يشبه مفاتيح قلاع العصور الوسطى يخرج من خيط الدوبارة المعلق في رقبتي منذ أعوام، وينزلق في الباب الصدئ، الذي زمجر منفتحًا على مصراعيه. لقد رأيتك تفتحين ذراعيك يا مريم، أغصانك وفروعك يهللون فرحًا لقدومي، فنحن صرنا واحدًا الآن، وها أنا قد عدت إلى بيتي. أذكر يوم عودتي من حياة زوجية فاشلة، انتهت بهروب زوجي بابني الوحيد ابن الثلاث سنوات إلى الخارج، هربًا من نوبات الجنون التي بدأت تزورني مبكرًا، كنت أبكي وأعد الكيلومترات على عداد السيارة العتيقة التي أقلتني، إنها تشبه تلك السيارة التي ركبتها اليوم، أو لعلها هي. كانت والدتي لم تزل حية في ذلك التوقيت. لم تتأثر أو تأخذني في أحضانها عندما وجدتني أحمل حقيبتي وأقف على الباب في توتر بل نظرت لي بعينين جامدتين ولم تذرف دمعة واحدة، وكأنه قد تم نزع غدة الرحمة من جسدها بعد ذلك اليوم المشئوم. بقينا سويًا في هذا البيت المُرعب الذي تتوسطه الآن شجرة ضخمة- استعصي اجتثاثها على الجميع فاستسلموا لها، وتركوها ترتع كما تشاء، حتى توحشت بشكلٍ مُخيف وامتدت فروعها لتخترق كل الحجرات المقابلة لها في الدور الثاني، ولا أحد يعلم من أين تأتي بالغذاء، على الرغم من إهمالي لها لسنوات طويلة، فلا أحد يسقيها ولا يعتني بها، لكن يبدو أن مريم... أقصد الشجرة لم تعد تعبأ بكل هذا، فهي ستكمل طريقها على أية حال! اقتربت منها وجلست أمامها، وضعت يدي المُنهكة أتلمس حراشيفها السميكة، شعرت بأنينها الواضح، لا أعلم إذا ماكان هذا

الصوت ينبع من داخلها أم من داخلي أنا. دوار شديد يعصف برأسي، يبدو أنه من تأثير مرض السكري، فأنا لم أتناول الدواء منذ يومين، شعرت أنها تحتضنني، وتشكو لي حالها، كان بكاءها يزداد وضوحًا. زاد الدوار عليّ فقررت أن أخلد للنوم في الغرفة البحرية، شديدة الهواء، سقطت مُتهالكة فوق السرير وقد نالت مني الحمى مبلغها، كان الشباك مفتوحًا على مصراعيه، ولا يمكن غلقه فلقد اِمتدت أفرع الشجرة إلى داخل الغرفة وارتفعت فوق السرير وكأنها تظلله، لم أعد أخشى منها كما في الماضي، بل صارت لي أكثر حميمية من أمي القاتلة، وأبي المُراهق وزوجي النذل! كلهم خانوني يا مريم، فلم يبق لي غيرك. نمت من التعب. وجدتها تلهو في فناء البيت، طفلة جميلة تطير غدائرها الشقراء مع الرياح الشديدة، جاءت مع أمها الغجرية التي تزوجها أبي، وقرر أن يسكنهما معنا في البيت، اعترضت أمي لكنه ضربها حتى تورم وجهها وتحطمت أضلعها. استسلمت بعدها للأمر الواقع، وتحملت سخافات زغدانة زوجة أبي، لكن نظرات الكُره التي بعينيها كانت تُنبئ بانفجارٍ وشيك، خاصةً بعدما سمعته يُخطط لطردي أنا وأمي مع زوجته زغدانة، لقد كانت خائنة يا مريم، لم نكن نحن فقط من تآمرنا عليكِ، لكن زغدانة خائنةٌ أيضًا، جريت على أمي، وأخبرتها بأننا سوف نُطرد في الشارع، لم أجد بعدها نظرات أمي الطيبة، بل رأيت حية رقطاء ترفل في ثيابٍ بلدية! ردت بثقة قاتلة:

- مش هايحصل ولا يكون، يا روح أمك!. ظلت صامتة في هدوء كأفعي الزرائب السوداء، التي تختبئ في التبن، انتظارًا لفريسة تمر بجوارها من هوام الليل. حتى جاء ذلك اليوم المشئوم يا مريم، يوم مولد السيدة. حيث تخرج الحارة عن بكرة أبيها للتمتع بالليلة الختامية للمولد، وسماع مديح الشيخ الطحان الذي يهز القلوب. كانت أمي معنا هناك، واشترت تلك الشجرة الصغيرة حتَّى تزرعها في صحن الدار الواسع الذي يرقد فيه الجمال الثلاثة في الشتاء، وكالعادة زاغ والدي وزوجته إلى وكالة الغوري، حتى يشتري لها الأقمشة والعطور التي طلبتها!...

عادت أمي بنا مُبكرة، ثُم وضعتني في فراشي يا مريم، وتأكدت من نومي، لكنني رأيت كل شيء ولم أصرخ!، كُنت خائفة من فكرة طردي أنا وأمي خارج المنزل، وأخبرني شيطاني بأن ما يحدث قد يكون حلًّا مُناسبًا، رأيتها تحفر لك تحت الشجرة وتخبئ جثتك، وتزرع فوقك تلك االشجرة اللعينة!، أعلم أنك قد صرت هي الآن فسامحيني، قاتلة أنا يا مريم، وابنة قاتلة، أعلم أنك قد أخذت بثأرك منها منذ سبع سنوات، ماتت وحيدة، بعدما نبذنا أبي وهرب مع أمك المكلومة. لم يتمكن أحد من اكتشاف ذلك الجرم فلقد انعقد جذرك في الأرض ونمت فروعك بطريقة وحشية، وكأنك تستعدين للانتقام، أعلم أنها ماتت مُختنقة بعدما التف أحد فروعك حول رقبتها باستماتة، اخترق رقبتها بوحشية، ولم يتمكن أحد من فصله عنها فاضطروا لأن يقطعوه، ويدفنوه معها، حتى تذهب إلى ربها مُحملة بذلك العار إلى الأبد. أنا جاهزةٌ الآن يا مريم، عدت إليك امرأة هلوك طاعنة في السن، شجرة عجفاء، بلا زوجٍ أو ابن، أرجوكِ أحتضنيني الآن، أشعر بأغصانك القوية وهي تلتف حول عنقي. أنا الآن قد أسترحت بجوارك، فأنا ضعيفةٌ جدًا يا مريم.

ملحوظة يتم تسليم الرسالة ومفتاح المنزل إلى الأستاذ عيسى المحامي، ليقوم بتنفيذ ما تبقى من بنود الوصية.

وقف الأستاذ عيسى يس المُحامي يقرأ الرسالة التي وجدوها فوق جثة روحية باكيًا، وهو يتابع وكيل النيابة الذي أمر الرجال بنقلها إلى سيارة الإسعاف، وهو يملي كاتبه وهو في حالة اندهاش قائلًا، هذا وبناءً على تقرير الطبيب الشرعي فقد حدثت الوفاة منذ سبعة أيام، نتيجة لاختراق أفرع الشجرة القاتلة، أماكن عدة في جسد القتيلة، هذا وقد أوصينا خبراء من وزارة الزراعة باجتثاث الشجرة من جذورها لتحديد هوية الفتاة القتيلة مريم، بناءً على خطاب القتيلة روحية محمد العسال.

(40)

الأمل

لم يعد يرغب في المشي بتاتًا بسبب جيوش النمل التي تزحف على ساقه اليسرى محدثة دوامات لا نهائية من الوجع، تعجز كل مسكنات العالم عن إيقافها ذلك النمل الذي ينتفض رافضًا جلسات العلاج الطبيعي التي يجريها في مركز التأهيل. أحيانًا ما تصيبه كلمات التشجيع بالسأم، يشعر أحيانًا أنه لا أمل من كل ذلك، لكن عدة بسمات صافية من شقيقته الطبيبة المثابرة بسمة، كانت تعيد إليه الأمل مرة أخرى. فهم الآن لماذا يحبها المرضى ويدعون لها كلما زارها في المستشفى. أعادت جلسته في حوض السباحة بعض الاسترخاء إلى جسده، قرأ تلك الجملة المكتوبة على جدران المركز العلاجي بخط كبير باللغتين العربية والإنجليزية لقد حفظها من فرط ما قرأها.

"أنت لا تحصل على ما تتمناه، ولكنك تحصل على ماتعمل من أجله" تأملها في إعجاب وحفظها عن ظهر قلب، آه لو كان قد اكتشفها قبل ذلك، كان ليُحطم بها الدنيا بالفعل هل تعمل هذه الحكمة هنا وفي هذه البلاد. ضبط نفسه متلبسًا بفكرة سلبية سابقة فقرر محوها من رأسه نهائيًا. لقد قرر العودة والعيش من جديد بمنطق الأرض صفر. ازرع تحصد، لا شيء آخر قرر أن يسامح يحيى القديم، أن يغفر له ويرحمه، لقد دفنه هناك تحت عجلات تلك السيارة البائسة. الذي

نهض الآن، هو يحيى جديد تمامًا. كان حوض السباحة مريحًا جدًا لدرجة أنه شعر بالاسترخاء وبقوة لا نهائية مع آخر جلسة علاج طبيعي داخل حوض السباحة. انتفض واقفًا على قدميه وقذف بكل المياة التي خلف ظهر إلى الوراء، وكأنه يسقط كل ماضيه وهمومه لقد انتهى الماضي وعليه الآن أن يبدأ من جديد. يحيى عنده الآن ما يحكيه، عنده الآن ما يمكن أن يسهر من أجله دون توقف. نبهته بسمة لموعده بعد نصف ساعة فارتدى ملابسه واتجها إلى هناك.

كنيسة القديسة هيلانا بالعباسية:

ساعدته بسمة على النزول من سيارتها الصغيرة وهو يتوكأ على عكازه المعدني، حتى وصل إلى الحديقة جال بعينيه يجلس شاردًا في نهاية الحديقة الرجال. خطى خطوات متثاقلة على السلم حيث الباحة الكبيرة، ويجلس الرجال متقابلين في خشوع على كراسيهم مستمعين إلى الواعظ الذي يتحدث عن العمل الطيب، والرحلة في الملكوت. بينما اقترب يحيى من كرسي جرجس مقار الذي لمحه فوقف مسرعًا واحتضنه، وبكى، هدأ يحيى من روعه وظل جالسًا بجواره حتى انتهى كل شيء. حتى بقيا وحيدين في حديقة القديسة هيلانا. كان يحيى صامتًا بينما جرجس يبكي بصوت مرتفع، بينما بقي يحيى صامتًا وهو يربت على كتفه في هدوء. لكن جرجس قطع بكاءه قائلًا:

- لقد منعوني من السفر، في الوقت الذي رغبت فيه في رؤية حفيدتي منعوني من السفر، غمغم يحيى في هدوء:

- وما جدوى السفر، نظر له جرجس في تعجب قائلًا:

- ماذا تقول؟ رد يحيى.

- أحباءنا في قلوبنا، ستتقابل أرواحنا في الملكوت فمى جدوى السفر، تنهد جرجس قائلًا:

- وكأنني أسمع صديقًا قديمًا، كان يقول لي ذلك، رد يحيى وهو يمسك بشيء وضعه في كف جرجس مقار الذي فرد يده في ذهول وهو يتأملها، يمامة عاجية بيضاء رقدت على كفه في سلام. ظل يحملق فيها وهو يسترجع الكلمات وكأنه يتذوقها "ابق هنا بين القدم والكتف، في كنف آخوانك الذين سيحملونك حيث تنام اليمامات في سلام فوق شجرة التوت العتيقة ،ابق هنا في كنف الخير والرحمة". كان جرجس مقار يستمع إلى يحيى في ذهول وهو يحملق في السقف وكأنه يقرأ من كتابٍ الكون الفسيح، أنهى يحيى ديباجته التي بدت وكأنها تُملى عليه من شخص آخر. ثم صمت. بينما أطرق جرجس والكلمات تتردد في أذنه:

- يمامات – شجرة توت – بين الكتف والقدم. ثم نظر ليحيى والدموع تطفر من عينه قائلًا:

- بالله عليك من أين أتيت بتلك الحمامة وتلك الكلمات. أغمض يحيى عيناه للمرة الثانية في ألمٍ قائلًا:

- أنا لا أعلم شيئًا، لقد قابلت ذلك الرجل الصالح وأعطاني إياها. بكى جرجس قائلًا:

يا الله إنه هو، صديقي المقدس ملاك، لقد كانت تلك الحمامة هي أخر شيء وضعتها في قبره، ومعي واحدة أخرى في المنزل.

- أنا لا اعرف شيئًا لكنه يخبرك بأن تبقى هناك بجواره في السيدة زينب، وأن تتدفن معه. نظر له ثم نهض تاركًا جرجس يبكي على الكرسي الخشبي في حديقة القديسة هيلانة. تركه ورحل بينما جلس جرجس على الأريكة الخشبية يتطلع إلى السماء وهو يهمس مردداً:

- ابق هنا بين القدم والكتف، في كنف أخوانك الذين سيحملونك حيث تنام اليمامات في سلام فوق شجرة التوت العتيقة، وترقد الحيوانات في هدوء، ابق هنا في كنف الخير والرحم.

(41)

آدم

الرحلة إلى الأرض صفر تلك الرحلة التي سيقطعها الإنسان يومًا، لكنه لن يتحدث بعدها، تلك الأرض ذات القوانين الخاصة، فهنا خلاصة كل شيء، النتيجة الحتمية للفعل الإنساني في كل صوره، الخير والشر، الحب والكره، السعادة والشقاء، في الأرض صفر لا حيلة لك فقد انتهى عملك، أنت هنا مُتفرجٌ فقط، ولا مهرب لك سوى بإذنٍ منه، فهو العلي القدير، أيًّا كانت هويتك، ملامحك هويتك في الحياة، إن كنت عاصيًا أو تائبًا، فما عليك إلا أن تُغمض عينيك وتضم قبضتك إلى السماء مناديًا عليه بكل قوة صارخًا يااارب.

لا يعرف منذ متى وهو يكتب، لكن المد اتصل، والنهر زار الأرض العطشى فسقاها فجلس يكتب ويكتب. لقد قدموا له في الأرض صفر تاريخًا يجب أن يُحكى، واتصالًا لم ولن ينقطع لقد كان محظوظًا إنه ذهب هناك ثم عاد، لا يعرف كم مكث هناك لكنه كتب جملته التي خطها فوق الورق. الأرض صفر حيث اللازمان واللامكان، نام من فرط التعب. عاد إلى جزيرة الوحوش، لا يزال كرم يقاتلهم وحيدًا لكن الوهن أصابه كثيراً وجراحه غائرة، انتظره بعد نوبة قتال عنيفة مع الوحوش، فوجده مستلقيًّا في وهن على الشاطئ والماء المالح يغسل

الدماء التي تنزف من جسده، اقترب منه يحيى مشجعًا إلا أن كرم جلس وهو يلهث ثم قال:

- أدركني يا يحيى، الوحوش تستعد للفتك بي، أرجوك أوصل الرسالة في موعدها. أرسل لها السوار الأخضر، واطلب منها أن تأتي، قل لها أن كرم لا يريد شيئًا لا يريد سوى أن نقاتل سويًا. أسرع يا يحيى وإلا انتهى كل شيء.

سقط يحيى من فوق كرسيه بعدما سمع صفير غلاية الشاي، فنهض مذعورًا وهو يبحث عن سوار الشجر الأخضر.

قائلًا:

- الآن يجب وضعه في يد المقاتل، قبل فوات الأوان.

(42)

يد المُقاتل

سار يحيى عبر الردهات البيضاء للمستشفى حتَّى عثر على المبنى الذي يرقد فيه كرم انكمش وهو يقترب من النافذة الزجاجية الكبيرة التى تشرف على سريره حيث كان نائمًا في سلام وحوله تلك الأجهزة البغيضة التي تعلن على استحياء إنه لم يزل حيًّا، كان جسده النحيل ورأسه الأصلع الخالي من أية شعرة، يرسمان صورة حزينة في صراعه غير المُتكافئ مع المرض اللعين، لم يصدق يحيى تلك العلامات التي تظهر على وجهه وكأنها جروح من شجار، لا يزال يتذكر قتاله العنيف المُتكرر مع تلك الوحوش الضارية في تلك الجزيرة الموحشة، لقد صار صديقه، تعلم منه العناد والمثابرة، كان واقفًا في ثبات وهو يتأمله، تذكر كل كلمة قالها له. تعلق بيديه في النافذة الزجاجية وهو ينظر تجاهه قائلًا: أنا هنا يا صديقي، أنا هنا كما وعدتك فلا تيأس، سأنقل الرسالة إلى أمك مهما كلفني الأمر، أرجوك أُصمد ولا تستسلم، أعرف مدى قوتك، رأيتك وأنت تصارع الوحوش في الجزيرة، يبدو أن تلك الجزيرة هي تلك المساحات المظلمة في جسدك. أنت أقوى من أي شيء، أعلم مدى معاناتك، فأنت الآن تقاتل وحيدًا، بعدما تركتك أمك، تذكره وهو يشير إلى الأوراق النقدية الخضراء، التي كانت تسقط عليه فيفركها بيده في عدم اكتراث. قائلًا له:

- لقد تركتني وأعطتني تلك الأوراق، ما قيمتها؟، هل رأيت أحدًا يستخدمها هنا، أنه قانون الأرض صفر، الأشياء الطيبة هي العملة الموحدة في تلك الأرض. ربتت بسمة على كتفه، بعدما لاحظت أنه بقي واقفًا قرابة النصف الساعة وهو يستند على عكازه المعدني قائلة:

- لا أدري ما الذي يبقيك واقفًا هكذا، لم تكن علاقتك به قوية فيما مضى قال لها وهو لم يزل يعطيها ظهره.

- مسكين!! من يزوره الآن؟ قالت بسمة:

- لم يعد أحد يزوره، على الأقل هو لا يشعر بشيء وأمه سامحها الله، استسلمت لحسابات النقود وحياة الترف، فهي ترسل له شيكًا كل فترة لكي نتابع علاجه ولم تعد تأتي.

- من قال أنه لا يشعر، أنه حزينٌ جدًا وسوف يموت إذا تركته أكثر من ذلك يحارب معركته وحيدًا، لقد تعلمت درسًا في الأرض صفر، ألا أترك شيئًا للظروف، فالعمل أفضل من الانتظار، لقد أرسلت إليها منذ أيام وأعتقد أنها على وشك الوصول. نظرت له بسمة باندهاش، لكنها لم تعقب، صارت تتوقع منه بعض التصرفات الغريبة منذ أن عاد مرة أخرى. قطع حديثهما وقع أقدام نسائية ترتدي كعبًا عاليًا تطرق به على الممر الأبيض النظيف، تطلع يحيى إليها في غضبٍ، زاد وزنها وبدت أكثر جمالًا وهي تختال في عبائتها الخليجية السوداء وتضع الكثير من مساحيق التجميل العالمية، وترتدي حذاءً وحقيبة جلدية غالية الثمن. زادتها الثروة جمالًا ونظافة، لكنها سلبتها ذلك البريق الذي كان يشع من عينيها برغم الفقر، بريق الإنسانية، إنه يشعر بتلك الانكسارات الداخلية، التي تمر بها، كانت قدماها ترتعدان وهي تقترب من غرفة ابنها التي انكشفت نافذتها الزجاجية الشفافة، ظلت تتأمله باكية وهي تنادي عليه بعدما منعها الأطباء من الدخول بينما عاد يحيى إلى مكانه واقفًا يحادث الطفل همسًا:

- أعلم أين أنت الآن يا صديقي، تقف وحيدًا على الجزيرة تقاتل الوحوش القادمة من أحراش الجزيرة ومن السماء، كم هي شريرة تلك الأرض التي تعيش عليها، لكنني أعلم أنك ستنجو منها، ستهرب منها إلى الأرض الرحبة الفسيحة، تلك الأرض الرحيمة التي يصالحك فيها كل شيء، أرجوك اِبعث سلامي للسيد زين، وللجدة، وللعباد في الجزيرة. رسالتك ستصل قريبًا لها فاطمئن. بحث حوله فلم يجدهما، كانتا قد استقرتا فوق أحد الكراسي المعدنية المتجاورة اقتربا منهما، رأها تبكي فصرخ في وجهها:

- تلك هي دموع التماسيح إذن، كيف تركت طفلك المريض ورحلت بحثًا عن المال الطفل سيموت أن تركته وحيدًا يجب عليك العودة والبقاء مع الصغير. ردت صباح بسلبية كادت تثير جنون يحيى الذي كان يسمعها والاحتقار يملأ رئتيه.

- أعمل إيه يا سيي يحيي يجب أن أستمر هناك. الرجل اشترط عليّ هذا الشرط وأنا قبلته، لو بقيت هنا، لما تمكنت من دفع تكاليف تلك المستشفى الباهظة، ثم أن معه ممرضة خاصة ترعاه، هو يحتاج للمال الآن أكثر مما كان. ابتسمت بسمة قائلة: في سخرية.

- غريبة؟! لم تنس صباح أسلوبها الدفاعي المتميز فاعتدلت لها ومسحت دموعها وهي تحرك شفتيها إلى جانب واحد وتستخدم حاجبيها المزججين بعناية، قائلة بطريقتها البلدية المعروفة التي لم تفلح في إصلاحها خبيرة الإتيكيت الروسية؟!

- وما هو الغريب يا حبيبتي؟!، أنا لم أرتكب جرمًا، لقد تزوجت، وعشت في مستوى أفضل لي ولابني فما الجرم في ذلك. كانت بسمة تقرأ التقارير الطبية في هدوء وكأنها لا تسمع تلك الوصلة العصبية من صباح. عدلّت وضع نظارتها الطبية على أنفها ثم قالت في عتاب:

- تقارير الطفل في العام الماضي يا سيدة صباح كانت أفضل بكثير عن الآن.

لم تستوعب صباح الجملة لكنها هدأت قائلة بلهجة عادت وهذبتها مرة أخرى:

- ماذا تقصدين يا دكتورة؟

- أقصد أن الطفل كان حاله أفضل عندما كان يتلقى علاجه في مستشفى الدمرداش، وأنت بجواره، لم تُضف له تلك المستشفى الفخمة شيئًا، بالعكس أن حالته تسوء، يبدو أنه قد فقد شيئًا هامًا في رحلة علاجه. بكت صباح في حيرة، لكن يحيى مد يده إليها ووضع شيئًا في كفها وهو يقول:

- نعم لقد فقد هذا. ارتعدت صباح وهي ترى ذلك السوار الأخضر الذي جدله كرم ابنها من ألياف شجرة الموز القصيرة في حديقة المستشفى، تذكرته وهو يفعل ذلك بعد كل جلسة تقريبًا، لم تكن تفهم لكنها كانت تشعر بتحسنه فكانت تصنعه معه وتتفاءل به وهي تدعو له قائلة:

- يارب حافظ عليه غصنًا أخضر نضرًا تزوره العافية، كتلك الأشجار الخضراء، يارب أبقي على عوده يانعًا ولا تجعل المرض يلتهم نضارته، مدت يدها المرتعشة وقبلت السوار الصغير الذي كان كرم يضعه دائمًا حول معصمه، ويقبله قائلًا أنه أيقونته السحرية التي تجلب له الحظ. رفعت صباح عينيها التي بللتها الدموع إلى يحيى الذي كان ينظر إلى زجاج الغرفة مرة أخرى وبدا تائهًا، وسألته:

- لكن كيف عرفت قصة السوار الأخضر هذا، وكيف حصلت عليه؟!

لم يجب يحيى عليها، بدا أنه في عالم آخر وهو يحملق في فزع تجاه الشباك الزجاجي الذي يقع أمامه سرير كرم كانت السماء تظلم، وأصوات الوحوش تقترب، الجسد يتخشب، والرأس يسحقها دوار مخيف، كأنه طبق دوار عنيف في مدينة ملاهي كبيرة، الذبذبات اللعينة تغمر كل قطعة من جسده وكأن وحدة كهرباء عملاقة قد اتصلت به كان يشاهد مع اللون الأحمر الذي كان يزور عينيه، صوت التنانين الذهبية وهي تهبط من سماء الجزيرة إلى رمال الشاطئ، بينما كرم، لا

زال يقاتلهم بضراوة وجسده قد أثخن تمامًا بالجراح، والوهن قد بدأ يدب في جسده، وهو ينادي عليهم.... ساعديني يا أمي، ساعدني يا يحيى. انتفض يحيى مصعوقًا وهو يشير إلى صباح أن تضع السوار الأخضر حول معصم صغيرها وتؤكد له أنها باقية معه، أنها آخر فرصة. قبل أن يسمع الجميع صوت استغاثة الممرضة التي تطلب طبيب الطوارئ، والجميع يهرول نحو غرفة كرم. تسمرت قليلًا إلا إنه جذبها من يدها ودخل الغرفة والأطباء يوشكون أن يضعوه على جهاز الصدمات الكهربائية، لتضع السوار الأخضر في يده. لكن الأطباء حاولوا منعها. بدا يحيى كالمجنون وهو يتوسل إليهم، أرجوكم هو الذي طلب منها ذلك أرجوكم، هو الذي يريدها أن تقاتل بجانبه، لم تنتظر بل ألبسته السوار وقبلت يده قائلة:

- خلاص يا بني سنقاتل سويًا كما تريد لكن ابقى أرجوك، ابقى أرجوك، كان الأطباء قد شرعوا في صدم يحيى بالكهرباء، فانتفض جسده بقوة، ثلاث مرات لكن قلبه كان قد استقر في المرة الرابعة، وعاد هادئًا. تنفس يحيى بسعادة عندما عاد الطفل ليفتح عينيه وهو ينظر إليهم وكأنه عاد من رحلة عجيبة، ركز عينيه على يحيى مبتسمًا، وهو يقول له بصوت ضعيف:

- شكرًا يا يحيى، أنا أحبك. ابتسم له يحيى وهو يقبل رأسه قائلًا حنان:

- حمدًا لله على سلامتك يا كرم.... ها أنا قد وفيت يا صديقي.

(43)

أفضل جدًا

أوقظه صوت ضجيج الحارة قبل مدفع الإفطار، كانت الغرفة مظلمة تمامًا باستثناء تلك الأشعة الضعيفة التي تسللت عبر ثقوب الشباك الخشبي، لقد اقترب موعد الإفطار، يعرفه دائمًا بصوت قرآن الشيخ رفعت المُنبعث من مأذنة مسجد السيدة زينب، فرك عينيه ونهض في سعادة، لم يشعر بتلك الخفة التي دبت في بدنه، والتي فقدها منذ أمدٍ طويل، إنه الآن يجاور رئيسة الديوان، لا يدري من أي مكانٍ سحري نبتت تلك التركيبة العجيبة في جسده واجتاحت روحه وكيانه تمامًا، رفض معها كل شيء، حياة الترف في أمريكا، أو تلك الفيلات المحنطة في المناطق الجديدة، مجاور رئيسة الديوان، حلم عمره الذي عاش من أجله، وشرف ما بعده شرف، قد يكون السبب هو دراسة التاريخ، أو صديقه المقدس ملاك قد يكون الأصدقاء وأهل السيدة، لكنه في النهاية تبهره كل تلك التفاصيل الصغيرة، تأكد من كونه عاشقًا عندما بدأ لا يرى السلبيات، بل أخذ يدافع عنها باستماتة، يتندر عليه الناس كثيراً كيف ذلك، مسيحي الديانة والنشأة، صوفي الهوى والمزاج؟!، تطلع إلى تلك اللوحة المعلقة أمامه بجوار المشربية والتي أهداها له رجال الجوقة في مسجد السيدة بعدما جلس معهم ينشد:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا وحبّك مقـرون بأنفاسـي.

ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهــم إلا وأنت حديثي بين جلاســي.

ولا ذكرتك محزوناً ولا فَرِحا إلا وأنت بقلبي بين وسواســي.

ولا هممت بشرب الماء من عطش إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكــأس.

ما لي وللناس كم يلحونني سفها ديني لنفسي ودين الناس للنـــاس.

نظر إلى المأذنة الخضراء المزدانة بالأضواء، وكأنها عرائس في أبهى صورها. التفاصيل تبهره تجعله يعود شابًا مرة أخرى، لولا تأكده من أصوله التي تنتمي إلى محافظة أسيوط، لأقسم الأستاذ جرجس مقار أن جيناته تنتمي إلى هنا، كان أصدقاؤه في مقهى دغموش يتندرون بكونه مسلمًا ومسيحيًّا في نفس الوقت، أو أنه كان ابنًا لإحدى أُسر السيدة زينب ثم تم اختطافه في الصعيد، لا يمكن أن يكون غير ذلك، فتلك الأشهر التي عاشها بينهم تؤكد ذلك، تطلع إلى القباب والمشربيات التي يتضافر فيها النحاس مع الخشب يشكلان روحًا لا مثيل لها، ذلك السبيل القديم الذي يجاور كبابجي الرفاعي، وباعة الفول الذين ينتشرون في الميدان بعرباتهم الملونة كل حسب مكانه المتفق عليه. مجاورين الست الذين بدأوا يخرجون من منازلهم، منطلقين بخفة الحمائم إلى ساحة المسجد التي عكست ضوءًا خافتًا. مال بجسده قليلًا من نافذة منزله القديم ذو المشربية الخشبية الرائعة، ليرى مقهى دغموش وكراسية المتراصة أمام مشهد المقدس ملاك حيث يجلسون كل يوم بعد صلاة التراويح حتى ينتصف الليل، يستمعون إلى قصصه ونوادره التي لا تنتهي عن القاهرة القديمة، وتاريخ مصر العظيم الذي لا ينضب، كانوا مشدوهين بطريقته الغنية في الحكي، قال له أحدهم بأنه يُذكره بجده الحكاء الذي نُفي في هوجة عرابي، ثم عاد ليحكي الحواديت حتى مات وهو يحكي أطلق آخر نفس من سيجارته وألقاها من شباكه على أرضية الحارة الرملية، تأمل البيوت العتيقة المتراصة بجوارب بعضها البعض، والصبية قد فرشوا الساحة بالرمال

وأضاؤها بالمصابيح الملونة، لتقام عليها الدورة الرمضانية ليلًا. رائحة التقلية المنبعثة من مطابخ الحارة، جعلته يسب السوتيه والأطعمة الجافة التي كانت تلقيها له ماتيلدا، صوت الشيخ رفعت الذي انتشر شذاه في المنطقة بينما الشمس الأرجوانية تدنو تدريجيًّا من القباب والمآذن تمهيدًا لرحيلها، سرت قشعريرة في جسده وهو يتناول سيجارته الثانية، ويحدث نفسه أنه كم كان محرومًا من ذلك الجمال الخرافي الذي يجتاحه بقسوة تذكر أنه جائع لم يتذوق شيئًا منذ صباح اليوم. لكنه لم يعبأ قرر أن يُعد لنفسه كوبًا من القهوة على السبرتاية الخفيفة، التي كانت تمنعه منها ماتيلدا بحجة إنها بلدي ودقة قديمة، ولا ترقى بمستواهم، لا سيما إنهم يملكون تلك الآلة الأمريكية الحديثة (صانعة القهوة) أو الكوفي ميكر، التي لم يُحبها جرجس أبدًا، ولذلك كانت تلك السبرتاية الجميلة، أول شيء اشتراه من سوق الجمعة عندما قرر العيش هنا، كان مستمتعًا برائحة القهوة التي أوشكت على الفوران، حيث دق الباب الخشبي للمنزل الصغير، فأنزل القهوة على مهل وفتح الباب بهدوء. ليجدها تبتسم له كالملاك الصغير. طفلة صغيرة لم تتعد السبع سنوات تحمل فوق رأسها صينية طعام، لقد عرفها بالشكل، هي ابنة جابر بائع الفول الذي يسكن المنزل المقابل له، لم تمهله الطفلة بل فعلت ما أملوه عليها، حيث عبرت الباب فافسح لها سريعًا لتضع صينية الطعام على المنضدة المتوسطة بجوار القهوة وهي تبتسم قائلة:

- أبويا بيسلم عليك، عاوز حاجة يا عمو تذكر جرجس مقار حفيدته ماجي نفس جمال الوجه ونفس الشقاوة المحببة فسألها ضاحكًا:

- اسمك إيه يا حلوة؟. ابتسمت قائلة:

- أنا بطة بنت جابر. عاوز حاجة تانية يا عمو. ابتسم جرجس قائلًا:

- اسمك فاطمة صح، أومأت برأسها مبتسمة فمد يده إلى جيب بذلته الداخلية

وقدم لها بعض الحلوى الملونة أخذتها وفتحت واحدة ولاكتها سريعًا في براءة محببة، وهي تقول في براءة، والحلوى تملأ فمها:

- شكرًا ياعمو.

ضحك في طفولة قائلًا لها:

- ألست صائمة يا بطة، ابتسمت له بابتسامة خبيثة وهي تلوك باقي قطعة الحلوى قائلة:

- آه نسيت، والنبي ماتقول لأبويا ياعمو: ضحك جرجس بصوت مرتفع في سعادة وهو يقول لها:

- لا مش هاقول لأبوكي بس، ممكن تقوليلي يا جدو. أومأت برأسها في دلالٍ وقبلته ورحلت. تركته ملتاعًا من فرط الشوق لحفيدته فبكى، انطلق صوت مدفع الإفطار، وقف يتأمل القاهرة العتيقة، وقد أصبحت خالية عن بكرة أبيها إلا من عابري السبيل الذين ضلوا طريقهم واقتربوا من المائدة الكبيرة التي مُدت في باحة أم العواجز. صمتت القاهرة تمامًا وهي تتناول طعام الإفطار، عاد ورفع الغطاء البلاستيكي النظيف من فوق صينية الطعام، كان جائعًا ومتعطشًا لطعام مصري حقيقي. أخذ يتغزل في الأصناف وكأنه يُناجي حبيبًا:

- محشى ورق عنب وملوخية وفراخ محمرة، الله الله أنا باحلم الله يسامحك يا ما تيلدا أنا نسيت الحاجات الحلوة دي من زمان. جلس يستمتع بالطعام، وهو يستمع إلى فوازير أمال فهمي على إذاعة البرنامج العام. دقائق قليلة مرت قبل أن تصل إلى مسامعه تلك الجلبة التي في الميدان، صوت طبول ومجموعة من المنشدين، قام ليفتح شباكه العتيق، ليراهم وهم يرتدون ملابس خضراء ويحملون رايات خضراء ويسيرون في اتجاه الباحة الكبيرة للمسجد كان يعرف بعضهم،

يراهم يسيرون هنا وهناك أو يجلسون في المقهى، كانوا يسيرون في خفة، لكن تجاه المقهى عند شجرة الصفصاف بالقرب من قبر المقدس ملاك.

تساءل عن سبب تغير وجهتهم هذه المرة من باحة المسجد إلى الاتجاه الغربي حيث المقهى وقبر المقدس، ثلاث لمسات خفيفة على كتفه خلعت قلبه حيث تلفت خلفه ليجده واقفًا هناك، شاب رياضي قوي الجسد الوجه له لحية سوداء مشذبة وشعر مجعد، يرتدي ملابس أقرب لمسوح الرهبان وعلى كتفه وقفت يمامة بيضاء لها طوق بني من الريش، نفس الحمامة التي وضعها يحيى في كفه عندما عاده في مرضه، تراجع جرجس ذعرًا وهو ينظر تجاه الباب المُغلق، ثم جلس على الأريكة الخشبية المُزدانة بكساء شعبي تملأه الورود المُلونة، ثم تناول كوب الماء الذي أمامه و نظر إلى الرجل الذي استدار بظهره ، بدا أنه يتابع ذلك الموكب الذي يسير بفرحة في الميدان، خارجًا من الطريق الأسفلتي إلى ذلك الممر الترابي المعبد، والمتجه غرب المسجد حيث مقهى دهموش وشجرة التوت الكبيرة التي تظلل قبر المقدس ملاك. لم يزل الرجل واقفًا وهو يعطيه ظهره ناظرًا إلى الجوقة التي في الميدان بينما اليمامة البيضاء لم تزل واقفة على كتفه في ثبات. قائلًا:

- أنت، غير معقول كيف حدث هذا؟! ،لكن الرجل رد عليه بهدوء متجاهلاً سؤاله:

- لماذا لم تذهب معهم؟. اندهش جرجس من السؤال قائلًا:

- أذهب إلى أين؟

- أذهب معهم فهم ذاهبون إلى الحفل. استجمع الرجل شجاعته قريبًا واقترب ليشاهد الجوقة وهي تسير، سأله في دهشة:

- أي حفل؟!

- ستعرف كل شيء عندما تذهب هناك!

- لقد كنت بالفعل ذاهبًا إلى هناك.

- وماذا تنتظر، هيا. الآن... لا تضيع وقتك فنحن جميعًا في انتظارك. اندهش جرجس قليلًا.

- أنتم؟ ماذا تعني بأنتم هل أعرفك؟، استدار الرجل في تؤدة قائلًا:

- شجرة التوت آخر ما يتبقى من الأرض الخصبة بعد بوارها، هل تعلم لماذا؟. هز جرجس مقار رأسه معلنًا نفيه فقال الرجل:

- لأنها تعيش طويلًا وتتحمل أكثر وتعطي أكثر من مثيلاتها. لقد صرت أنا وأنت مثلها يا جرجس سنبقى في أرض مثلها.

- بالفعل لقد بقيت يا سيدي فلقد حدث لي حادث مروع. نظر له الشاب مبتسمًا:

- إنه قدرٌ عليك أن تبقى هنا يا صديقي، ابقى هنا بين القدم والكتف، في كنف إخوانك الذين سيحملونك حيث تنام اليمامات في سلام فوق شجرة التوت العتيقة، وترقد الحيوانات في هدوء، ابقى هنا في كنف الخير والرحمة. اغمض جرجس عينيه واقترب من وجه الرجل المضيء قائلًا:

- ياه لقد سمعت تلك الكلمات منذ فترة قصيرة... إنه يحيى لقد قالها، وكأنها تملى عليه من المجهول، ياه ياه يا ملاك، كم أفتقدتك يا صديقي، لكن هيئتك قد تغيرتك لقد أصبحت أقوى من ذي قبل. أشار ملاك إلى قلبه قائلًا:

- كل الأُمور تبدأ وتنتهي من هنا: أومأ جرجس برأسه موافقًا، فقال له ملاك:

- لقد جئت لاصطحابك فلا تضيع الوقت.

- انتظر حتى أبدل ملابسي. لكن الشاب القوي مد يده في راحة على صدر جرجس فتحولت ملابسه إلى اللون الأبيض تمامًا كتلك الملابس البيضاء التي يرتديها.

نظر جرجس إلى ملابسه مندهشًا بينما قبض الرجل على يديه بقوة وهو يتحرك تجاه الشباك، صرخ جرجس قائلًا:

- الباب من هنا كيف سنخرج. نظر له ملاك قائلًا:

- لا بد أن نلحق بالركب حالًا. كانت النافذة تتسع شيئًا فشيء حتى صارت كبيرة جدًا، الارتفاع كان شاهقًا على الرغم من كونه يسكن في الدور الثاني فقط، لم ينتظر ملاك بل جذب جرجس من يده وهو يضع قدمه فوق أفريز النافذة الشاهقة، فطارت اليمامة بسرعة ليجذبها ملاك متعلقًا بها، لم يتخيل جرجس أن ذلك الطائر الصغير قد صار بذلك الحجم الذي حملهما بسهولة حيث اقتربا من الموكب الضخم الذي يسير في اتجاه شجرتي التوت وهم يحملون الرايات الخضراء والطبول، حتى اندفعت اليمامة لتسقطهما من ارتفاع كبير حيث الجمع الكبير. وجرجس يصرخ بكل قوته بينما صديقه كان هادئًا تمامًا ولا يحدث صوتًا، الطرقات قوية على الباب، أسقطت جرجس من فوق أريكته، يبدو أن هذا من تأثير الملوخية التي لم يتناولها من زمن لقد نام مكانه على الأريكة وحلم بذلك الحلم الغريب. قام ليفتح الباب الخشبي العتيق ليجد جاره وصديقه جابر بائع الفول يقول:

- يالا بينا يا عم جرجس، هانتأخر على الناس في مقهى دهموش، نحن ننتظر قصة يوسف أفندي بفارغ الصبر.

(44)

عاش مغرم صبابا

حكي أن محمد علي باشا أرسل اِبنه طوسون باشا على رأس حملة لمحاربة الوهابيين بالحجاز عام ١٨١٣م، واستطاع طوسون باشا أن ينتصر عليهم ويخرجهم من مكة والمدينة إلَّا أن الحروب اِستمرت بينهم بعد ذلك لفترة وأصيب طوسون باشا بجروح بالغة أودت بحياته وهو في ريعان الشباب، وفي رواية أخرى قيل أنه توفي جراء إصابته بمرض الطاعون. حزن محمد علي باشا على فقدان "طوسون" وفي هذه الأثناء طلب من طلاب البعثات التي كان يرسلها إلى أوروبا بالعودة إلى مصر بكل ما هو جديد من العلوم والمعارف، أحد هؤلاء الطلاب كان يدعى يوسف أفندي، الذي سافر ضمن مجموعة من الشباب لدراسة الزراعة في فرنسا وإيطاليا، وأثناء عودتهم إلى مصر أصابت سفينتهم رياح شديدة أجبرتهم على المكوث ثلاثة أسابيع كاملة في جزيرة مالطا وتصادف في تلك المدة أنه رست سفن حاملة أشجارًا مثمرة من جهات الصين واليابان، فاشترى منها يوسف أفندي ثمانية براميل لفاكهة تشبه البرتقال، لكنها تتميز عنه بأنها خفيفة القشرة كثيرة السكر تسمى "المندرين" بها شجر مثمر من النوع المعروف الآن باسم اليوسفي وعندما وصل الإسكندرية وجاء وقت مقابلة محمد علي باشا التمس يوسف أن يحمل معه بعضًا من هذه الفاكهة، التي كان قد اِشترى أشجارها أيضًا ليبدأ زراعتها في مصر، وعندما تناولها

محمد علي باشا أعجبته وسأل عن اِسم الفاكهة، وكان يوسف سأل قبل ذلك بعض الحاشية عمن يحبه محمد علي من أولاده أكثر من غيره، فأخبره أنه يحب طوسون باشا، فقال يوسف له: إن اِسمها هو "طوسون"، فتبسم محمد علي، وقال: ما اسمك؟ قال يوسف، فأمر محمد علي بتسميتها "يوسف أفندي" التي تقال أحيانًا "يوسفي" وأمر بزراعة هذه الفاكهة الجديدة في حديقة قصر شبرا.

هلل الجميع وهم يضحكون ويصفقون كعادتهم عندما ينهي الأستاذ جرجس أحد نوادره، بينما بدا هو ينظر إلى نقطة بعيدة هناك عند قبر المقدس ملاك، اِقترب منه يحيى وجابر وهم يثنون عليه إلَّا أنه قال بصوتٍ منخفض ليحيى وهو يضع يده على صدره، ويشير في اِتجاه النقطة. قائلًا:

- قل للمقدس ملاك أنني قادم لألعب مع حفيدتي ماجي، أندهش يحيى قليلًا فابتسم جرجس وهو يلهث، هل كنت تظنني غبيًّا وأنني صدقت تلك التمثيلية السخيفة التي يلعبونها عليّ، أنا أعلم كل شيء، ثمَّ اِلتفت إلى باقي الرجال قائلًا:

- أمانة عليك يا رجب أنت وجابر، إن مت، أدفنوني هنا بجوار صديقي المقدس ملاك، أنا قادم يا ملاك كفاك حفرًا هي جاهزة تمامًا نظر جابر له قائلًا:

- مالك يا عم جرجس، كنت بخيرٍ الآن فماذا حدث؟، مد جرجس يده بورقة صغيرة وضعها في جيب جابر قائلًا:

- عدني إن مت أن تدفني هنا، واكتب على قبرى ما سوف تجده في الورقة، فهل تفعل ذلك: قال جابر في حزمٍ:

-أعدك يا عم جرجس، ولو كلفني هذا الأمر حياتي سوف أنفذه. اِبتسم لهم جرجس وهو يقول لهم:

- شكراً لكم يا أبنائي شكرًا على السعادة، كان جرجس قد اِنكمش في كرسيه وعادت رأسه للوراء وأغمض عينيه مبتسمًا، لم يصدق الرجال أنفسهم أخذوا

يدورون حول أنفسهم مذهولين محاولين إنقاذه إلا إنهم في النهاية اِستسلموا وجلسوا باكين حوله على الأرض.

قام الرجال بالذهاب إلى كنيسة مارجرس واحضروا صديقه سمعان من الداخل، حيث قاموا بتجهيزه هناك وانتظروا.

جاءت زوجته ومعها، شقيقه الأستاذ منى مقار وشقيقته نادية وأبناءهم. بدا مستواهم الاجتماعي واضحًا من تلك السيارات التي تحيط بالجنازة، كان جابر يحاول أن يفهمهم

- وصية الميت واجبة يا بهوات، لقد أوصانا بدفنه بجوار صديقه المقدس ملاك، هنا عند شجرة التوت، ردت عليه السيدة الأرستقراطية قائلة:

- ليس هذا من شأنك يا بتاع أنت، كيف نترك شقيقنا يدفن في الشارع وسط الحوش والرعاع، زفر جابر في غضب وهو يقول كاظمًا غيظه:

- سامحك الله يا ست هانم، لا يمكنني الرد عليكِ إكرامًا لعم جرجس، لكن شقيقه الثاني الأستاذ متى أكمل المشاجرة:

- أرني كيف سترد وأنا سأدخلك السجن، سامحه الله، هو الذي جرأ علينا هؤلاء الحوش بسبب عيشه معهم كالصعاليك. زمجر الجمع إلَّا أنهم كانوا يحترمون ميتهم العزيز، كما أن الرجل له سطوة كبيرة فرد رجب قائلًا:

- سامحك الله، يا سيادة المستشار، نحن فقط ننفذ وصيته لقد طلب أن يدفن هنا، لكن شقيقه ذو النفوذ قطع كلامهم ووضع شابًا بجوار السائق وقال بلهجةٍ آمرة وهو يقاطعهم:

- بلاش كلام فارغ، اِذهب إلى كنيسة القديسة هيلانا أولًا ثمَّ إلى مدافن عائلة مقار، وهذا هو العنوان، اِنصاع السائق ومعه الشاب إلى تلك الأوامر قائلًا:

- حاضر يا فندم، حاول تشغيل السيارة إلا إنها لم تعمل، حاول مرة أخرى فلم تعمل، بينما اِنتبه كل من في الميدان وهم يتابعون ذلك المشهد المهيب وقد سرت الهمهمات بينهم، وصرخ المستشار متى في توتر:

-هل هذا وقته، كيف أحضرتم سيارة تالفة، أنا سوف أقاضيكم، رد سمعان في ذعر:

- السيارة جديدة يا فندم، والمسيح الحي كانت تعمل بكفاءة منقطعة النظير، لكني لا أعلم ما حدث، نظر لهم يحيى بقوة قائلًا:

- نحن نعلم ما حدث. نظر له متى في غضب قائلًا:

-هل أتلفتم السيارة؟ قال لهم يحيى ببساطة:

- أنزلوه من السيارة، وبالفعل أنزله الشباب من السيارة فدارت، وعندما وضعوه في السيارة مرة أخرى تعطلت. صرخ الناس وحملوه نعشه على الأعناق وهم يطلقون الزغاريد ويصرخون قائلين، كرامتك يابودراع، بركاتك يابودراع. بينما فر سائق السيارة ورحل أهله الأغنياء وهم يجرون أذيال الخيبة، بينما دفنوه هم بجوار صديقه المقدس ملاك، وكتبوا على قبره تلك الورقة التي مات وهي في يده.

"عاش مغرم صبابا، ومات مش ندمان".

(45)

المداد

خرج يحيى من منزل جرجس مقار بعدما شكرته ماتيلدا زوجته كثيراً واحتضنته في حب قائلة:

- أشكرك يا بني، لقد كان يتمنى ميتة كهذه، كان يحب أن تخلد ذكراه في هذا الحي الطيب، ربت يحيى على يدها قائلًا:

- أريد أن أخبرك بشيء غريب، أخفاه عنك. قطبت ماتيلدا حاجبها وانتظرته يقول:

- لقد كان يعلم أن حفيدته قد ماتت، وأن تلك الفتاة التي تحدثه على الهاتف مجرد ممثلة؟! بكت ماتيلدا قائلة:

- طوال عمره... شيال للحمول، لكنني لم أتخيل أن يعيش بعد هذه الكارثة، اِبتسم يحيى في أسى قائلًا:

- كان يمثل أنه يعيش يجلس بين الناس ويسير في أزقة السيدة زينب، يكتب ويرسم ويدخن على المقهى ويحكي، حتَّى آخر نفس، لقد كنت أشعر بمعاناته. لكنه لخص حياته في تلك الورقة التي كتبها هو بخط يده وكتبناها نحن على قبره، مد يحيى يده بالورقة ففتحتها ماتيلدا وهي تقرأ باكية:

عاش مغرم صبابا،بومات مش ندمان.

خرج يحيى إلى الشارع يتأمل الناس والوجوه، جرجس مقار مات، لكنه لم يمت نادمًا على كل هذا الحب الذي شيعه به أهالي المنطقة، وجعلوا من قبره مزارًا كأولياء الله الصالحين، لم يمت نادمًا كما أوصاهم أن يكتبوا على قبره، ذلك العام الحزين الذي فقد فيه الأحباء، كان جرجس مقار حكيمًا، لكنه كان يعاني من آلام الفراق، وهاهو الله قد رأب روحه وجمع شمله بصديقه المقدس ملاك. وهاهو المقاتل الصغير كرم قد عادت له أمه. عاد يحيى إلى منزله ونام على الأريكة مرتاحًا. الجو هادئ بالمنزل، لا يقطعه سوى صوت بعض المسلسلات المنبعثة من أجهزة تلفاز الجيران. وصوت الصبية وهم يلعبون بالكرة في الساحة القريبة من المنزل، يعلم سر الطمئنينة التي سرت إلى نفسه، لأنه لأول مرة منذ أمدٍ بعيد يصلي الفجر في المسجد الكبير ويكنس ساحته كما وعد عم أخيل على الرغم من عكازه المعدني الذي يعيق حركته. إنه لم يعد حزينًا وكأن عدستا عينيه الكئيبتين، قد تبدلتا بأخرتين أكثر بهجة، حتَّى صورة أمه التي أثارت في نفسه الحزن فيما مضى، كانت أكثر بهجة الآن، لقد رآها جميلة قوية تقف في وسط حقل عباد الشمس تجمع الزهور الكبيرة وهي تبتسم للشمس وهو يرمقها بإعجاب، فتلك هي آخر صورة لها، قبل أن يداهمها مرض الفشل الكلوي اللعين، كان وجهها لم يزل نضرًا لم يتعرض للشحوب، إنه يتذكر تلك الصورة جيدًا كانت اِحتفالًا بالتحاق ماجد بإحدى شركات البترول العالمية التي تعمل في البحر. بدت الصورة مرحة جدًا حيث جلست الأم سعيدة بينه وبين بسمة التي كانت تنام على كتفها في حنان بينما صاحب الحفل ماجد الأكثر طولًا يقف خلف الأريكة بثقة وابتسامة النصر تملأ عينيه، يتذكر يحيى أنه لم يكن مُكتئبًا وقتها بل كان الأمل يُداعبه بالحصول على

كل شيء. كل شيء يحيط به الآن كما رآه تمامًا في الأرض صفر صوت البحر القوي، وصليل السيوف، وصراخ التنانين على أرض الجزيرة الموحشة، صوت المداحين في الجوقة الكبير، وصوت اِبتهالات الرجل صاحب الشال الأخضر، أرجوحة روح الفؤاد وسيف حسن المزدوج، رائحة تبغ غليون السيد زين، ومنزل العائلة، كلمات الجدة الطيبة وهي تخترق أذنه، لقد نسج آخر خيط في سجادة والده وعلقها على الحائط بجوار صورهم في فخر، ردد الآية القرآنية في راحة: بسم الله الرحمن الرحيم "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ" صدق الله العظيم، تأمل سبحة والده الزرقاء التي صارت لا تفارقه ثمَّ نظر إلى صورته قائلًا:

- اِطمئن ياعم آدم... المد سيبقى متصل، ولن ينقطع بإذن الله ما دمت حيا.

وجد يحيى نفسه جالسًا على المنضدة يسحب القلم ويمضي. الآن يوجد ما يمكن كتابته عن تلك الحياة التي لا نعرف عنها شيئًا سوى ذلك الجزء الصغير الذي يظهر من جبل الجليد، كل البشر يخمنونه ما عدا هو، فلقد رآه وعاشه، لقد جذب الخيط حتَّى آخره، ورأى الجانب الآخر من الأرض صفر، أرض اللازمان واللا مكان، لا أحد يمتلك تذكرة وصول إلى هناك، ولا موعد يطلب فيه ذلك، لكنها المفاجأة التي تجعلك بين لحظة وأخرى من أهل الأرض صفر غالبية البشر يكملون الباقي من حياتهم هناك ويمتثلون للقوانين التي تحكمها تلك القوانين التي لا يعلمها غير الخالق الكبير. لا يعرف بالتحديد كم من العمر مكث هناك، وما هي وحدة قياس الزمن، ففيي أرض اللا زمان واللامكان، كل شيء له قانونه الخاص، والمحظوظين مثله فقط هم من يعودون مرة أخرى لترتيب كل شيء. الرسالة يجب أن تصل إلى أصحابها، لقد عاد من أجل حكمة الهية، العمل فقط هو كل شيء العمل. ولا

شيء يُنجيك سواه عندما تمر بروحك عبر ذلك النفق الملون الكبير، فقد تقابل أسرة كأسرة السيد زين أو مقاتلاً صلبًا ككرم، يقاتل الوحوش الضارية، فكن مستعدًا بسلاحك فأنت على أعتاب الأرض صفر.

وضع يحيى قلمه راضيًا عمَّا كتبه وهو ينهي آخر حرفٍ كتبه في روايته وأغلق دفتره الكبير مبتسمًا.

(46)

لحظات الانتصار

زحام ضخم في إحدى المكتبات الكبرى، الطبعة الخامسة قد نفذت من رواية الأرض صفر للكاتب الشاب يحيى آدم عبد الله، كل الأحباء قد حضروا لتهنئته على ذلك العمل الجيد حتَّى جوقة الذكر في مسجد السيدة كانوا هناك يحوقلون ويهللون في سعادة، وبجوارهم جلس الطفل كرم منتشيًا وفي يده سوار الشجر الأخضر الذي لم يعد يخلعه من يده بعدما تعافى، بدت الصحة على جسده اليافع، ونمت عضلاته بشكلٍ ملحوظ، كان منتبهًا لأحد الصحفين الذي سأل يحيى:

لقد كنت شجاعًا بتعاملك مع كل أخطاء الماضي بهذه الصراحة، لقد ذكرتها بكل تفاصيلها المخجلة أحيانًا ولم تخش النقد اللاذع الذي لا بد أن يصيبك من سدنة الأخلاق، ومن يدعون حمايتهم للشرف والفضيلة، إن تجربتك مع الأرض صفر جديرة بالذكر على أية حال، لكن كيف فعلت هذا وأنت حديث العهد بالكتابة وكيف صغت أبطالك بهذا القدر من الحرفية في الكتابة، اِبتسم يحيى قائلًا:

- أعلم أنني لن أكون بعيدًا عن مرمى النيران لكنني مُستعدٌ تمامًا، هناك في الأرض صفر، تعلمتُ مفهومًا جديدًا للشجاعة، فهي ليست هجمة تهور حمقاء، بل هي مواجهة خوفك الحقيقي وهزيمته، لقد تعلمت المواجهة، وصحيح إنها تجربتي الشخصية، لكنني لم أكن أكتب عن يحى آدم عبد الله، بل كنت أكتب

عن كل شاب في هذا الوطن العربي الكبير، كل شاب وشابة سحقتهم الظروف، ووطأتهم عربات التجارب الأليمة تحت عجلاتها القاسية، مشكلتنا الحقيقية أننا نبذل مجهودًا لمداراة العيوب لا للتصالح معها ومعالجتها من أصلها، فنحن اعتدنا على المُسكنات التي قد تسكن الألم لفترة لكنها في النهاية لا تعالج شيئًا، لذلك فأنا أردت أن أقول لقارئي، أنت لا تحتاج أن تعود من الموت لتبدأ من جديد، بل انهض الآن واسحق تلك الوحوش الضارية التي تحلق في سماءك كما علمني الطفل كرم، الذي هزم مرضه اللعين بفضل من الله، وأمه صباح التي أخطأت وأصابت، لكنها في النهاية لم تستسلم، وهناك عم جرجس مقار الحكاء العظيم الذي ترك فرصة هجرة سهلة إلى أرض الأحلام كما يقولون، واختار قطعة بسيطة من الأرض يحيا ويموت عليها، يساعد الناس ويدعم المحتاج. ودفن بجوار صديقه المقدس ملاك، أسطورة الحي وأبو الغلابة. ولذلك كتبت عنه أنه. عاش مغرم صبابة ومات مش ندمان. والجدة نعيمة المقاتلة التي علمتني جمال الكلمة والحرف وساهمت في تكوين شخصيتي بحزمها وقوتها.وأمي المسكينة المكافحة التي ذاقت الأمرين من اِنحرافي لكنها صبرت ومعها أشقائي الذين أحبوني ودعموني رغم كل عيوبي، وتعاملوا معي كأنني مريض سوف يشفى، فكانوا يصبرون على كل ما سببته لهم من حرجٍ ومتاعب، حتَّى يتسنى لي الشفاء وها أنا أقول لهم أنني شفيت، ورجال الحضرة الذين لا يفترون عن الذكر في تجارتهم ثمَّ يعودون مرة أخرى هناك إلى باحة السيدة زينب. أبطال روايتي، أبطال حقيقيون، هم موجودون حولكم يسيرون في الشوارع وينتقلون إلى أماكن عملهم كل صباح، وإلى مدارسهم وجامعاتهم، يدخلون بيوت العبادة راجين الدعم والقوة من خالقهم، ينجحون ويفشلون كلكم أبطال روايتي بالفعل كلكم أبطال.

ضجت القاعة الكبيرة بالتصفيق الحاد، بينما جلست صباح دامعة العينين وبجوارها اِبنها وهي تقبل يده من آنٍ لآخر، ثمَّ تشير إلى يحيى موجهة حديثها إلى صغيرها.

- أرأيت الأستاذ يحيى؟ لقد رفع رؤسنا جميعًا، وجعل الصحف والتليفزيون يزورونا باستمرار؛ لأنه هزم الشر والفشل، وعاد قويًّا ناجحًا. أريدك يا كرم أن تصبح مثله وأن تتفوق في دراستك وترفع رأسي كما تفعل دومًا، اِبتسم كرم وهو يرفع قبضة يده القوية ليحيى الذي اِبتسم وحياه بنفس الطريقة بينما جلست بسمة وبجوارها شقيقها ماجد ينظران له في فخر ويصفقون على تصفيق القراء والصحفيين، اِقتربت منه فتاة جميلة في العاشرة وهي تدفع له بالقصة ليوقعها، كانت جميلة وتشبهها تمامًا، ألحت عليه أن يلتقط مجموعة من الصور معها، فوافق ونهض وبمجرد وقوفه وجد النسخة الأكبر تتأمله في اِنكسار، وهي تقترب لتسلم عليه قائلة:

- كيف حالك يا يحيى مبروك نجاحك، لم يكنْ يحيى يسمع، لكن عقله كان يحدث ضجيجًا مدويًّا، ما الذي أتى بك الآن يا عاليا ليتك لم تأتِ، لو كان ذلك قد حدث منذ عدة أشهر فقط، لطرت فرحًا وارتميت في أحضانك مثل الطفل الذي وجد أمه في الزحام ولغنيت لك رباعية صلاح جاهين التي قاسمتيها معي.

أنا اللي بالأمر المحال اغتـــــوي

شفت القمر نطيت لفوق في الهـــــوا

طلته ما طلتوش إيه أنا يهمنـــــــي.

وليه... ما دام بالنشوة قلبي ارتوي. عجبي!!

لقد كانت عيونك هي سبب شقائي ياعالية، لكنها لم تعد بعد ذلك، لقد صرت قويًّا بما يكفي كي أتخلى عن كل من تخلى عني، لقد تخليت عن إدماني للخمر في بار الطاووس، وليس صعبًا أن أرحل تاركًا كل ماضيك خلف ظهري، فأنت الآن لا شيء أنني أنوي أن أحيا، لا أن أموت من جديد، اِندهش من كونه لم يشعر بشيء، بل كان قويًّا هذه المرة، كان يفكر بها كحمى قاتلة كادت تفتك به من فرط وطأتها

لكنه قد نجى منها الآن، وكأنه قد تناول الدواء وكتب الله له الشفاء سمعها تختلق الأعذار قائلة لقد كنت أتوقع لك النجاح من أيام الكلية كما تعلم. لم يكنْ يستمع لما قيل بعد ذلك فلقد قالها كل الناس تقريبًا، كل الذين رأوه ضائعًا أو تسببوا في ضياعه يومًا وأداروا ظهورهم، كان يستمع لدمية من الحلوى تنطق ببعض الكلمات الجوفاء، فهم منها إنها مطلقة الآن، وبالطبع هي دعوة الآن لتعويض ما فات، ما أجمل تعويض ما فات مع شخص ناجح وغني!!! وبالطبع لاحظ إمارات الغضب التي ظهرت على وجه شقيقته وهي تكلم شقيقه، لقد كان يرى حركة شفاههم من ذلك المكان ويبتسم إنهم بالطبع يلعنونها الآن. كانت بسمة تقول بغضب:

- ما الذي أتى بتلك الحرباء إلى هنا، ألَّا يكفي تلك المصائب التي سببتها، لقد كاد يموت لأجلها تلك الحقيرة الشمطاء. ضحك ماجد بسخرية وهو يقول:

- النجاح له ألفُ أب أما الفشل فله أبٌ واحد. نظرت له ضاحكة تلكزه في كتفه بدلال.

- أنت دائمًا هكذا ترد كجهاز اللاسكي، كان الله في عون من ستتزوجك فرد قائلًا:

- من تلك المجنونة التي ستتزوج رجلًا يمكنه أن يشتعل إذا اِقترب منه عود ثقاب، أحيانًا اشعر أنني كائن قابل للاشتعال، وإن دمائي قد صارت من مشتقات البترول، تضاحكا في ودٍ وهما يرقبناها تقف ذليلة أمامه، فقال ماجد في حزم وهو ينظر تجاه عالية في سعادة المنتصر.

- إنه يوم النصر فلما لا يحتفل بنصره، دعيه يأخذ بثأره قليلًا، يجب عليها أن تدفع الثمن. نظر إليها بحزمٍ والجميع يتدافعون خلفه. قائلًا:

- شكرًا لمجيئك عل أي حال. اِلتقط عدة صور مع اِبنتها وداعبها في حنان وهو يكتب لها على ظهر الكتاب، وعالية تقول له:

- أتمنى أن تقبل دعوتي على العشاء فابنتي سلمى تعشق كتاباتك، نظر لها ببرود قائلًا:

- أشكرك جدًا ربما وقتٌ آخر، فاليوم هو يوم هؤلاء الناس. نظرت له وهي تسأله عن رقم تليفونه وتهز كتفيها قائلة:

- حسنًا ربما يومٌ آخر وسأتصل بك، و... لكنها لم تتمكن من إكمال حديثها- حيث اِلتفت الشاب شاب وسيم طويل القامة ناعم الشعر يرتدي بذلة حديثة ويحمل في يديه باقة ورد جميلة، قال وهو يقدم صحبة الورد بثقةٍ:

- ألف مبروك يا أستاذ يحيى، لقد سعدنا جميعًا بنجاحك، احتضنه يحيى وكأنه يحتضن صديقًا قديمًا، أهلًا وسهلًا دكتور سمير، سعدت جدًا بقدومك، رد سمير بأدبٍ:

- إن زيارتك لمنزلنا ودعوتك الكريمة لحضور حفلك. غمرتني بالسعادة فكيف لآتي، اقترب منه هامسًا وكأنه يحادث صديقًا عزيزًا بينما قال ماجد في مرحٍ، يبدو أن هذا هو يوم لم الشمل، أشاحت بوجهها قائلة في غضب: تقصد أنه يوم نكأ الجراح، ضحك ماجد وهو يهزها بساعدة، لا أعتقد، لقد جاء يحمل باقة ورد، وهو يتحدث مع يحيى بود غير مسبوق، يبدو أن يحيى قد رتب كل شيء، قالت له بسمة محذرة وقلبها يدق بعنف:

- أُصمت الآن، إنه قادمٌ إلينا.

اقترب سمير من ماجد واحتضنه في ود ثمَّ سلم على بسمة وجلس بجوارها، وهمس لها بعدة كلمات، فتظاهرت بالغضب قليلًا لكنها تطلعت إلى يحيى في سعادة بينما غمزتها صباح قائلة:

-ألف مبروك، سوف يزوركم الخميس القادم قالت لها بسمة في دلالٍ:

- آه منك أيتها الملعونة، لقد كنت تعلمين كل شيء، وأنا الذي كنت أتساءل ما كل هذا التزين منذ الصباح كم أنت خبيثة، ضحكت صباح في خفة قائلة:

- ليس عندي ما هو أغلى منك، حتَّى أعده لمثل هذا اليوم، وها هي النتيجة قمر في ليلة التمام. كان يحيى يتأمل الحفل وعينه تدمع في سعادة.

خرج الجميع منتشين من الحفل حيث دعى يحيى أصدقاءه لتناول الكباب في مطعم الرفاعي القريب من منزلهم. وأصر أن يأتي سمير معهم. لكنه فوجئ بناشره ينتحي به جانبًا ويهمس في أذنه.

- عندي لك مفاجأة سارة يا صديقي. ابتسم يحيى قائلًا:

- هل ستدفع حساب المطعم، نظر له الأستاذ محمد قائلًا والابتسامة على وجهه.

- محاولة زكية منك لإيقاعي في الفخ، لكن ما سأقوله لك سيجعلك تدفع الحساب راضيًا وسعيدًا، نظر له يحيى واتسعت عيناه في سعادة، عندما أعطاه كارتًا للمنتج السينمائي. المعروف داود بركات لقد اِتصل بي اليوم ويريد منك أن تزوره في مكتبه غدًا. مبروك يا يحيى ستتحول روايتك الأرض صفر إلى فيلمٍ ضخم التمويل. قريبًا.

(47)

الصباح

خرجت صباح من مكتب الأستاذ عيسى ياسين المحامي بعدما حصلت على نصيبها من إرث روحية الذي قسمته بينها وبين اِبنها حسام، لم تصدق ذلك المبلغ الكبير الذي تركته لها، لم تكنْ تعلم إنها غنية إلى هذا الحد!! فهي تملك الكثير من الأراضي والمشاريع التي كان يديرها الأستاذ عيسى. لقد كانت تعيش كالفقراء، وكانت صباح تعاملها على كونها فقيرة، لكنها فهمت من الأستاذ عيسى كل شيء، فهمت أنها زهدت كل شيء حتَّى المال. وفضلت العيش هكذا!! ضبطت نفسها شاردة تسير في الشوارع، القاهرة جميلة جدًا في المساء كل شيء فيها يثير السعادة والراحة حتَّى الزحام لم تكنْ الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً، السعادة تغمرها وهي تُمسك كرم بيدها كمن يقبضُ على ثروة لقد كانت الرحلة عصيبة وهما يصارعان المرض سويًّا، وكانت أصعب عندما اِفترقًا وتركته وحيدًا يُصارع المرض اللعين الذي كاد يفتك به لولا أن الله أرسل لها تلك الرسالة مع الأستاذ يحيى الطيب لما كان ذلك الولد قد عاش، مغفلة، لقد ظنت أن المال قد يوفر له علاجًا أفضل، وأن النقود قد تحل مشكلته، ولذلك تركته ورحلت، لكنها فهمت الآن، أنها كل شيء، وأن معركتهما واحدة. سارت وهي ترى الصبي وقد بدت إمارات التحسن الطفيفة على وجهه وهو يرتدى (كابًا)، ليحميه من نظرات الناس

التي لا ترحم، فلقد كان أصلعًا تمامًا لم ينمو شعره بعد، مر موكبهما الصغير بالقرب من بوابة مستشفى الأورام التي كان يُعالج فيها مؤخرًا ففزعت كثيرًا ووضعت يدها بشكلٍ لا إرادى فوق عينيه، وكأنها تحميه من شبح الموت المخيم على المكان، نظرت إلى السماء الفسيحة وهي تشكر الله بغمغمة خافتة، لقد صارت من الأغنياء بعدما قدم لها الأستاذ عيسى أوراق الوصية التي تركتها لها اِبنة عمها روحية، مبلغًا ضخمًا من المال سيجعلها غنية، سوف تُنشئ محل التجميل الذي طالما حلمت به، كما أن المنزل سوف يتحول إلى دار لرعاية الأيتام، أوصت بتسميته باسم مريم!!، كما أن كرم يتماثل للشفاء، صار صبيًا يافعًا، ينمو عوده ويشتد، كانت ممتنة لله أنَّه أبقاه على قيد الحياة وهو يحمل ذلك المرض اللعين بين خلاياه، سنوات عديدة ذاقت فيها كُل ألوان المُر، بداية من هروب زوجها المغوار من المعركة، مُتعللًا بأنها نحس، وأنها هي من تسببت في مرض اِبنهما، ورعايتها لابنة عمها روحية، تذكرت تلك الليالي السوداء التي قضتها في قسم الشرطة، بإيعاز من اللواء الكبير، حتَّى تُرشد عن مكان زوجها اللص وعشيقته الخادمة، لاقت كل صنوف الهوان، أقسمت لهم بكل شيء أنها لا تعرف شيئًا، قضت ليال سوداء طويلة حتَّى يأسوا منها وتركوها لحالها، بعدما رأوا ذلك الصغير المريض، والسيدة المُسنة وهم يبكون كل ليلة على باب القسم. ومن يومها قررت أن تقاتل كل شيء، حتَّى الحياة نفسها، هي لم تكنْ تنوي الزواج من الشيخ بلال لكنها فعلت ذلك أملًا في أن تحيا هي وابنها حياة كريمة، جالت بعينيها الواسعتين في السوق، عربة الفول الملونة ورائحة (الطعمية) الساخنة وهي تعوم في الطاسة السوداء الكبيرة، باعة الأقمشة والطُرح، نداء باعة الجوارب، بائع الجرائد والكتب، الذي وضع بوسترات عليها شخصيات كرتونية، مِمَّا دفع الصغير كريم لطلب واحد يضعه في غرفته. كانت تشعر بالأمل يتجدد في ذلك اليوم بعدما أخبرها الأطباء أن كريم يتماثل للشفاء وأنه لا يحتاج إلى جلسات (كيماوي) مرة أخرى، ولذلك، ولأول مرة منذ سنوات،

قررت (صباح) العاملة بمدرسة أم المؤمنين الابتدائية، أن تمارس الحياة، وأن ترى الدنيا التي نسيتها، في ذلك اليوم أحبت كل شيء ، الضجيج، شجار السائقين، فصال السيدات مع الباعة، زحام الشوارع، سخافة المتسولين، روائح الطعام المُنبعثة من المطاعم جذبها كرم من يده وهو يُشير إلى الأيس كريم الذي يقدمه محل جروبي الشهير، طلب منها واحدًا اِبتسمت له بسعادة، لم لا؟! تحتاج هي لبعض الترفيه في تلك الليلة الاستثنائية، جلست على منضدة أنيقة بجوار الواجهة الزجاجية للمحل الفاخر وهي تتأمل اِبنها يتأمل الدنيا ويلتهم الأيس كريم باستمتاع، كانت تشعر أنها قد ملكت الدنيا، سمعت صوت الرسالة النصية على هاتفها المحمول، رسالة كانت تتوقعها فلم تندهش لها كثيرًا.

"أرجو أن تكوني قد اِتخذتِ قرارك النهائي، أمامك مُهلة حتَّى الخميس القادم، وإلَّا سينتهي كل شيء. الشيخ بلال".

اِبتسمت في ضجر وأغلقت الهاتف وجلست تلتهم الأيس كريم في راحة وهي تطلع إلى كرم الذي كان يتابع البهلوان الذي يرقص في اِفتتاح أحد المحلات. لم تعد تشعر بالخوف كما سبق.

لقد علمتها تجربة المرض والغربة المواجهة، إن الوحش الذي نخشى اِنتظاره يجب مواجهته حتَّى لا يهجم علينا بغته، الأفضل أن نواجهه في عقر داره قبل أن ينقض علينا وينهشنا دون سابق إنذار!، نعم لقد اِتخذت القرار يا شيخ بلال لن أترك ثروتي التي منحني الله إياها وارحل، كان لا زال مندهشًا ويضحك من حركات البهلوان، اِستأذن منها أن ينطلق ليرقص معه، اِعترضت قليلًا خشية الزحام لكنه ألح عليها بأنه سوف يبقى أمامها هنا ويمكنها الاطمئنان عليه من الواجهة الزجاجية الكبيرة وافقت وانطلق هو يرقص مغمضًا عينيه في سعادة والمهرج يحتضنه ويرفعه إلى أعلى، شعر الناس بحالته فأعطوه مساحة للرقص واللعب،

وقاسمه الأطفال الحلوى التي كان يوزعها أصحاب المحل القريب، إبتسمت دامعة والإصرار ينطلق من عينيها ويرتد إليها وهي تنظر في الواجهة الزجاجية متابعة رقصات كرم الرشيقة، شعرت بالأمل والحياة، فالحياة تصبح شهية عندما يتجدد فينا الأمل، قررت أن تستثمر إرثها من روحية في مركز الصباح التجميل الذي التي تحلم به، إن نساء الحارة جميعهن يطلبنها لتزين بناتهن، ولطالما كانت نجمة في كل الأحداث السعيدة، تخرج الفتاة من تحت يدها كالبدر، تكره الفقر كما تكره المرض فقررت أن تواجه وتهزمه كما هزمت المرض بفضل الله، بالفعل لقد إتخذت القرار، كانت سماعات الدي جي المرتفعة تحمل إلى أسماعها صوت الشيخ ياسين التهامي مداحها المفضل وهو يصدح بالمديح الرائع، تحول الأطفال إلى رقصة المديح وكأنهم أفراد الجوقة المحترفين في مسجد السيدة زينب، وتحول الشارع كله معه إلى حلقة ذكر كبيرة، كانت السعادة تغمرها، وشعرت أن الله يسري عنها، فأغمضت عينيها وبدأت تتمايل معهم كأحد مريدين الحضرة الإبراهيمية على الكلمات الغنية:

*قلبـي يُحدثُنـي بـأنـك مُتلـفـي *** روحي فِداك، عرَفت أم لم تعـرفِ.*

*ما لي سوى روحي، وباذل نفسـه *** في حب من يهواه، ليس بمسـرفِ.*

*أخرجها لم أقضِ حق هواك إن كنـت الـذي * لم أقض فيه أسى، ومثلـي من يفي.*

النهاية

الطريق

نفس الطريق الذي سار عليه منذ عامٌ تقريبًا وهو يركب السيارة الصندوق تذكر العبارة، كعكة واحدة بالسكر تغير حياتك، بالفعل لقد كادت تلك الكعكة أن تقضي على حياته وحياة الكثيرين، في ذلك الطريق الضبابي القاتل الذي سار فيه وهو يحمل الموت للناس، كيف اِرتكب تلك الحماقة هو لا يدري، لكن، سبحان من أمر الدنيا بيده بين الكاف والنون، الحال تبدل إلى الأفضل ها هو الآن يسير على نفس الطريق الزراعي في تمام العاشرة صباحًا وهو يركب سيارة مرسيدس فاخرة، أصر المنتج الأستاذ داود على أن يجعلها بالسائق تحت أمره في الفترات القادمة حتَّى ينتهي من كتابة سيناريو الفيلم الذي أمضى عقده منذ أسبوع، خاصة وأن ساقه لم تكن قد شفيت تمامًا. كانت الشمس ساطعة ولون الخضرة الرائع يكسو الحقول، بينما جلس بالخلف يستمتع بصوت الموسيقى الكلاسيكية المنبعثة من سماعات السيارة الفاخرة، أمر السائق بتغير المحطة على إذاعة البرنامج العام حيث يستمع إلى برنامج حواديت أبلة فضيلة!! عادته التي لم تنقطع منذ إن كان يعمل مندوبًا لتوزيع الحلوى على هذا الطريق، يحفظ كل تلك القرى والنجوع يعرف التجار فردًا فردًا، جلس يتأمل الرواية بابتسامة شجن وهو يتذكر كل قرية مر عليها وله فيها مواقف عديدة، فهذه قد سرق فيها حذائه بعد الصلاة، وهذه

تعطلت فيها سيارته يومًا كاملًا في أحد الحقول، واستضافه أحد الرجال الطيبين في منزله، لم ينس أبدًا كرم ذلك الرجل الطيب عم سبيعي مصاب العمليات في حرب أكتوبر الفلاح المثقف وابنته الجميلة قمر الرائدة الريفية، باحثة الماجستير التي رفضت عقدًا للتدريس بأحد المدارس الخاصة في مقابل رعايتها لنساء وأطفال القرية كانت قمرًا بالفعل، تهادت السيارة على الطريق الذي بدا ناعمًا وحريريًا هل لأن رؤيته الآن اِختلفت أم أن التكنولوجيا الموجودة بالسيارة الحديثة جعلته كذلك، هو لا يدري، ولكنه يعرف شيئًا مهمًا أنه هنا الآن باختياره وفي أوج اِنتصاره أمًا فيما مضى كان منهزمًا مطحونًا، مجبرًا على السير هنا من أجل لقمة العيش، الصعبة وشتان الفرق بين الاثنين، تناول سيجارة من العلبة الأمريكية الجديدة، ووضع روايته أمامه فتح حقيبته الأنيقة ومد يده إلى العقد الذي مضاه بالأمس، عقد السيناريو الذي غير كل شيء، شعر أنه يحلم، هو بالفعل كان بالأمس يحتفل بكتابة أول عقد للسينما، وهاهو أوراقه أمامه، أخرج الشيك الذي بحوذته، ثمَّ أغمض عينيه شاكرًا لله قائلًا:

- إنه أكبر رقم قرأته، اللهم لك الحمد، الحياة تتغير الآن ويجب علي سداد الدين. اِقتربت السيارة من اللافتة المكتوب عليها سندوب الكبرى، سارت باتزان عبر الطريق الأفعواني الجانبي كما حددتها بدقة مؤشرات الباحث الجغرافي الجي بي إس. كان يحيى مُستغرقٌ تمامًا في الكتابة حتَّى اِقتربت السيارة من نقطة الوصول، ذلك المنزل الذي يبدو كقلعة حصينة فوق تلك الربوة العالية، يبدو شيئًا أسطوريًا بين كل تلك المزارع والحقول، أشار إلى السائق أن ينتظره وترجل من السيارة سائرًا بجسده الرشيق وملابسه الأنيقة التي أشارت لماركة عالمية. كانت عينا تدمعان وهو ينظر إلى الأرجوحة العالية التي كانت تركبها روح الفؤاد وتركل بها الوحوش بساقيها، شاهد السيارة الستروين المُحطمة تقبع خلف السور الخشبي، دلف عبره، فظهر عم جبر هذه المرة يُرحب به، نظر له يحيى مُندهشًا، هل يمكن أن

يُشبه جده عم عثمان حتَّى في السنة الذهبية، تمنى ألَّا يكون قد حصل عليها من أحد الأموات!!، تابعه وهو يفتح له البوابة الخشبية الضخمة، كُلُ شيء كما رآه تمامًا، مر عليه شريط الأحداث سريعًا، جدًا تذكر كل لحظة قضاها على الأرض صفر، اِقترب من قبورهم وقرأ لهم الفاتحة، ثمَّ جلس على ركبتيه أمام قبر أمه وهو يحدثها والدموع تطفر من عينيه:

- أعلم أنكِ قد عانيت كثيرًا بسببي، لقد كنت مصدر شقاء الجميع، سنتواصل ثانية، لقد رأيتك هناك في الأرض صفر، لقد تذكرت كل كلمة قلتيها وها أنا الآن أسير كما تحبين، أشار إلى كتابه الذي بين يديه قائلًا، لقد نجحت يا أمي. لقد حققت أمنيتك أخيرًا، للأسف أعلم أنها قد جاءت متأخرة، لكن على أية حال، أن تأتي مُتأخرًا خيرًا من ألَّا تأتي، وضع نسخة من الكتاب فوق قبر أمه، ثمَّ نهض ووقف أمام ذلك القبر الغريب الذي يرقد بجوار أشجار الصفصاف، ذلك الكتاب المفتوح للسماء، والمكتوب عليه المرحومة نعيمة زين. فتح روايته ووضعها فوق النقشة الحجرية للكتاب الذي فوق القبر وضعها مفتوحة، وكأنها خصصت لحجم ذلك الكتاب، وكأنها تقصد ذلك!!، قرأ لها الفاتحة ودعا لها، كتب في الإهداء إلى من علمتني جمع الحروف وصياغة الكلمات، إلى من وجهتني للقراءة، أنا الآن أقدم لك كتابي الأول كما وعدتك، روايتي عنكم، وكما تعلمتها منكم، وددت أن تكونين بيننا لتقرأيها، سمع صوت عصفور خلفه فاستدار ليجد عصفور كناريا أصفر، يغرد بصوت عذب وكأنه يحدثه، أغمض عينيه وتذكر ذلك القفص الذي يحمل عصفور كناريا في الأرض صفر نظر على رف الكتب، ليجد الأصيص الأصفر الجميل المنقوش بالورود الحمراء والعصافير الملونة كان مبهجًا جدًا وسط هذا الكم من الحزن، اِتسعت حدقتاه وغمره الذهول وهو يمد يده للأصيص، وقد نمت فيه وردة حمراء جميلة كانت فاخرة الملمس وكأنها صنعت من قطيفة، سبحان الله ما كل هذا الجمال، لقد تذكر ذلك الأصيص فلقد كانت تسقيه جدته في الأرض صفر، وكأنها تقولها الآن:

- سأقدمه لك يوم نجاحك. اِبتسم وهو يقرأ الفاتحة، حمل العصفور الأصفر في قفصه وأصيص الزهور. خرج من البوابة الخشبية واتجه حاملًا هداياهم إلى السيارة . فخرج السائق وتناولها منه في دهشة ووضعها بعناية في الخلف. ثمَّ سأله باحترام عن وجهته التالية، فرد يحيى بهدوء:

- عد بنا إلى القاهرة، فعندنا عمل كثير، أومأ السائق برأسه وفتح له باب السيارة، فاتكأ قليلًا ودلف إلى السيارة التي اِنطلقت تاركة خلفها القصر الذي يشرف على تبة عالية، تبة السيد زين، بينما يحيى يجلس بالخلف، وينظر خلفه من زجاج السيارة إلى المنزل، من حينٍ إلى آخر، بدا أسطوريًّا وسط كل تلك البقعة الخضراء التي تحيط به من كل الجوانب. لم يكنْ الجو مستقرًا في هذا اليوم، فلقد اِشتدت الرياح بكثافة، ولاحظ تلك السحابة الرمادية التي تُنذرُ بمطرٍ ثقيل. المطر بدأ خيفًا لكنه اِشتد واختفت معه معظم السيارات والبشر، بدأ الطريق الزراعي خاويًا وقت العودة، شعر يحيى بتوتر السائق محمود، وهو يسير في حذرٍ على الطريق الزلق. كان يحى يرى الكثير من الخيالات تقفز أمام زجاج العربة التي كانت تتحرك مساحاتها بشكلٍ عنيف، حذره محمود أكثر من مرة في توتر، الطريق زلقٌ جدًا يا أستاذ يحيى والمطر شديد يفضل أن نقف في اِستراحة قريبة. كان صوت طبول الحضرة تدق في رأسه، والرجال يزدحمون حول السيارة، والوحوش اِنتشرت على جانبي الطريق بينما وقف كرم محاربًا إياها، لمح وجه عم سبيعي الطيب وهو يضحك له ويشير إلى النخلتين وموضع سجوده، إنه هو ذلك الرجل الذي أنقذه يوم أن سرق اللصوص مال البضاعة، وأكرمه، لا بد أن يبحث عنه ويرد الجميل، مد يده في الحقيبة فأخرج ذلك الشال الأخضر، والخاتم الفضي الكبير المنقوش عليه، فإني قريب كان الدوار يعصف برأسه والدائرة تدور مرة أخرى وصوته يدوي في أذنه:

- لقد كنت تزرع أرضًا خطئًا يا يحيى، فعندما يضيق بك الطريق وتمطر عليك السماء، عندما توحل الأرض، ويعوي الرعد، اِرفع رأسك للسماء واصرخ بكل ما أوتيت من قوة بكلمة... يارب، ثمَّ اذهب إلى الأرض التي تنتظرك لتزرعها بالخير والحب، اذهب هناك يا يحيى، قربان الأرض هو ذلك الشال والخاتم فلا تفقدهما، لمح ذلك النور المضاء من الكشك نصف المغلق، وخلفه المنزل الكريم الذي يحوي مندرة يستقبل فيها عم سبيعي ضيوف الله ممن ضل بهم الطريق.

- اِدخل هنا يا محمود، اِمتعض محمود قليلًا، ثمَّ قال:

- هذه مغلقة، كنت أريد أن أشرب شايًا وارتاح قليلًا، دعنا نبحث عن واحدة أخرى مفتوحة في هذا المطر الشديد، اِبتسم يحيى وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

- أنت تشبه عم أخيل تمامًا يامحمود، أنت عصبي وقراراتك حازمة لكنك طيب مثله. اِبتسم محمود قائلًا:

- إنه يشكرك كثيرًا يا أستاذ يحيى لتعيني سائقًا عند الأستاذ داوود فهو رجل طيب ويعتني به، اِبتسم يحيى قائلًا:

- أتمنى أن أفي بالوعد.... اِدخل هنا يا محمود واركن سيارتك تحت تلك المظلة من الصاج، أعرف هؤلاء القوم، لا يُغلقون أبوابهم في وجه أحد أبدًا، ترجل من السيارة وخطى بسرعة كمن يعرف طريقه بعدما حمل حقيبته الجلدية الأنيقة ووضع الشال على كتفه من البرد، صعد ثلاث درجات على السلم البسيط، اِشتم رائحة الأرز المعمر، لقد ذاقه قبل ذلك، لا مثيل له أبدًا، وقف بجدية وخلفه السائق وهو يصفق بيديه، كعادة أهل الريف، عمله كمندوب مبيعات في الأرياف، علمه الكثير من العادات وأدخله الكثير من الأماكن التي لم يكنْ ليزورها، قد تكون تلك هي الحسنة الوحيدة من ذلك العمل الشاق. زعق بصوتٍ جهوري ليعلم من بالداخل إنه هنا.

- يا أهل الله يالي هنا، أضيئ المصباح الكبير للمندرة وفتح الباب الخشبي العتيق، نصف فتحه لتظهر نصف طرحتها فقط من الباب قائلة:

- معذرةً الطقس سيئ والعامل لم يأتِ اليوم، توجد إستراحة على بعد خمسة كيلو، هتف محمود بنزق قائلًا:

- والله أنا قلت له ذلك، فقال لي أنكم لا تغلقون الباب في وجه أحد أبدًا. شعر بها وقد أطرقت حزنًا فاقترب من الباب موجهًا كلامه لمحمود.

- نعم يا محمود، فعم سبيعي رحمه الله لم يكنْ يغلق بابه في وجه أحد. فتحت الباب بسرعة عندما سمعت صوته، تأملت ملامحه الوسيمة، وملابسه الجيدة التي كان يرتديها إرتبكت، إنتابها مزيج من الفرحة والحزن وهي تقول مسرعة:

- أستاذ يحيى، كيف حالك؟، لكن كيف عرفت، أن والدي قد تُوُفِيَ، لمحت ذلك لشال الأخضر والخاتم الفضي. كانت إمارات التعجب تسكن ملامحها الرقيقة والدموع تترقرق في عينيه. إبتسم محمود لكونهما يتأملان بعضهما منذ خمس دقائق مضت دون الانتباه لوجوده، لمحه يحيا يتأملها في نشوة، فقال لها بسخرية:

هذا الرجل سيفضحنا يريد أن يتناول الساندويتشات ويشرب الشاي.

ردت في ترحاب وهي تنادي على إحدى فتياتها:

- لا شاي إيه، الطعام جاهز فالأرز المعمر في الفرن والبطاطس أيضًا جاهزة، دخلت الفتيات ومعهم أواني الطعام شهية الرائحة، فصفق محمود في سعادة بينما جلس يحيى مطرقًا يفكر فيما هو أهم. لكنها أشارت إليه فهم بتناول الطعام حتَّى يخفي جوعه لما هو أعظم، لقد كان يحيى جائعًا لحياة حقيقة، وكأنه يولد من جديد. جلست تتأمله بفرحٍ بينما محمود يلتهم الطعام إلتهامًا، كان يحيى يأكل القليل، حاولت إطعامه إلَّا أنه جلس يدخن سيجارته ويشرب الشاي، حتَّى إنتهى محمود ثمَّ قال:

شكرًا لك على هذا الطعام اللذيذ، لكن. أنا متعبٌ جدًا، الطريق كان وعرًا هذا اليوم فهل لي أن أنام قليلًا على تلك الأريكة قليلًا حتَّى أتمكن من القيادة مرة أخرى، نادت بصوت مرتفع على صبية لم تتجاوز العاشرة وهي تشير إلى الحجرة الجانبية:

-يا زينب، ادخلي الضيف هذه الحجرة، اتركيه يستريح، اِمتثلت الفتاة لأوامر سيدتها وما هي إلَّا دقائق وعلا شخيره من فرط التاعب، فضحك الاثنان.

جلس يحيى مُسترخيًا على الأريكة يتأملها بإعجاب وهي توجه فتياتها لإكرام الضيوف، ثمَّ جلست بعد ذلك أمامه مُطرقة الرأس تفرك يديها البيضاء ببعضها وكأنها تُفكر قبل أن تقول شيئًا، كان صوت الفتيات وهن يتلون القرآن في الداخل مبهجًا بينما كان يسمع بعضهن وهن يعملن على النول، يعلم إنها تكرس حياتها لرفع حالتهن، كانت جميلة، بيضاء كالقمر، مستديرة الوجه، بضة الجسد، اِحمر أنفها قليلًا، من الخجل، بينما يحيى يتأمل ملابسها، لقد حل السواد محل ملابسها العصرية زاهية الألوان، والتي كانت تنطلق بها كالفراشة في مشغل الفتيات وفصل محو الأمية، لكنها لم تزل جميلة، أشفق عليها قليلًا، بدت لوحة للجمال الحزين. أغمض عينيه لثوانٍ فسمع ذلك الصوت مرة أخرى:

اذهب إلى الأرض التي تنتظرك لتزرعها بالخير والحب، اذهب هناك يا يحيى، قربان هذه الأرض هو ذلك الشال والخاتم فلا تفقدهما.

قالت له في خجل:

- أعزيك أنت أيضًا في وفاة والدتك، قطب بحاجبيه هو الآخر ثمَّ قال:

- كيف عرفت بوفاة والدتي، اِبتسمت في رقة وهي تشير بإصبعها قائلة:

- تحمل شال أبي الذي لم يكنْ يُفارقه وهذا خاتمه اللذان لم نعثر عليهما حين وفاته؟، ومع ذلك لم أسئلك كيف عرفت بوفاته؟.... وكيف حصلت على تلك الأشياء؟

اِبتسم يحيى وهو يتأملها في سعادة من وجد ضالته، ما كُل هذا الجمال، تلك الفتاة اِستثنائية في كل شيء لقد شعر الآن بما كان ينقصه منذ عودته من الأرض صفر، ذلك الوجه الذي كان يزوره وهو راقدٌ على سريره بالمُستشفي، لقد اِشتاق إليها اِشتاق لكلامها الناعم، لم يكنْ يتخيل أن يرى تلك المثقفة الجميلة تحيى هنا في قلب الريف، كانت قمرًا وإن كان الحزن قد طبع بصماته القاسية عليها، الهزال قد أصابها حزنًا وبهت لونها قليلًا لكنها ظلت قمرًا كما هي، ثمَّ قالت وهي تنظر إليه في عتاب:

- لقد تأخرت هذه المرة كثيرًا يا يحيى، بحثنا عنك أنا وأبي فلم نجدك، قالوا لنا إنك تعرضت لحادث اليم، وتركت شركة فرفشة، زارك أبي مرة واحدة وخجلت أن أذهب معه، وبعد ذلك هو نفسه.... كانت مطرقة تنظر إلى الأرض والدموع تبلل شالها الأسود. حاول أن يواسيها واقترب يلمس يدها في حب إلَّا أنها وجلت وسحبتها سريعًا. ثمَّ قالت بحزنٍ:

- عمك سبيعي مات وهو ينتظر عودتك، نظر إليها قائلًا في حسم، تعالي معي، نهضت خلفه، تابعته وهو يسير عبر الرواق الطويل ثمَّ ينحرف يمينًا، اِندهشت لأنه كان يتحرك في المنزل بخفة وكأنه قد ولد هنا على الرغم من أنه لم يزره سوى مرتان تقريبًا وجلس في المندرة الكبيرة فقط، إلَّا أنه من سلم المندرة الخلفي وانطلق إلى الحقل حيث كانت الشمس قد أوشكت على الغروب واختفى الجميع داخل بيوتهم هربًا من موجة البرودة العاتية التي اِجتاحت المنطقة. كانت تلهث خلفه وهو يسير بسرعة عبر الحقل، فقالت له باندهاش:

- ماذا تفعل يا يحيى، لكنه قال لها بحزم وهو ماضٍ إلى وجهته دون أن ينظر إليها:

- اتبعيني فقط، وسأخبرك بكل شيء.

سار بجسده الممشوق وقامته الطويلة عبر الأرض الخضراء خلف المنزل حيث مشغل الفتيات وفصل محو الأمية واتجه صوب جدول المياه الذي اِمتلأ وفاض بفعل مياه المطر، سار دون أن ينظر لها حتَّى الكوخ الريفي الموجود على رأس الحقل تظلله النخلة المعقوفة، كانت حصيرة الصلاة قد رُفعت وحل محلها قطعة كبيرة من الحجر المُلون تُشبه الجرانيت، دقت بها بضع نقوش بالأسود، والبلح يسقط فوقها دون توقف، كانت تطلع إليه بدهشة وهو ينظر إلى موضع الحصيرة، كان يتمعن فيها وكأنه يرى شخصًا موجودًا، مد يده إلى البلح المتساقط أرضًا وتناول اثنان غسلهما من ماء الزير العذب ثمَّ تناول واحدة وقدم الأخرى إليها. كانت متخشبة ترفض الاقتراب أكثر من ذلك وهي تبكي بحرقة، لكنه جذبها إلى موضع الحجر وقدم لها التمرة قائلًا، وهو يشير إلى تلك الصخرة البارزة بجوار الكوخ قائلة، كليها ثمَّ اِقرئي له الفاتحة.

- كانت تبكي وهي تنظر إليه في فزع بينما هو. كان يقرأ الفاتحة في هدوء وبقى لدقائق يغمغم وكأنه يتحدث معه، قالت له في توتر:

- أرجوك لا تفزعني أكثر من ذلك، لقد كنت في غيبوبة حينما تُوُفِّيَ، فكيف عرفت أنه مات، وها أنت الآن تعرف موضع قبره. نظر لها في حنوٍ قائلًا:

- كان يزورني دائمًا، يكلمني وأكلمه، عرفت عنه كل شيء وتعلمت منه الكثير، نظرت له في دهشة وهي تنقل النظر بينه وبين قبر والدها، لكنه تابع قائلًا وهو ينظر للسماء وكأنه يتطلع إلى شيء لا تراه قائلًا:

- إنه الرجل الصالح، يوم وفاته هو يوم مولده وقبره هو موضع سجوده، ثمَّ أشار بإصبعه قائلًا بقوة:

- عم سبيعي، مات ساجدًا هنا لقد رأيته يا قمر، اِنتفضت قمر ووضعت يدها على صدرها وهي تقول:

- من أنت؟، تلك القدرات لشخص غير عادي، هل أنت بشر أم أنت شيء آخر؟ بسم الله الرحمن الرحيم، اِبتسم يحيى قائلًا في هدوء:

- منذ عامٍ تقريبًا كنت أبعد ما يكون حتَّى عن البشر لكن الآن، أنا أتيت من هناك، وذلك الوصف قاله لي عم سبيعي نفسه. هزت رأسها في حزن قائلة:

- رحمه الله، لقد أوصى بدفنه عند النخلة العجوز، والكوخ الذي كان يجلس فيه يقرأ القرآن، كان يطلب من الله دومًا أن يموت ساجدًا، ولقد من الله عليه واستجاب له، لقد ذهب لزيارتك وعاد حزينًا عندما علم أنك في المستشفى أثر حادث اليم، وكان يدعو لك دومًا بالشفاء. وكان يدعو الله أن يتحقق حلمه:

اِنتفضت قمر ونظرت للشال والخاتم وقالت له:

- آه صحيح، لقد كان الشال والخاتم لا يفارقانه في حياته، لكنني لم أجدهما عند وفاته فكيف وصلا إليك؟ ابتسم يحيى قائلًا:

- صبرك علي يا قمر، سوف أخبرك بكل شيء. لكن في البداية أحب أن أشكرك على كل تلك الكتب العظيمة التي أضاءت لي الطريق المظلم وأعادتني إلى القراءة الجميلة، لقد كنت أعيش معهم طوال فترة الاستشفاء والكتابة في المنزل، مد يده في الحقيبة وأخرج مجموعة من الكتب، قصة مدينتين، فجر الضمير لجيمس هنري، موسوعة مصر القديمة، روايات لنجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، ومحمد عبد الحليم عبد الله. نظرت للكتب التي أخرجها مندهشة، وقالت:

- ياه هل لازلت تذكرها، وتحملها معك أيضًا، لقد تخيلت أنك سوف تتخلص منهم سريعًا، نظر لها يحيي بحب ثمَّ تأمل الكتب ووكأنه يتأمل أصدقاءً أعزاء، ثمَّ قال:

- لقد كانوا أصدقائي في وحدتني، لقد ساعدوني في فترة الاستشفاء والكتابة في المنزل.

الآن أنا أعيدهم، وأقدم لك نسخة مهداه من روايتي، الأرض صفر. ردت الكتب له بدلالٍ قائلة: الكتب لك فهي هدية مني، أما الرواية فأنا سآخذها صمتت قليلة ثمَّ اِبتسمت قائلة:

- ألف مبروك لقد علمت بها بالطبع، وقرأت عن نجاحها عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وأوصيت اِبنة خالتي التي تعمل في طنطا أن تأتي لي بها، أنت تعلم هنا لا توجد مكتبات كبرى اِبتسم يحيى قائلًا:

- وها هي قد جاءتك بكاتبها أيضًا، اِبتسمت في خجل لكنه قال لها:

- من الممكن أن تقرأي الإهداء.

"القمر يضيء الطريق للسائرين الحيارى في الطرقات المظلمة، كنت ضائعًا حائرًا فأرسل الله لي قمرًا ليضيء لي طريق الحياة.

اِحمر وجه قمر وابتسمت فبدت نواغزها الجميلة، حاولت المرور على بعض السطور، ثمَّ قالت، أنت تعرفني في موضوع القراءة ضحك قائلًا:

- أعلم أنك ناقدة لاذعة، لذلك أدعو الله أن تنل إعجابك. اِبتسمت في سعادة!

- ستعجبني مادام اِسمك عليها، هل تتذكر كم قلت لك هذا، عندما رأيت أوراقك التي كنت تحتفظ بها في تلك العربة الكئيبة، ضحك يحيى قائلًا:

- ياه، هل تتذكرين ذلك. أومأت بجدية:

- بالطبع، لم أنسَ أبدًا وتحسرت عليك وقتها، كيف قتلت موهبتك في ذلك الصندوق الأحمر العجيب، ضحك يحيى قائلًا:

- لقد كانت رحلة طويلة طويلة جدًا، لقد كدت أفقد حياتي ذلك الصندوق الحديدي العجيب، ،هل يمكن أن أسئلك سؤالًا دون حرج، قالت له بصوتٍ خفيض:

- تفضل، قال لها بذكاء.

- قالت لي شقيقتي أن هناك فتاة كانت تزورني في المستشفى، جميلة كالقمر، وتقول أنها زميلتي في الشركة، هذه الفتاة هي أنتِ أليس كذلك؟ ضحكت برقة قائلة:

- أعلم أنني كذابة خائبة، اِبتسم هو أيضًا:

- لا تقلقي، لقد راهنت قلبي، أقصد نفسي. اِبتسمت قليلًا ثمَّ قالت في خجلٍ:

- بالفعل هو أنا، لقد سافرت إلى عمتي في القاهرة ومكثت هناك قليلًا، وزرتك بعد وفاة والدي، لم أمنع نفسي من زيارتك والاطمئنان عليك؟ مد يده بحنان ووضع على كتفيها الشال الأخضر ثمَّ قدم لها الخاتم قائلًا:

- والدك رحمه الله قال لي أن أقدم لك تلك الأشياء وأنت ستفهمين، اِبتسمت في خجلٍ. فقال لها:

- عمومًا هذا هو خاتمك، أمَّا خاتمي فسوف أقدمه لك الخميس القادم بإذن الله، بعدما أنهي موعدي مع المنتج وأحضر شقيقي وشقيقتي، لنقابل عمك مدبولي. اِبتسمت في تعجب قائلة:

- تعرف حتَّى عمي مدبولي أيضًا، هل صرت شيخًا أم ساحرًا؟! ضحك يحيى قائلًا :

- عمك مدبولي يملك محلًا للبقالة على أطراف القرية، أمَّا أنا فكنت أتجول بسيارة حمراء صندوق، وأبيع كعكة واحدة بالسكر.

تمت بحمد الله

شكرًا للمراجعة المتميزة والمناقشة

م/ عمرو بسيوني - د/ أحمد بسيوني

شكر خاص لفريق دار (ن) للنشر

أ/ حسام حسين - أ/ طارق وافي

للتواصل مع الكاتب

Email: ehab.esmat@gmail.com

Facebook: https://www.facebook.com/ehab.esmat.142

https://www.facebook.com/ehabesmatt

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007